كان التاريخية

تأسست غرة جمادى الثاني ١٤٣٠ هجرية

دورية إلكترونية - محكمة - ربع سنوية

متخصصة في البحوث والدراسات التاريخية

السنة الثالثة - العدد السابع | مارس (آذار) 2010م/ ربيع أول 1431هـ

الترقيم الدولي المعياري للدورية ISSN: 2090 – 0449

Historical Kan Periodical

متاحة للقراءة والتحميل عبر

دار ناشري | الأرشيف العالمي | ويكيميديا كومنز | الراعي الرسمي

يعكس ماضيها، ويترجم حاضرها، وتستلهم من خلاله مستقبلها، لذا كان من الأهمية بمكان الاهتمام به، والحفاظ عليه، ونقله إلى الأجيال نقلاً صحيحًا، بحيث يكون نبراسًا وهاديًا لهم في حاضرهم ومستقبلهم.

الواقع أن الشعوب التي لا تاريخ لها لا وجود لها، إذ به قوام الأمم، تحيى بوجوده وتموت بانعدامه. ولهذا كانت فكرة تأسيس دورية علمية إلكترونية تاريخية عربية أكاديمية موجهة لأساتذة وطلبة الجامعات العرب و الباحثين و أصحاب الدراسات العليا في فرع التاريخ وهواة القراءات التاريخية في كل أنحاء العالم.

بهاء الدين ماجد

المشرف العام على دورية كان التاريخية

مدير إدارة الخرائط بدار الكتب المصرية





علاقات تعاون



مركز المقريزي للدراسات التاريخية



شبكة ومنتديات حكماء للآثار والتراث



الجامعة العربية المفتوحة لشمال أمريكا

معهد سيراكون



المعهد العالي
لحضارات الشرق الأدنى القديم



مدرسة محمد بن عبد الوهاب
المستقلة (قطر)



رابطة الآثاريين بالإسكندرية



معهد المناهج

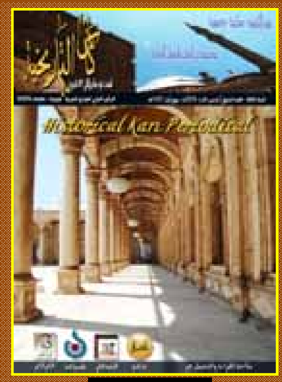




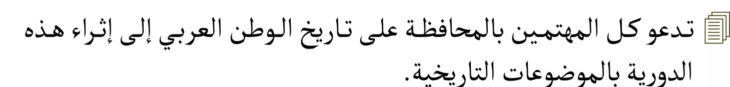
جمعية المحافظة على التراث المصري

Historical Kan Periodical
كان التاريخية
تأسست غرة جمادى الأولى ١٤٢٩ هجرية

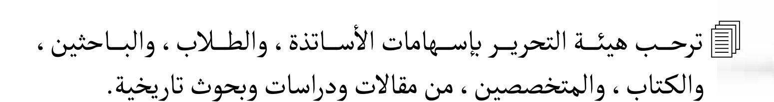
العدد السابع



دورية كان التاريخية



- تدعو كل المهتمين بالمحافظة على تاريخ الوطن العربي إلى إثراء هذه الدورية بالموضوعات التاريخية.



- ترحب هيئة التحرير بإسهامات الأساتذة، والطلاب، والباحثين، والكتاب، والمتخصصين، من مقالات ودراسات وبحوث تاريخية.

حقوق الملكية الفكرية



موضوعات الدورية



- الدورية متخصصة في المواضيع العلمية و الأكاديمية البحتة التي تخص أساتذة وطلاب الجامعات العرب وأصحاب الدراسات العليا والباحثين في الدراسات التاريخية والمهتمين بالقراءات التاريخية.

- الموضوعات المنشورة بالدورية تعبر عن وجهة نظر كاتبيها ولا تعبر بالضرورة عن جهة نظر دورية كان التاريخية أو هيئة التحرير.

المراسلات



توجه المراسلات والاقتراحات والموضوعات المطلوبة للنشر باسم رئيس تحرير دورية كان التاريخية على البريد الإلكتروني:

mr.ashraf.salih@gmail.com

موقع الدورية على شبكة الإنترنت



www.historicalkan.co.nr
ISSN: 2090 – 0449 Online



دورية كان التاريخية
متاحة للقراءة والتحميل عبر
دار ناشري للنشر الإلكتروني
www.nashiri.net

الراعي الرسمي
سلسلة المؤرخ الصغير
سلسلة كتب علمية تاريخية، تهدف إلى توفير المعلومة العلمية التاريخية



صورة الغلاف بعدسة الدكتور الفنان / هاني فانوس

قَواعِدُ النشَرَ

ترحب الدورية بنشر البحوث الجيدة والجديدة المبتكرة ذات الصلة بالدراسات التاريخية، مع مراعاة عدم تعارض الأعمال العلمية المقدمة للنشر مع العقيدة الإسلامية، وأن تتسم بالجدّة والأصالة والموضوعية، وتكتب بلغة عربية سليمة، وأسلوب واضح، مع الالتزام بالضوابط التالية:



نشر البحوث والدراسات العلمية

- تقبل الأعمال العلمية التي سبق نشرها أو التي لم يسبق نشرها أو تقديمها للنشر في دورية أو مطبوعة أخرى.
- اعتماد الأصول العلمية في إعداد وكتابة البحث من توثيق وهوامش ومصادر ومراجع.
- التزام الكاتب بالأمانة العلمية في نقل المعلومات واقتباس الأفكار وعزوها لأصحابها، وتوثيقها بالطرق العلمية المتعارف عليها.
- يجب إدراج الهوامش في شكل أرقام متسلسلة في نهاية البحث، مع مراعاة أن يذكر اسم المصدر أو المرجع كاملاً عند الإشارة إليه لأول مرة، فإذا تكرر يستخدم الاسم المختصر. وعلى ذلك فسوف يتم فقط إدراج المستخدم فعلاً من المصادر والمراجع في الهوامش.
- البحوث والدراسات التي يقترح المحكمون إجراء تعديلات جذرية عليها تعاد إلى أصحابها لإجرائها، أما إذا كانت تعديلات طفيفة فتقوم الدورية بإجرائها.

عروض الكتب

- تنشر الدورية المراجعات التقييمية للكتب "العربية والأجنبية" حديثة النشر أو القديمة.
- أن يعالج الكتاب إحدى القضايا أو المجالات التاريخية المتعددة، ويشتمل على إضافة علمية جديدة.
- أن يعرض الكاتب ملخصا وافيا لمحتويات الكتاب مع بيان أهم أوجه التميز وأوجه القصور.
- ألا يزيد عدد صفحات العرض عن (١٢) صفحة.

عروض الأطاريح الجامعية

- يُراعى في الأطروحات (الرسائل) الجامعية موضوع العرض أن تكون حديثة وتمثل إضافة علمية جديدة في أحد الموضوعات التاريخية.
- أن يشتمل العرض على مقدمة لبيان أهمية موضوع البحث.
- ملخص لمشكلة (موضوع) البحث وكيفية تحديدها.
- ملخص لمنهج البحث وفروضه وعينته وأدواته.
- خاتمة لأهم ما توصل إليه الباحث من نتائج.
- ألا يزيد عدد صفحات العرض عن (١٥) صفحة.

تقارير اللقاءات العلمية

- تنشر الدورية التقارير العلمية عن الندوات والمؤتمرات ذات العلاقة بالدراسات التاريخية التي تعقد في دول الوطن العربي، ويشترط أن يغطي التقرير فعاليات الندوة أو المؤتمر مركزا على الأبحاث العلمية وأوراق العمل المقدمة ونتائجها، وأهم التوصيات التي يتوصل إليها اللقاء.



Posting Rules

Historical Kan Periodical

ISSN:2090 - 0449

A specialized journal devoted to historical studies and research. Issued quarterly by: Junior Historian Series.

Kan exists to bring together people of all communities who have an interest in the past. It promotes and supports the study and teaching of history at all levels: teacher, student, amateur and professional.

Our Mission is Promote, develop and support the study of history at all levels. We publish a range of material for a wide variety of readers with regard to:

- Historical studies and research.
- Books Review.
- Thesis review.
- Reports of seminars and conferences.

Editorial Board invites all those interested in preserving the history of the Arab world to the enrichment of this periodical historical topic.

They also invite people who are interesting in historical studies to publish their useful writings.

Remark

- Receiving research "Word format "
- Memoir About the author is required include : Name, Degree, specialization, e-mail, personal site, personal blog, a personal image for publication with the article "if possible".
- Correspondence, advertisements and questions should be addressed to chief editor e-mail: mr.ashraf.salih@gmail.com



- تعطى الأولوية في النشر للبحوث والعروض والتقارير حسب الأسبقية الزمنية للورود إلى هيئة تحرير الدورية، وذلك بعد إجازتها من هيئة التحكيم، ووفقا للاعتبارات العلمية والفنية التي تراها هيئة التحرير.
- تقوم هيئة التحرير بالقراءة الأولية للبحوث العلمية المقدمة للنشر بالدورية للتأكد من توافر مقومات البحث العلمي، وتخضع البحوث والدراسات والمقالات بعد ذلك للتحكيم العلمي.
- الحقوق المتعلقة بالأعمال العلمية المنشورة تعود إلى الدورية، ويحق لأصحاب المقالات والأبحاث والعروض والتقارير إعادة نشر أعمالهم في أي دورية مطبوعة أو إلكترونية أخرى.
- تقوم هيئة التحرير باختيار ما تراه مناسباً للنشر من الجرائد والمجلات المطبوعة والإلكترونية مع عدم الإخلال بحقوق الدوريات والمواقع وذكر مصدر المادة المنشورة.

قواعد عامة

- تُرسل كافة الأعمال بصيغة برنامج "Word".
- يرفق مع العمل نبذة عن الكاتب تتضمن: الاسم، الدرجة العلمية، التخصص الدقيق، البريد الإلكتروني، الموقع الشخصي، المدونة الشخصية، صورة شخصية للنشر مع المقال"إن أمكن".
- تُرسل الأعمال المطلوبة للنشر على البريد الإلكتروني لرئيس التحرير mr.ashraf.salih@gmail.com

الحرث في حقول الماضي





إن كتابة التاريخ واحدة من أبرز الأنشطة الثقافية المتعددة ، وهذا العمل الكبير يتطلب القيام به بشكل منهجي وموضوعي مسئول ، والمؤرخ لا يستطيع أن يباشر عمله من غير منهج يعتمد عليه ، لذلك فهو لا يستطيع أن يستسلم لمزاجه ، فعمله عملٌ واع ولا بد أن يكون منظماً سلفاً. والباحث المختص بكتابة التاريخ له ولع شديد في التمسك بتطبيق طرائق البحث العلمي وتوظيفها في دراساته التاريخية ، ومن يتبع هذا المنهج العلمي الصحيح تراه يكثر من التشديد في تحليل المصادر التاريخية وتقويمها وفقا للنهج الصحيح المتبع في هذا المجال من العلوم الإنسانية. وهنا تبرز مهمة المؤرخ الباحث إذ عليه أن يتفحص الظواهر ويقارن الروايات وينتقد المصادر ويستقصي الحقائق ويميز الوهم عن الحقيقة والكاذب عن الصادق والخطأ عن الصواب ، والمدسوس أو الملفق عن الصحيح بعقلية ومنهجية الباحث المحقق ، وهذا الأمر ليس بغريب نظرياً في ضوء أهمية هذه الخطوة بالنسبة لوسائل الارتقاء بمستوى البحوث والدراسات المنجزة كماً ونوعاً. ومن هنا تأتي أهمية الكتابة في طرائق البحث التاريخي وفي التركيز على قيمة التحليل التاريخي وأهميته ، على الرغم من صعوبة التصدي لمثل هذا الموضوع المنهجي المتشابك ، لما يضم هذا المحتوى من أهمية في أن الكتابة فيه تحقق للمؤرخ المحترف وسائل وسبلاً تساعد على بناء الحواجز التي تحتاجها مهنته ، التي يسبب غيابها أضراراً كثيرة من جراء تشويهات المتطفلين على التاريخ مهنةً وموضوعاً.

إن عملية الكتابة عند المؤرخ منهجياً ترتكز على ثلاثة عناصر: مادة تاريخية ترتبط بالمصادر وتحتوي أساسا وقائع الماضي وحوادثه ، وذهنية مؤرخ محترف تتقرر معالمها بعد الحصول على التدريب العلمي المتضمن تقرير قيمة الحقائق وفائدتها التي توفرت تحت تصرفه من مواردها ، التي لا يمكن أن تصبح تاريخا موضوعياً مقروءاً بأفكار متماسكة ما لم يحمل مثلها بين أقرانه المؤرخين ، ثم طريقة تاريخية قائمة على أسس البحث العلمي يتمكن بواسطتها من تحويل تلك الأفكار إلى تاريخ شيق.

وإذا أردنا أن نعرج قليلا إلى منهج البحث العلمي المتبع من قبل المؤرخون القدامى وما تركوه لنا من مصنفات تاريخية سوف نجدها زاخرة بالأخطاء ، وأن مَرد هذه الأخطاء يعود إلى أسباب عدة ولعل في مقدمتها هو التحيز لرأي أو مذهب معين ، إذ أن المؤرخ الذي يؤيد رأيا لديه الاستعداد لقبول كل خبر من شأنه الإعلاء من هذا الرأي أو المذهب ، أو الحط من قيمة المذاهب والآراء المعارضة له ، وكذلك الثقة العمياء من قبل المؤرخ للناقلين للخبر ، فقد يعمد المؤرخ إلى النقل من مؤرخ آخر يثق به فيأخذ الأخبار على علتها دون التثبت من دقتها وأمانتها ، وبالتالي بدون محاولة لتعديل الخبر أو توجيه النظر إلى ما فيه من كذب أو مبالغة ، وقد ينقل المؤرخ الخبر من مؤرخ آخر وهو لا يعرف القصد بما عاين أو سمع ، فينقل الخبر على ما ظنه وخمنه فيقع في الكذب ، وكذلك يقع المؤرخ في الخطأ عندما يجهل تطبيق المبادئ العامة أو الإحاطة الواسعة بشتى العلوم والوقائع والأخبار الخاصة ، لذلك فهو لا يستطيع أن يعرف مدى صحتها أو خطأها وفق هذه المبادئ ، فينقلها كما هي بلا تمحيص أو تدقيق فيقع في الخطأ.

أما الخطأ المزمن الذي رافق المؤرخ طوال العصور والذي أثر سلبيا على منهجية الكتابة التاريخية ، هو التزلف إلى أصحاب المراتب والشأن ، حيث أن الناس قد درجوا على التقرب إلى أصحاب المراتب طمعا بمال أو شهرة ، فيتملقون بالمديح والثناء وهو في غير محله . ولتلافي هذه الأخطاء فقد وضع العديد من المفكرين في مجال البحث التاريخي منهجاً علمياً في البحث لتبيين ما يحتاج إليه الباحث المؤرخ والسُبل التي يجب عليه أن يسلكها حتى يقي نفسه من الزلل ، ويمكن تقسيم هذا المنهج إلى قسمي: أحدهما يشمل قواعد عامة والآخر على قواعد خاصة ، أما العامة فهي من مستلزمات المنهج العلمي الأساسية في البحث وشروط لا بد من توفرها في الإنتاج العلمي إذا أريد له الأصالة والسلامة . واهم تلك القواعد التزود بالعلم ، والذي يعني الاطلاع الواسع على الآثار التي خلفها كبار المؤرخين القدامى ، والإحاطة بشتى العلوم والتعمق بها ، وكذلك التشكيك في الأخبار والروايات ، إذ أن على المؤرخ الباحث ألا يثق بما يلقى إليه من أخبار ، بل عليه تأمل تلك الأخبار وتمحيصها. ومن القواعد الأساسية والمهمة التي ينبغي للمؤرخ الالتزام بها هي توخي الموضوعية ، والتي تعني الالتزام بالحياد التام في التحليل وفي استقراء الحوادث التاريخية من خلال ربط الأسباب بالمسببات دون تدخل للخلفيات التي ينطلق منها الباحث ، ولهذا يرى البعض أن المؤرخ أشبه بالقاضي الذي يصدر حكماً ، فلا ينحاز ولا يتعصب ولا يتحامل آو يتحايل في أحكامه.

أما القواعد الخاصة ، والتي تعني الوسائل العلمية التي يستخدمها الباحث في تحليل الوقائع أو الحقائق التي يحصل عليها ، وتفسيرها وتحقيقها للوصول إلى قوانين أو مبادئ ونظريات ، ومن أهمها التأمل والاستقراء ، إذ أن الباحث المؤرخ يحتاج إلى حُسن نظر وبصيرة عند استقراء الأحداث والإلمام بها وتأمل حيثياتها ، ومن ثم يجري الحكم عليها بكل تجرد وموضوعية ، كما يجب عليه أن يسأل المختصين في ميادين تخصصاتهم حتى يستطيع أن يضع يديه على الحقيقة التي ينشدها. ولعل من ابرز القواعد الخاصة ، هي النظر في الحوادث في إطارها ألزماني. أن النظر في الحوادث الماضية والحكم عليها في ضوء الأوضاع الحاضرة هي من الأخطاء التي يقع فيها المؤرخ الباحث ، لذلك على المؤرخ أن يكون يقظاً إلى ما يحدثه التغيير الاجتماعي من تبدل الأحوال والفوائد استنادا إلى ما تقدم فإن طرائق البحث التاريخي المتوفرة للمؤرخ كثيرة ، تتراوح بين الطريقة التحليلية المتميزة في صلاحياتها للعمل الكتابي ، وبين الطريقة الوصفية التي تعتمد المسح الوصفي للحادثة التاريخية ، وكذلك على طرائق البحث القائمة على الإحصاء ، من هنا فأن هذه الطرائق تمتاز بتنوعها وخصوصيتها مجتمعة. ولكن السؤال المطروح ، ما هو النموذج الأمثل من هذه الطرائق لعمل المؤرخ؟ الحقيقة أنه لا يوجد بين طرائق البحث نموذج مشترك يصلح للتطبيق على جميع حقول التاريخ ، فما يصلح للتراجم وسير الأنبياء على سبيل المثال لا يصلح للحوادث والحوليات ، وما يطبق على الأُسر والبيوتات الحاكمة ، لا يصلح لدراسة مجتمعاتها ، وهكذا في دراسة الفكر والإدارة. ومع ذلك فأنه لا يوجد بين طرائق البحث المتوفرة لدى المؤرخ أفضل من الطريقة التحليلية ، فهي تتجاوز كل الطرق التقليدية التي تبحث في الحوادث التاريخية.

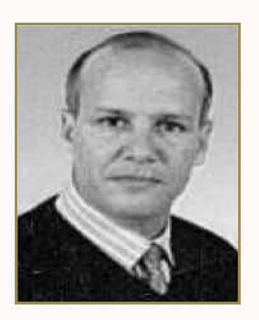
بقلم



ياسين العطواني
صحفي وكاتب وباحث في التاريخ
بغداد — العراق
yaseen_63@yahoo.com



البحث في تاريخ الجهة
"تساؤلات وملاحظات منهجية"



د.الحسين عماري
أستاذ وباحث متخصص في التاريخ الحديث
بني ملال – المملكة المغربية



aamari93@msn.com



الاستشهاد المرجعي بالدراسة:
الحسين عماري ، البحث في تاريخ الجهة: تساؤلات وملاحظات منهجية.-دورية كان التاريخية.-العدد السابع ؛ مارس ٢٠١٠. ص٨ – ١٤ .(www.historicalkan.co.nr)

تقديم إشكالي

مرت الهستغرافية المغربية من مراحل مختلفة ، تميزت كل مرحلة منها بسمات وخصائص معينة سواء من حيث اختلاف المواضيع المعالجة ،أو من حيث تعدد الرؤى والاتجاهات والمقاربات والأدوات المنهجية الموظفة.

وقد عرف البحث التاريخي خلال العقود الأخيرة ، ولاسيما منها الفترة الممتدة على مدى الثلاثة وثلاثين سنة الأخيرة-أي منذ سنة ١٩٧٦ إلى الآن- تراكما مهما ،ورصيدا متنوعا لايستهان به [(١)] ، وفي هذا السياق ، يسعى هذا البحث إلى الوقوف وقفة تأمل تجاه هذه المرحلة المهمة ، التي تميزت بتوجه الإنتاج التاريخي نحو التاريخ الاجتماعي من خلال إيلاء الدراسة المونوغرافية أهمية قصوى ، هذا التوجه الذي اعتبر من طرف أحد الباحثين بمثابة "قاطرة تتصدر عملية تحديث الذاكرة الجامعية" ، لرغبته في التجديد اعتمادا على مجموعة من الآليات ،كتوسيع مفهوم التاريخ ،وتطوير مجال المصادر ،والانخراط في سياق العلوم الإنسانية [(٢)] ، لكتابة تاريخ علمي شمولي يختلف كليا عن التاريخ الاستعماري ،لذلك ومن أجل تسليط الضوء على ما طبع هذه المرحلة وهذا الاتجاه من خصائص ومميزات ،سأحاول الإجابة على الإشكالية التالية: ما المقصود بالتاريخ الجهوي ؟ما هو السياق التاريخي الذي ظهر فيه ؟ ماهي الأهمية التي يكتسيها و الأهداف التي يسعى إلى تحقيقها ؟ ما هي خصوصياته ،والآليات المتحكمة في تطور البحث فيه ،والإكراهات التي تعترض سبيل الباحثين فيه ؟وماهي بعض الاقتراحات العملية الكفيلة بتشجيع الاهتمام بتاريخ الهوية الجهوية ،وبتوظيفه كأداة للتنمية لكسب رهان الحاضر والمسقبل ؟

كجواب على هذه الإشكالية ،يمكن القول أن الكتابة التاريخية بالمغرب عرفت مرحلة امتدت من ١٩٧٦ إلى الآن ، توجه خلالها البحث التاريخي نحو التاريخ الاجتماعي ،حيث برز تيار جديد من المؤرخين الشباب الذين اهتموا بكتابة تاريخ علمي يختلف عن التاريخ الاستعماري [(٣)] ، تاريخ سيهتم بالمجتمع وديناميته ،وبالانفتاح على العلوم الأخرى [(٤)] ،خصوصا بعد اقتناع أنصار المسار الجديد للتأليف التاريخي بضرورة تحقيق تقدم في إنجاز مونوغرافيات يمكن أن تشكل من جهة ، منطلقا ضروريا نحو كتابة تاريخ شمولي بفضل ما تمتاز به من دقة وتركيز [(٥)] ،ومن جهة ثانية قاعدة لتفسيرات مقبولة من أجل الاستفادة من مدرسة تاريخية كمدرسة الحوليات [(٦)] .

فما المقصود إذن بالتاريخ الجهوي ؟وما هو السياق التاريخي الذي ظهر فيه ؟والأهمية التي يكتسيها والأهداف التي يسعى إلى تحقيقها ؟.

التاريخ الجهوي في أفق التاريخ الاجتماعي

تعريف التاريخ الجهوي:

قبل تحديد هذا المفهوم ،لابد من الإشارة إلى تعدد المفاهيم والتسميات التي أطلقت على هذا النوع من الدراسات التاريخية:كالتاريخ الجهوي ، والإقليمي ، والمحلي ، والاجتزائي والدراسةالمونوغرافية ، والمجهرية ، والجزئية ، والمبحثة... ،وهي كلها تهم البحوث والمنشورات التاريخية التي ترتكز على إقليم معين أو منطقة جغرافية محدودة جدا [(٧)] ،في مرحلة تاريخية محددة ،أي البحث المحدود في المكان والزمان ،وهو حلقة من حلقات بناء تاريخ اجتماعي شامل ، ورافد لهذا الاتجاه التاريخي الجديد الذي هو التاريخ

الاجتماعي، الذي يتناول تطور وتشكل التشكيلات الاجتماعية في مجتمع ما أو في المنطقة الجغرافية التي تتناولها الدراسة. ويعتبر من قبل البعض أحد فروع العلوم الاجتماعية التي تحاول إظهار تأكيد تاريخي من وجهة نظر مدارس اجتماعية تتطور حديثا. وغالباً ما يوصف التاريخ الاجتماعي بأنه "التاريخ من الأسفل" أو "تاريخ الجذور" "لأنه يتعامل مع الحياة اليومية للبشر والتكتلات البشرية والإنسان العادي وليس مع الساسة والقادة والزعماء[٨].

وكما سبق أن رأينا ضمن التقديم الإشكالي، فقد اعتبر بعض الباحثين هذا الاتجاه - أي التاريخ الاجتماعي - بمثابة قاطرة تتصدر عملية تحديث الذاكرة الجامعية، وبداية رغبة في التجديد، تتمثل في توسيع مفهوم التاريخ، وتطوير مجال المصادر، والانخراط في سياق العلوم الإنسانية، ومن الملاحظ أن مؤرخ المجتمع يبحث عن العلاقات الاجتماعية في تجلياتها المختلفة: في أشكال الإنتاج والتبادل، في السلطة السياسية، كما في الحركة الصوفية، وفي الظاهرة الاستعمارية[٩]. فما هو السياق التاريخي الذي ظهرت فيه هذه التجربة التاريخية؟

السياق التاريخي الذي ظهر فيه:

تميزت هذه المرحلة بتوسيع حقل المعرفة التاريخية عن طريق الانفتاح على مختلف العلوم الاجتماعية، والاحتكاك المتواصل بها، "الإخراج التاريخ من انغلاقه التخصصي وفتحه على تساؤلات ومناهج العلوم الاجتماعية الأخرى[١٠]، وخاصة علمي الاجتماع والاقتصاد، إذ أصبح المؤرخون الجدد يدركون بكيفية متزايدة أهمية المناهج المستعملة في علوم اجتماعية أخرى كالأنثروبولوجيا في دراسة المجتمعات القبلية. ومن جهة أخرى ظهر وعي لديهم بأن التاريخ لن يكون علميا بمعنى الكلمة إلا إذا اعتمد على الأرقام أي أصبح تاريخا كميا[١١].

"كما ترسخ الاعتقاد لدى المؤرخين الجدد، بأن التاريخ الحقيقي يوجد على مستوى القاعدة، وأن دراسة تاريخ المجتمعات من خلال مشاغلها اليومية أخصب وأفيد من دراسة التاريخ السياسي وحده"[١٢].

وبذلك ظهرت مونوغرافيات ناجحة ("كإينولتان" لأحمد التوفيق، و"إيناون" لعبد الرحمن المودن...) شكلت منعطفا هاما في مسار البحث التاريخي بالمغرب، ولحد الآن هناك استمرار للاتجاه المونوغرافي من خلال استئثاره باهتمام الباحثين على مستوى الجامعة[١٣]. وإذا كان هذا هو السياق التاريخي الذي ظهر فيه هذا الاتجاه، فما هي الأهمية التي اكتساها والأهداف التي سعى إلى تحقيقها؟

أهميته وأهدافه:

اقتنع أصحاب هذا الاتجاه بأن كتابة تاريخ المغرب - على منوال ما يكتب في بلدان أخرى متقدمة - لن تتأتى إلا عن طريق البحث المونوغرافي، إذ أن أحسن طريقة لجمع الوثائق والمستندات والاستفادة من النصوص القديمة، هي تحديد مواضيع الأبحاث في مجالات زمنية أو مكانية ضيقة، حتى يتسنى تعميق البحث والتحري، على أن يتم ذلك بشكل مرحلي، ويتم فيما بعد عندما تكون كل مناطق البلاد قد تمت تغطيتها وكل الفترات التاريخية قد شملها هذا البحث بأعمال أشمل[١٤]، وهذا ما عبر عنه العروي قائلا: "بدون مفهوم المبحثة لا يستقيم لا منطقيا ولا عمليا مشروع التاريخ الشمولي"[١٥].

وبالنظر إلى هذه الأهمية التي حظي بها التاريخ الجهوي، فقد أولى البحث التاريخي لاسيما منه الجامعي أهمية خاصة للدراسة المونوغرافية لتحقيق مجموعة من الأهداف نذكر منها:

- "التخلص من التعميمات التي تسبح فيها الدراسات التاريخية للمغرب بأكمله أو لبعض المناطق الواسعة"، و"القيام بفحص للإمكانات التي يمكن أن توفرها أنواع مختلفة من الوثائق المحلية، والبحث عن عناصر البنية الاجتماعية والاقتصادية التي قلما تبرزها الكتابات التاريخية الإخبارية[١٦]، و"مراجعة عدد من الأنظار التي تكونت عن المجتمع المغربي من خلال الدراسات الاستعمارية[١٧]، و"تجاوز عطاءات الحوليات التقليدية من جهة، والإلتقاطات الإثنوغرافية من جهة أخرى" إلى إقامة بناء متوافق يتم على ضوئه فهم العلاقات السياسية بين الحكام والرعية باعتبارها "ثمرة الأسس الاقتصادية والتكوينات الاجتماعية"[١٨].
- الاقتناع بأن الدراسة التاريخية للمغرب بطريقة علمية ومضبوطة، لن تتأتى إلا إذا جزء هذا التاريخ إلى "وحدات زمانية ومكانية تسمح باستغلال الوثائق المحلية[١٩].
- تناول هذه الدراسات لبعض الإشكاليات، كالعلاقة بين المدينة والبادية، ومعايشة كل واحدة منها للأخرى على المستويات البشرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية مع وضعها في إطار التطورات العامة للبلاد[٢٠]، وعلاقة المجتمع القروي والدولة قبل الاستعمار[٢١].
- محاولة بعض الأعمال المونوغرافية الاستفادة من الكتابات الاستعمارية بعد الكشف عن جانبها الإيديولوجي، والتوصل من خلال بعض الوثائق الرسمية إلى بعض جوانب الواقع المحلي[٢٢]، والكشف عن المهمش في الكتابة التاريخية التقليدية، بدءا من الحياة اليومية للمجموعات القروية، إلى التيارات التي اخترقت البادية المغربية عشية الاستعمار[٢٣].

وإذا كانت هذه هي أهمية وأهداف هذا الاتجاه، فما هي إذن الوضعية التي يوجد عليها؟



وضعية البحث في تاريخ الجهة

لرصد الوضعية التي يوجد عليها البحث في تاريخ الجهة، سنقوم بتسليط الضوء على الخصوصيات والآليات المتحكمة في تطور البحث في هذا المجال، من خلال ملامسة مسألة المصادر من حيث وضعيتها الحالية وإشكالية توظيفها، ثم سنبين الإكراهات التي تعترض سبيل الباحثين في هذا الحقل المعرفي، وأخيرا سنقدم بعض الاقتراحات العملية التي من شأنها أن تساعد على الاهتمام بهذا التوجه وتمكن من توظيفه كأداة للتنمية.

الخصوصيات والآليات المتحكمة في تطور البحث في هذا المجال:

مسألة المصادر وضعيتها الحالية وإشكالية توظيفها:

على المستوى المنهجي تبلور موقف إزاء قضية مواكبة المناهج التاريخية المعاصرة يعتبر أن الاطلاع على أساليب الكتابة المعاصرة وعلى مكتسبات العلوم الإنسانية قد يساعد على إغناء قراءة الوثائق[٢٤]، لما تتيحه للتاريخ من مجالات التركيب، وما تفتحه من آفاق[٢٥] بل إن البعض يرى أن التاريخ لا يتخذ الصفة العلمية إلا عندما يستعين منهجيا بعلوم إنسانية أخرى[٢٦]، مما جعل ميشيل دي سرطو يقول: "إن العملية التاريخية -أي عمل المؤرخ- أصبحت بمثابة نقد وتمحيص لمناهج العلوم الأخرى الطبيعية والبشرية"[٢٧].

ورغم استمرار إيمان المؤرخين الجدد بأهمية الوثيقة المخزنية[٢٨]، فإنهم يدركون جيدا، أنه لابد من الاعتماد كذلك على المصادر غير الرسمية مخطوطات كانت أم وثائق خاصة .للحصول على صورة أكثر قربا من الواقع وأكثر توازنا من الصورة التي تقدمها لنا الوثائق المخزنية وحدها، وهذه القناعة بأهمية المصادر غير الرسمية، إضافة إلى التوجه المتعدد التخصصات للتاريخ الجديد، كل ذلك يسمح بالكشف عن عدد كبير من الوثائق المحلية من جهة، والإقبال على تحقيق المخطوطات ونشرها من جهة ثانية[٢٩]، ومن هذه المصادر: كتب الأنساب والحوالات الحبسية، والنوازل الفقهية التي تكمن أهميتها في مساعدة الباحث على فهم الوضع الاجتماعي والاطلاع على المشاكل المادية والمعنوية التي عرفها المجال المدروس[٣٠]، وكتب الرحلات الحجية أو الحجازية، التي مكنت بعض الباحثين من تبين بعض جوانب الحياة التجارية والدينية والاجتماعية بالمجال المعالج[٣١].

وإلى جانب اعتماد المؤرخين الجدد على المصادر غير الرسمية، ساهموا كذلك في إعادة الاعتبار للوثائق الأجنبية -لاسيما بعد خفوت الحماس الوطني بعد الستينيات من القرن الماضي- إذ لم يعد ينظر إليها كمصدر ثانوي مساعد، بل أثبتت بعض الدراسات المنجزة أن الوثائق الأجنبية إذا ما استعملت بما ينبغي من الحيطة والحذر، قد تصبح أساسية في الكشف عن بعض الجوانب أو الحقب التاريخية التي لم تحظ باهتمام كاف من طرف المصادر التقليدية[٣٢].

وتكتسي كتب الرحلات الاستكشافية أهمية بالغة في دراسة تاريخ المغرب الجهوي لاسيما خلال القرن ١٩م، حيث كانت تلك الرحلات تدخل في إطار مخططات شكلت فيها معرفة المجال المرحلة الأولى واللازمة لأي احتلال لاحق[٣٣]، إلا أن أدق المعلومات حول التاريخ المحلي عبر المصادر الأجنبية ترد في الوثائق والمراسلات العسكرية والدبلوماسية[٣٤].

وقد مكن انفتاح التاريخ على مناهج العلوم الاجتماعية الأخرى، من تجاوز المفهوم الضيق للوثيقة التاريخية الذي يرى أن التاريخ لا يكتب إلا حيث توجد الوثائق المكتوبة[٣٥]. ومن نتائج هذا الانفتاح، إقبال المؤرخين على استعمال المرويات المحفوظة والمتوارثة، كمصدر من المصادر التاريخية[٣٦]، لاسيما بعد اقتناعهم أن "أي تاريخ اجتماعي لا يبحث فيه الدارس عن الأخبار من أفواه الرجال، يكون بالضرورة ناقصا من جهة ما"[٣٧]، وأن الفهم الجيد لتاريخ الحياة اليومية، لا يمكن أن يتم دون اللجوء إلى البحث الميداني[٣٨]، لكون الثقافة الشفوية أصبحت تحظى بمكانة رفيعة واهتمام متزايد ضمن المصادر التاريخية، إذ في غياب الوثائق المكتوبة، أصبح النص الشفوي يشكل الذاكرة الجماعية لفئة اجتماعية معينة، ويندرج في هذا السياق، التاريخ المروي، والأساطير، والحكايات والأمثال...[٣٩]، ثم لأن "وعي المجتمعات بتاريخها وهويتها -على حد قول مارك فيرو- لا ينحصر في ما تحكيه من سرديات وأمجاد وما تفتخر به من أحداث ووقائع مادية، فهذه كلها لا تتعدى كونها إحدى الملاحم التي تتشكل منها الكتابة التاريخية، بل هناك أشكال تعبيرية أخرى تجاهلها محترفو التاريخ لأمد طويل، باعتبارها لا تنتمي إلى مجال اختصاصاتهم، كالاحتفالات والمواسم وما يرافقها من طقوس، والأعياد الوطنية والدينية، التي تساهم في صوغ وعي تاريخي يختلف من مجموعة اجتماعية إلى أخرى، وتمثل ملجأ وملاذا بالنسبة للجماعات المقهورة" -أي مهمشي التاريخ- "التي يتم تغييبها ونفيها من الكتابة التاريخية المؤسساتية الرسمية"[٤٠].

وقد أظهرت عدة دراسات حديثة، أن التاريخ الشفوي يستطيع إلقاء الضوء على جوانب نظرية مثل الذاكرة، والأمة، والهوية، وأن قيمة الرواية الشفهية لا تتجلى فقط في الأحداث الماضية التي تعكسها بدقة، بل في العلاقة التي تعبر عنها بين الماضي والحاضر، فهي إذن ذاكرة حية، وتاريخ حافل بالأحداث، توثق لفئات مهمشة[٤١]. وتتجلى كذلك، أهمية الرواية الشفوية كمصدر تاريخي أصيل من مصادر المعرفة التاريخية، في ما تتيحه للباحث من إمكانيات تجعل منها نصا لا يقل مكانة وقيمة عن باقي النصوص الأخرى. فهي المكمل الأساسي للنصوص والوثائق الأركيولوجية لكونها تقوم بتغطية ما يعتريها ويشوبها من نقائص، كما بإمكانها أن تقدم وجهة نظر مغايرة[42]. وهي مصدر تاريخي أساسي يمكن اعتماده في إعادة بناء ماضي الشعوب التي تفتقر إلى رصيد مكتوب "وتقدس الكلمة وتعيش في عالم الإشارة وفي مضمون الذاكرة الجماعية"[43].



كما استفادت الدراسات المونوغرافية من انفتاح أولي على بعض العلوم الأخرى كالأنثروبولوجيا [٤٤] ، من خلال الاستنارة ببعض أدواتها ،لفهم ممارسات يومية أو علاقات بين القبائل ،أو بين هذه الأخيرة والمخزن ،مما أثبت قيمتها كأداة لإثراء البحث الاجتماعي والتاريخي [٤٥] ،لأن "التاريخ ليس فقط حفرا في الوثيقة المكتوبة ،بل أيضا تحقيق والتحقيق يستلزم النزول إلى الميدان ، والثقافة الشعبية ميدان" ،فكما يقول بول فين:"حتى وأنت تتجول في السوق قد تلتقط إشارات تاريخية"[٤٦] .لذلك على الباحث أن ينتقل مباشرة إلى هذا الميدان لمعايشته ودراسة تلك المجتمعات عن كثب[٤٧] ، لأن "قراءة المجتمعات الإنسانية على ضوء منهج علم التاريخ ،أي استقراء الواقعة الحضارية الاجتماعية من خلال الكتب والوثائق والأرشيف ،لا تكتمل إلا باعتماد المنهج الآخر ،أي القراءة الانثولوجية الراهنة لمعاني ودلالات البنية الثقافية عبر تحليل وتفكيك رموز عناصرها المستترة ،هكذا إذن يلتقي علم التاريخ والأنثروبولوجيا"[٤٨] .

وبفضل انفتاح التاريخ أيضا على العلوم الاجتماعية ، أصبح بإمكان المؤرخ أن يستعين بتقنياتها ليصنع وثائق جديدة ، فيقوم بالمقابلة ، ويضع استمارة ليخرج من عمله بمادة جديدة[٤٩] كما يستعين بأساليب تلك العلوم ، لاسيما منها أسلوب العينة ، والأسلوب الكمي ، حيث بدل أخذ مجموعة كاملة بعين الاعتبار ، يعتمد جزء منها فقط يمثل المجموع ، وبخصوص الأسلوب الكمي ، فهو لا يستغني عن الوثيقة لكنه يحاول العثور فيها على معطيات متشابهة ومنسجمة يمكن أن تشكل حلقة أو حلقات ، ولعل أهم مساهمة يقدمها المنهج الكمي للوثيقة التاريخية والمؤرخ هي ضمان الموضوعية[٥٠] .

ويمكن للمؤرخ أيضا تحليل المحتوى وتعميق النقد الداخلي للوثيقة باللجوء إلى أساليب علماء النفس والاجتماع لتحليل نصوص المقابلة ، والملفات الصحافية ، والتصريحات والآراء المتضاربة ،والرموز والتراكيب ،بل يرى البعض أنه يمكن تجاوز هذا المستوى بمحاولة قراءة ما وراء العبارات والتصريحات الواردة في النص[٥١] .

وهكذا يمكن القول ، بأن تجدد التاريخ في فضوله ومناهجه والتنوع الهائل للمصادر التاريخية ، كل ذلك سمح للمؤرخ بإمكانية التعامل مع هذه المصادر حسب اختياراته وكفاءاته ومعالجتها من مواقع متعددة: اقتصاد ،سوسيولوجيا ،إثنولوجيا...[٥٢] ، مما مكن الهستغرافية المغربية من أن تخطو خطوة هامة تمكنت على إثرها من الكشف عن وثائق جديدة شكلا ومضمونا ، وعن منطلقات نظرية نابعة من الواقع المغربي[٥٣] ، لكن رغم هذه المكتسبات المحققة ، فإن الباحث في هذا المجال تعترض سبيله عدة إكراهات.



الإكراهات التي تعترض سبيل الباحثين في التاريخ الجهوي:

يمكن أن نميز في هذه الإكراهات بين مشاكل مرتبطة بانفتاح التاريخ على العلوم الاجتماعية ، وأخرى تحول دون تحقيق تعاون مهم بين الطرفين ،وأخيرا إكراهات ذات ارتباط بالدراسة المونوغرافية في حد ذاتها.

بخصوص النقطة الأولى ، ورغم التطور الكمي والكيفي الذي عرفته المناهج المعتمدة في كتابة تاريخ المغرب خلال العقود الأخيرة ، فقد تبلور موقف يعتبر أن مواكبة المناهج التاريخية المعاصرة ترف لا يلائم وضع المؤرخ المغربي ، الذي لا يزال يعاني من قلة وسائل العمل الأساسية ،وغياب الظروف المطلوبة من حيث التجهيز والاعتمادات[٥٤] .

هناك إشكالية أخرى ، وهي التي تعاني منها العلوم الإنسانية ومنها التاريخ ، وهي تجريدها من الصفة العلمية[٥٥] ، وإن كانت بعض الدراسات ترى أن اكتساب كل واحد من هذه العلوم للصفة العلمية يكمن في تعامله مع العلوم الأخرى ،ونفس الشيء بالنسبة للتاريخ الذي سعى منذ زمن ليس بالقصير إلى اكتساب هذه الصفة ، وأصبح لا غنى له عن التعاون مع باقي العلوم الإنسانية الأخرى ،والاستفادة من معطياتها وتقنياتها في البحث لبلوغ جوانب هامة من الموضوعات التي يدرسها[٥٦] .

أما فيما يتعلق بالإكراهات ذات الصلة بحدود مساهمة العلوم الاجتماعية في تقدم البحث التاريخي وإمكانية تحقيق تعاون بين الطرفين ، فيمكن أن نجملها في النقط التالية:

- مشكل منهجي يتجلى في كون المفاهيم التي هي من أهم أدوت العلوم الاجتماعية التي من شأنها أن تساعد المؤرخ على توسيع نطاق طرح الأسئلة على النصوص[٥٧] ، هي مفاهيم صيغت في الغرب وغير صالحة لمعالجة واقع المجتمع المغربي ، فمفاهيم الدولة ،الطبقة ،الإقطاع ،نمط الإنتاج ،البورجوازية... ،ليس لها نفس المدلول في المجتمعين ، مما يطرح إشكالية ضبط وتحديد هذه المفاهيم ومنطلقات التفكير ، في ظل اختلاف المدارس التاريخية وتنوع اتجاهاتها في فهم الماضي أو في إعادة بنائه بناء متراصا[٥٨] ، ولعل هذا ما جعل بعض الباحثين المغاربة الذين أنجزوا دراسات مونوغرافية مهمة يتحفظون في استعمال عدد من هذه المفاهيم - كأحمد التوفيق-[٥٩] ، في حين اقترح البعض الآخر حلا وسطا للاستفادة من مناهج العلوم الاجتماعية الغربية ،وهو الاحتفاظ بالتقنيات وتوظيفها في مجتمعنا - رغم أنها بدورها ليست بريئة ومحايدة ،لكن بإمكانها أن تساعد على تقدم البحث التاريخي المغربي- وبناء مفاهيم تستجيب لخصوصية المجتمع المغربي[٦٠] ، بوضعها في إطار زمني ومكاني[٦١] .
- ارتباط التاريخ ارتباطا وثيقا بالزمن لأنه يدرس الماضي ، واختلاف زمن السوسيولوجي عن زمن المؤرخ ،زمن الأول متعدد ، كل حقيقة اجتماعية تفرز زمنها ،بينما الزمن التاريخي يسير في اتجاه لا ينعكس ولا يتوقف[٦٢] .

وبذلك يتضح ،أن الاستفادة من مناهج العلوم الاجتماعية تواجه عقبة أساسية ،إذ كلما رجعنا إلى الماضي كلما تضاءلت قيمة تلك

العلوم بالنسبة للمؤرخ ،سواء على مستوى توفر الوثائق والإحصائيات ،أو على مستوى اختلاف المفاهيم والقيم [٦٣].

- نسبية النماذج وضيق النظريات: "فالعلوم الاجتماعية تسعى إلى وضع قوانين وتأسيس نظريات ، لكن لا الإنسان ولا المجتمع مبنيان مثل النظرية ، فحيث وجود الإنسان ،وهو كذلك في التاريخ ، لا مجال لوضع قوانين ونظريات ،ذلك أن التاريخ أوسع من أن تحيط به نظرية [٦٤].
- قصور الأسلوب الكمي: ذلك أنه بالرغم مما حققه هذا الأسلوب من تقدم في مجال البحث التاريخي ، ولاسيما من حيث ضخامة المعطيات العددية ، يمكن أن نتساءل هل تشكل الأرقام والإحصائيات معطى موضوعيا؟ ألا يمكن أن تكون ذات صلة بآراء أو تقييم أو نتيجة لمجموعة معقدة من القرارات والتدابير؟

الحقيقة أن المنهج الكمي عندما يتجاهل الجوانب الكيفية والإنسانية في التاريخ ، لا يمكن أن يكون إلا ناقصا [٦٥].

- عودة الاهتمام بالحدث: لقد كان الانفتاح على العلوم الاجتماعية نتيجة وسببا في آن واحد لتجاوز التاريخ الإخباري والاهتمام بالحدث ،لكن اتضح أن التاريخ لا يمكنه أن يركز اهتمامه على البنيات ويتجاهل الحدث الذي لا تستطيع العلوم الاجتماعية إدماجه ضمن اهتمامها ،مع أنه جزء مهم في حياة الأفراد والمجتمعات.

وترتبط ظاهرة عودة الحدث بالمجتمع المعاصر الذي أصبح يفرض الحدث على مستوى عام عن طريق وسائل الإعلام [٦٦].

- خطورة انقسام التاريخ إلى علوم اجتماعية: بحيث هناك تخوف من أن يؤدي تهافت المؤرخين على مناهج العلوم الاجتماعية وتبنيها دون روية وتفكير ، إلى اختفاء الطابع التاريخي في تلك الدراسات ،حيث يصبح هناك تاريخ اقتصادي ،وتاريخ ديمغرافي أو ديمغرافية تاريخية ،وتاريخ اجتماعي... [٦٧].

ورغم هذه الإكراهات ، يمكن القول أن المكسب الجديد الذي حققه التاريخ من خلال انفتاحه على العلوم الاجتماعية يتجلى على مستوى التقنيات والمناهج بالأساس [٦٨]. ومع ذلك ، فإن المؤرخ إذا لم يضع في اعتباره طبيعة مادته ،ولم يتسلح بالنظرة الجدلية ، ويعتبر تلك العلوم علوما مساعدة وليست علوما تحل محل التاريخ ،فمن الممكن أن يقدم تنازلات بدل أن يحقق مكاسب.

أما فيما يتعلق بالعمل المونوغرافي في حد ذاته ، فهو بدوره يطرح عدة مشاكل ، نوردها على الشكل الآتي:

- اقتناع المؤرخين الجدد أن الدراسات المونوغرافية التي أنجزت تبقى جزئية ومحصورة في الزمان والمكان ،ولا تسمح بطرح تفسيرات على مستوى الوطن ككل أوعلى مستوى الزمن الطويل [٦٩].
- مشكل المرور من الخاص إلى العام ومن الميكرو إلى الماكرو ، وهل يساهم حقا البحث المونوغرافي في إعادة كتابة تاريخية وطنية بتجاوزه الكتابة التقليدية من جهة ، والكتابة الكولونيالية من جهة أخرى ؟ [٧٠].

وهل الدراسات المونوغرافية التي أنجزت لحد الآن كافية للتفكير في كتابة تاريخ شمولي ؟

كجواب على هذا السؤال يمكن القول ، أن المتتبع للمسار الهستغرافي ببلادنا يسجل أن ما أنجز من أعمال تندرج في إطار تاريخ تركيبي يتناول بالدرس والتحليل مجموع البنيات الاقتصادية والاجتماعية على المستوى الوطني ككل يبقى جد محدود [٧١].

وإذا كانت هذه هي بعض الإكراهات التي تعترض سبيل من يقتحم مجال البحث المونوغرافي ، فما هي إذن الإجراءات والتدابير العملية التي من شأنها أن تساعد على الاهتمام بتاريخ الهوية الجهوية ، وعلى توظيفه كأداة للتنمية لكسب رهان الحاضر والمستقبل ؟

اقتراحات عملية كفيلة بأن تساعد على الاهتمام بتاريخ الهوية الجهوية،وعلى توظيفه كأداة للتنمية لكسب رهان الحاضر والمستقبل:

أعتقد أن موضوع الاهتمام بتاريخ الهوية الجهوية وتوظيفه كأداة للتنمية لكسب رهان الحاضر والمستقبل ، أصبح يفرض نفسه بقوة نظرا لوعي المجتمعات بتاريخها وهويتها ،ولأن الجهوية كاختيار سياسي أصبحت تمثل الركيزة الأساسية والمجال الخصب لتحقيق تنمية اقتصادية واجتماعية وثقافية منسجمة ومتوازنة ،وأداة لتجاوز كثير من المشاكل المطروحة لذلك لابد من اتخاذ الإجراءات والتدابير العملية الكفيلة بترجمة هذا الهدف إلى واقع ملموس. ومن بين الاقتراحات التي يمكن أن نتقدم بها في هذا الإطار: ضرورة خلق لجنة التاريخ الجهوي مكونة من ممثلي الهيئات والأطراف المسؤولة والفاعلة في الجهة ، تسند إليها المهام التالية:

- التعريف بتاريخ الهوية الجهوية .
- إعطاء قيمة للذاكرة الجهوية.
- العمل على الحفاظ على التراث والثقافة الشعبية المحلية ، وتتبع واستنباط ما يختزنانه من مؤشرات ودلالات حضارية غميسة.

ولتحقيق هذه الأهداف ، ينبغي:

- القيام بأبحاث تاريخية تهم الجهة.
- تنظيم تظاهرات ثقافية على شكل ندوات وأيام دراسية حول تاريخ الجهة للتعريف بذاكرتها.
- نشر هذه الأعمال لتعميم الفائدة وتوثيق هذه الأنشطة.

وبما أن الجامعة المغربية ، تشكل أداة للتكوين والبحث والنهوض بالعلم والثقافة ، وتلعب دورا بالغ الأهمية في صيانة التراث الثقافي والقيم الروحية والمقومات الحضارية التي هي عماد الهوية الوطنية ، ونظرا لإسهامها في المجهود التنموي الذي تعرفه البلاد في شتى المجالات ، فإنها تبقى القناة الفاعلة التي يمكن أن تضطلع بدور إيجابي وهام في هذا الإطار.

لذلك ، أقترح خلق مسلك "تاريخ تادلة-أزيلال "برحاب الكلية ، بغية تحقيق تقارب بين مكونات ثلاثة ، وهي التكوين الجامعي والبحث العلمي والتنمية ،بالتركيز على تكوينات تهتم بالبحث في تاريخ الجهة من خلال قراءة في مصادره ، وبحث في مميزاته الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والعمرانية ،لاسيما وأن جهة تادلة أزيلال غنية من حيث مصادرها الصامتة والناطقة والمكتوبة ،يمكنها إذا ما

استغلت بالشكل المطلوب ،أن تلعب دورا أساسيا في معالجة قضايا وإشكالات من التاريخ العام.

أما فيما يخص الغايات المتوخاة من التكوين في هذا المسلك فنوردها على النحو الآتي:

- تمكين الطلبة من اكتساب مهارات تؤهلهم للتعامل مع التراث ،كالقيام مثلا بجرد للمواقع الأثرية وتوطينها على الخريطة .
- إطلاعهم على المقاربات الإستراتيجية الجديدة لمقاربة التراث قصد التنمية المندمجة للجهة.
- تكوين باحثين متخصصين في التاريخ الجهوي مؤهلين للقيام بالبحث الميداني ولولوج المهن المرتبطة بالتراث كالسياحة ،والصيانة ،والترميم ،والحفريات الأثرية ،والتهيئة المجالية ،وتأهيل الطالب معرفيا في مجال البحث لولوج سلك الدكتوراه.
- تكوين أطر متخصصة في خدمة المؤهلات الثقافية والحضارية للجهة ، كجمع وتنظيم والحفاظ على الموروث المكتوب والشفوي.
- وأخيرا تفعيل اندماج الجامعة في محيطها السوسيو-اقتصادي بإقامة شراكات مع الفاعلين في مختلف القطاعات التي لها صلة بالموضوع.

خلاصة:

من خلال ما سبق ، يتضح أن الهستغرافية المغربية تميزت على مدى الثلاثة وثلاثين سنة الأخيرة باقتحام البحث الجامعي لمجال تاريخي جديد هو التاريخ الاجتماعي من خلال الاهتمام بالدراسة المونوغرافية ،وقد تم ذلك في سياق الرغبة في توسيع المعرفة التاريخية والانفتاح والتلاقح مع العلوم الاجتماعية الأخرى قصد الاستفادة من تقنياتها وأدواتها المنهجية ،لتجاوز سلبيات كل من الكتابة التاريخية التقليدية والكولونيالية وبلورة تاريخ يكشف عن ماضي الإنسان في شموليته.

وقد حاولنا من خلال هذا البحث ، رصد وضعية هذه التجربة الجديدة بملامسة الخصوصيات والآليات المتحكمة في تطور البحث فيها ، وذلك بالتطرق لمسألة المصادر وإشكالية توظيفها ، مبرزين أن انفتاح التاريخ على العلوم الاجتماعية مكن المؤرخ من تجاوز المفهوم الضيق للوثيقة التاريخية ،ومن الاستعانة بأساليب وتقنيات هذه العلوم في إعادة بناء الحدث التاريخي.

كما أوضحنا ، أنه بالرغم مما حققته الكتابة التاريخية المغربية خلال هذه المرحلة من مكتسبات بفضل احتكاكها وحوارها مع العلوم المساعدة ، فإن الباحث في هذا المجال تعترض سبيله عدة إكراهات ، تفرض عليه أخذ طبيعة مادته بعين الاعتبار ،والتسلح بالنظرة الجدلية ،كما يجب عليه اعتبار تلك العلوم علوما مساعدة وليست علوما تحل محل تخصصه ،وبينا كذلك ما يطرحه البحث في تاريخ الجهة من مشاكل وإكراهات.

وفي الأخير ،قمنا بتقديم بعض الاقتراحات العملية التي نراها كفيلة بأن تساعد على الاهتمام بتاريخ الهوية الجهوية ،وبأن تشجع على توظيفه كأداة للتنمية لكسب رهان الحاضر والمستقبل ،مركزين أساسا على ما يمكن أن تضطلع به الجهات المسؤولة والفاعلة ولاسيما منها الجامعة المغربية من دور فاعل وإيجابي في هذا الإطار.

الهوامش:

١) عماري(الحسين)،"حدود إسهام الدراسات الإفريقية في كتابة تاريخ المغرب الحديث" قراءة وملاحظات أولية ،الأيام الوطنية الخامسة عشر للجمعية المغربية للبحث التاريخي ، الرباط ٧- ٨دجنبر ٢٠٠٧ ، حول موضوع "خمسون سنة من البحث التاريخي" ،ص.١.

٢) السبتي (عبد الأحد)،"التاريخ الاجتماعي ومسألة المنهج" ملاحظات أولية. البحث في تاريخ المغرب حصيلة وتقويم ،مجلة كلية الآداب و العلوم الإنسانية بالرباط ،سلسلة ندوات مناظرات رقم ١٤ ،مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء ،١٩٨٩ ، ص.٤٣.

٣) المنصور (محمد)،تقديم. البحث في تاريخ المغرب حصيلة وتقويم. منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط ،سلسلة ندوات ومناظرات رقم ١٤ ،مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء ، ١٩٨٩ ، ص.ص.٩-١٠.

٤) المنصور(محمد)،الكتابة التاريخية بالمغرب خلال ثلاثين سنة (١٩٥٦-١٩٨٦) ملاحظات عامة. البحث في تاريخ المغرب حصيلة وتقويم ،ص.٢٣.

٥)- نفسه ،ص.٢٦.

٦)- نفسه ،ص.١٩.

٧)- الموقع الإلكتروني:

http : //Fr.wikipedia.org/ wiki/Histoire locale

٨)- تاريخ اجتماعي ، الموقع الإلكتروني:

http // ://ar.wikipedia.org

٩)- السبتي (عبد الأحد) ،"التاريخ الاجتماعي ومسألة المنهج" ملاحظات أولية ،ص.٤٣.

١٠)- حبيدة(محمد)،مدرسة الحوليات،مفاهيم التحليل البروديلي. مجلة أمل عدد٣،السنة الأولى ،مطبعة النجاح الجديدة،الدار البيضاء،١٩٩٣، ص.٧٧.٨١.

١١)- المنصور(محمد)،الكتابة التاريخية بالمغرب خلال ثلاثين سنة ملاحظات عامة ،ص.٢٦.

١٢)- نفسه ،ص.٢٥.

١٣)- تجدر الإشارة هنا ،إلى أن "الزاوية الدلائية" هي أول عمل مونوغرافي في الإنتاج التاريخي المغربي ،وكان ذلك سنة ١٩٦٣ ،وهي أول محاولة جمعت بين التوثيق والتحريات الميدانية ،مع العلم أن المؤلف لم يهتم لا بالهموم ولا بالأسئلة المنهجية (عبد المجيد (القدوري) ،مساهمة الجامعة المغربية في الإنتاج التاريخي حول المغرب السعدي:قراءة وملاحظات أولية . البحث في تاريخ المغرب حصيلة وتقويم ،ص.٦٦.)

١٤)- مزين(محمد)،منهج كتابة التاريخ القومي إشكالية تاريخ المغرب العربي. مجلة الوحدة ، المجلس القومي للثقافة العربية ،السنة الرابعة ،عدد٤٢ ،مارس١٩٨٨ ،الرباط ،ص.٦١.

١٥)-العروي(عبد الله)،مفهوم التاريخ. الجزء الأول ،الألفاظ والمذاهب،الطبعة الأولى ،المركز الثقافي العربي ،بيروت، ١٩٩٢، ص.١٩٠.

١٦)- التوفيق(أحمد)،مساهمة في دراسة المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر-إينولتان (١٨٥٠-١٩١٢) ج١ ،دار النشر المغربية ،الدار البيضاء، ١٩٧٨، ص.٩.

١٧)- نفسه ،ص.١٠.

١٨)- نفسه ،ص.١١.

١٩)- مزين(محمد)،فاس وباديتها مساهمة في تاريخ المغرب السعدي ١٥٤٩-١٦٣٧ ج١ ،مطبعة المعارف الجديدة ،الرباط ، ،١٩٨٦ ،ص.١١.

٢٠)- نفس المرجع والصفحة.

٢١)-المودن(عبد الرحمن)،البوادي المغربية قبل الاستعمار قبائل إيناون والمخزن بين القرن السادس عشر والتاسع عشر ،منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط ، ،سلسلة رسائل وأطروحات رقم ٢٥ ، مطبعة النجاح الجديدة ،الطبعة الأولى ،الدار البيضاء ،١٩٩٥ ،ص.٢٠.

٢٢)- نفسه ،ص.٢٢.

٢٣)- نفس المرجع ،والصفحة.

٢٤)- المنصور(محمد)،تقديم.البحث في تاريخ المغرب حصيلة وتقويم ،ص.١٤.

٢٥)- مزين(محمد)،فاس وباديتها ،ص.١٤.

٢٦)- وقيدي (محمد)،التاريخ بين العلم والمنهج . مجلة أمل عدد ٢١ ،ملف التاريخ ومسؤولية المؤرخ ،السنة السابعة ، ٢٠٠٠ ،ندوة الجمعية المغربية للبحث التاريخي ،٢٩-٣٠/أكتوبر ١٩٩٩ ،ص.٢٢.

٢٧)- العروي (عبد الله)،مفهوم التاريخ ،ج١ ،الألفاظ والمذاهب ،الطبعة الأولى ، ١٩٩٢ ،المركز الثقافي العربي ،بيروت ،ص.١٩٤.

٢٨)- بل أبعد من ذلك إن بعضهم تمكن من تصحيح بعض الأفكار الشائعة حول المصادر المغربية مفادها أنها لم تهتم بالرقم إلا بكيفية عرضية ، وأثبت أنها على العكس من ذلك -لاسيما منها القوائم الحسابية-" تزخر بمعلومات في غاية الأهمية والدقة ،تتعلق بالجباية ،والجيش ،والقواد ،والتجارة ،والفلاحة ، وأن استغلال هذا النوع من الوثائق من طرف الباحثين ، سيساعد على انتقال معرفتهم بالنسبة للقرن التاسع عشر من مستوى الانطباع والتقريرات المبنية على شهادة كيفية ، إلى مستوى المقدار المضبوط والمعرفة الدقيقة في حدود عملية إعادة البناء التاريخية" (عبد الرحمن (المودن) ، مرجع سابق ،ص.١٧).

في حين يتساءل البعض الآخر عن مصداقية لجوء بعض المؤرخين المغاربة إلى تقديم جداول وأرقام و كأنها مضبوطة اعتمادا على مصادر أدبية أو فتاوى (عبد المجيد (القدوري) ،مرجع سابق ، ص.٧١).

٢٩)- المنصور(محمد) ، الكتابة التاريخية بالمغرب خلال ثلاثين سنة ، ص.٢٦.

٣٠)-مزين(محمد) ،فاس وباديتها ،ص.ص.٢٠-٢١-٢٤.

٣١)- المودن(عبد الرحمن) ،البوادي المغربي قبل الاستعمار ،ص.١٦.

٣٢)-المنصور(محمد) ، م.س ،ص.٢٧.

٣٣)-المودن(عبد الرحمن) ،م.س ،ص.١٢.

٣٤)-نفسه ،ص.١٣.

٣٥)- مبارك(رضوان) ، التاريخ وعلوم المجتمع. مجلة أمل ، عدد٣ ، السنة الأولى ، ١٩٩٣ ، مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء ، ص.٩٥.

٣٦)-المنصور(محمد) ، م.س ،ص.٢٧. والتوفيق(أحمد) ،م.س ، ١٠.

٣٧)-المودن(عبد الرحمن) ،م.س ،ص.١٥.

٣٨)- نورا(بيير) ،التاريخ والذاكرة ،ترجمة محمد حبيدة ،من أجل تاريخ إشكالي ،ترجمات مختارة ،جامعة ابن طفيل ،كلية الآداب والعلوم الإنسانية ،بالقنيطرة ،الطبعة الأولى ،مطبعة النجاح الجديدة ،الدار البيضاء ،٢٠٠٤ ،ص.١٠٧.

٣٩)- عماري(الحسين) ،الرواية الشفوية مصدر من مصادر كتابة تاريخ أفريقيا جنوب الصحراء.

مداخلة تمت المشاركة بها ضمن الندوة الدولية حول "آداب وثقافات إفريقيا" برحابي كلية الآداب والعلوم الإنسانية بنمسيك ،ومعهد الدراسات الإفريقية بالرباط ، أيام ١٢-١٣-١٤/٠١/٢٠٠٩ ،ص.١.

٤٠)- فيرو(مارك) ،التاريخ تحت الحراسة ،قراءة مبارك الشنتوفي ،العلم الثقافي ،٢أكتوبر ، ١٩٩٣ ،ص.٣.

٤١)- جوتار(فيليب) ،التاريخ الشفهي ،ترجمة محمد حبيدة ،من أجل تاريخ إشكالي ،ص.١٠٧.أو الاتحاد الاشتراكي ،عدد٤٧٨٧بتاريخ ١٨/٠٩/١٩٩٦نص.١٢.

٤٢)-عماري(الحسين) ،مرجع سابق ،ص.١.

43) ZAKARI, DRAMANI, ISSIFOU : L'AFRIQUE Noire dans les relations Internationales au XVIs, Analyse de la crise entre le MAROC et le sonrhaï, éditions karthala, PARIS, 1981, pp.23-25.

٤٤)- استعملت كلمة أنثروبولوجيا منذ نهاية القرن ١٨م ،بهدف الرد على مجمل الأسئلة المتعلقة بالأصول ،وأوجه التشابه والاختلاف القائمة بين مختلف المجتمعات البشرية المعروفة آنذاك ،وهي بذلك كانت ولا تزال "تعنى بالإنسان في مختلف أشكال ارتقائه وتطوره وانتظامه على مختلف الأصعدة" ،وهي حسب الإثنولوجي البريطاني راديكليف براون :"دراسة طبيعة المجتمع الإنساني دراسة منهجية منظمة ، تعتمد على مقارنة الأشكال المختلفة للمجتمعات الإنسانية ،بالتركيز على الأشكال الأولية للمجتمع البدائي"

(محمد حسين دكروب ،في الأنثروبولوجيا والتاريخ مقاربة منهجية. الفكر العربي:لغة-إناسة-تاريخ ،عدد٤٤ بيروت ،كانون الأول ،١٩٨٦ ،ص.١٠٤.

وقد استخدم الإنكليز مصطلح الأنثروبولوجيا بمعنى علم الإنسان في شموليته وسعة آفاقه ،أما الأمريكيون والفرنسيون ،فاستخدموا هذا المصطلح بمعنى علم الشعوب بما تحتويه من تمايزات عرقية وثقافية وحضارية (نفس المرجع والصفحة).

أما الإثنوغرافيا فتقوم على مراقبة بعض الجماعات البشرية من خلال المشاهدة /المعاينة الميدانية المباشرة ،وهي بذلك تلجأ إلى وصف دقيق وتجميع لكل المعطيات التفصيلية والجزئية المتعلقة بحياة مجموعة ثقافية محددة في الزمان والمكان اعتمادا على منهج الدراسة المونوغرافية ،بهدف تسجيل كل مظاهرها على مختلف الأصعدة (نفسه).

وبذلك يتضح ،أن الفرق في استعمال مصطلحي الإثنولوجيا والأنثروبولوجيا هو فرق في الاستخدام اللغوي الهادف إلى إعطاء مضمون هذا العلم الدقة اللازمة والإطار الواضح(نفسه).

٤٥)- المودن(عبد الرحمن) ،م.س ،ص.٢٢.و المنصور(محمد) ،المجتمع القبلي ،الانقسام والسلطة.الاتحاد الاشتراكي ، الملحق الثقافي ، عدد ٣٤٢ ، ١٢غشت ، ١٩٩٠ ،ص.٢.

٤٦)-حبيدة(محمد) ،زمن الأتاي قراءة في كتاب "من الشاي إلى الأتاي...العادة والتاريخ" ،لعبد الأحد السبتي وعبد الرحمن الخصاصي ،مجلة أمل ،التاريخ-الثقافة-المجتمع ،ملف التاريخ ومسؤولية المؤرخ ،عدد ٢١ ، السنة السابعة ، ٢٠٠٠ ، ندوة الجمعية المغربية للبحث التاريخي ، ٢٩-٣٠/أكتوبر ، ١٩٩٩ ، ص.١٧٧.

٤٧)- دكروب(محمد حسين) ،الأنثروبولوجيا والتاريخ ،ص.١٠٩.

٤٨)-نفسه ،ص.١١٤.

٤٩)-نفسه ،ص.٩٦.

٥٠)-نفسه.

٥١)-نفسه ،ص.٩٧.

٥٢)-حبيدة(محمد) ،التاريخ والإثنولوجيا ،ضمن من أجل تاريخ إشكالي ،ص.٢٢.

٥٣)-مزين(محمد) ، منهج كتابة التاريخ القومي ، ص.٦١.

٥٤)- المنصور(محمد) ، تقديم ، البحث في تاريخ المغرب.ص.١٤. ومزين(محمد) ، منهج كتابة التاريخ القومي ، ص.ص.٥٩-٦٠.

٥٥)- الكتاني(محمد)العلوم الإنسانية بين واقعها الإشكالي وآفاقها المرجوة. مجلة دراسات ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، أكاد ير ، عدد١١ ، ٢٠٠٣ ، مطبعة المعارف الجديدة ، الرباط ٢٠٠٤ ،ص.١١.

٥٦)- وقيدي(محمد) ،التاريخ بين العلم والمنهج ،ص.ص.٢٢-٢٤.

٥٧)- مبارك(رضوان) ، م.س ،ص.٩٥.

٥٨)- مزين(محمد) منهج كتابة تاريخ ، ص.٥٩.ومبارك(رضوان) ، م.س ،ص.١٠٠.

٥٩)- التوفيق(أحمد) ،م.س ،ص.١١.

٦٠)- مبارك (رضوان) ، م.س ،ص.١٠٠.

٦١)- نفسه ،ص.١٠٥.

٦٢)- " ،ص.١٠٤.

٦٣)- " ،ص.ص.١٠٤-١٠٥.

٦٤)- " ،ص.١٠٥.

٦٥)- " ،ص.١٠٦.

٦٦)- نفسه.

٦٧)- نفسه.

٦٨)- نفسه.

٦٩)- المنصور(محمد) ، الكتابة التاريخية بالمغرب خلال ثلاثين سنة ، ص.٢٧.

٧٠)- القدوري(عبد المجيد) ،م.س ،ص.٧١.

٧١)- يقتصر الأمر هنا فقط على الأطروحة التي ناقشها عبد الأحد السبتي قبل سنوات قليلة حول المدينة والمجال ،وبحث نيكولا ميشيل حول اقتصاد المعاشات بالمغرب قبل الاستعمار.

قدم هذا البحث ضمن الندوة الوطنية حول موضوع:"الرواية الشفوية والإثنوغرافيا في الأطلس الكبير الأوسط" كلية الآداب والعلوم الإنسانية في بني ملال – المغرب خلال الفترة ٥-٦ /مايو ٢٠٠٩.

الفقه في مدينة دمشق في القرنين الرابع والخامس للهجرة







أنور محمود زناتي

مدرس مساعد – قسم التاريخ

كلية التربية – جامعة عين شمس

جمهورية مصر العربية

anwar_zanaty@mail.com



الاستشهاد المرجعي بالمقال:

أنور محمود زناتي ، الفقه في مدينة دمشق في القرنين الرابع والخامس للهجرة.- دورية كان التاريخية.- العدد السابع ؛ مارس ٢٠١٠. ص ١٥ – ١٨ .

(www.historicalkan.co.nr)

تعتبر مدينة دمشق من أكثر المدن الإسلامية تعرضاً للغزو العسكري والثقافي المستمر ، وكانت بلاد الشام في ذلك الوقت تابعة للدولة الإخشيدية[١] ، ولما آلت مصر إلى الفاطميين ، كان من الطبيعي أن يوحدوا بينها وبين البلاد التابعة لها ، وخاصة أن من يحتل دمشق يستطيع أن يتخذها مركزاً يوجه منه حملاته إلى بلاد العراق هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى كان من الواجب أن يظل نفوذ مصر قوياً في بلاد الشام كما كان أيام الإخشيديين والطولونيين[٢] من قبل ، وقد كانت السيطرة على بلاد الشام تمثل أولوية إستراتيجية لكل نظام يتولى حكم مصر. وقد حرص الفاطميون على تقلد زعامة العالم الإسلامي ، ومن ثم وجهوا عنايتهم إلى توسيع نطاق دعوتهم وبسط سيطرتهم على أراضي الدولة العباسية[٣] أو على الأقل يقفون كحجر عثرة أمام محاولات العباسيين الانتقام من فتح مصر فتكون بلاد الشام خط الدفاع الأول عنها[٤].

ونحاول في هذا البحث طرح إشكالية الفقه في دمشق طوال الفترة من (٣٥٩ – ٤٨٦ هـ / ٩٩٩ – ١٠٧٣م) ، حيث وقعت دمشق تقع تحت حكم الولاة الفاطميين ، ولما كانت الدولة الفاطمية قد قامت على أساس تشابكت فيه السياسة مع الدين إلى حد أن كل تنظيم سياسي في هذه الدولة كان انعكاساً لروح العقيدة الفاطمية نفسها حتى أصبحت أصدق مثال للدولة الدينية العقائدية (الثيوقراطية) ، وكانت الدعوة هي عمادها ، وكانت وظيفة داعي الدعاة من مفردات الدولة الفاطمية على حد قول المقريزي[٥].

ولم يكد جوهر الصقلي قائد الخليفة المعز لدين الله ينجح في فتح مصر سنة ٣٥٨ هـ / ٩٦٨ م ، ويتمكن من إقامة الخطبة للخليفة الفاطمي على منابر مصر ويشرع في تأسيس القاهرة المعزية لتكون مركزا للخلافة الفاطمية حتى أخذ يولي وجه شطر بلاد الشام ، ويتطلع لفتحها للقضاء على بقايا النفوذ الإخشيدي فيها ولتأمين حدود مصر من جهة الشام ، والوقوف أمام الروم والقرامطة الذين كانوا قد اجتاحوا بلاد الشام ، وأوقعوا الهزيمة بقوات الإخشيديين سنة ٣٥٧هـ / ٩٦٧ م[٦].

ولم يمض عام واحد على استقرار جوهر في مصر حتى سَيّر حملة إلى بلاد الشام في أواخر سنة ٣٥٩ هـ / ٩٦٩ م بقيادة جعفر بن فلاح[٧] الذي تمكن من دخول دمشق في المحرم من سنة ٣٦٠ هـ / ٩٧٠ م بعد انتصاره في موقعتين حاسمتين في " الرملة " و " طبرية" ، وعلى الفور خطب للخليفة الفاطمي المعز على منابر دمشق ، وفي يوم الجمعة التالي حذف اسم الخليفة العباسي من الخطبة فثار أهالي دمشق وفق رواية أبي الفدا وقطعوا الخطبة للمعز ، وسرعان ما قَضَى جعفر بن فلاح على الثائرين وأعاد سلطان الفاطميين[٨].

وقد استفاد الفاطميون من أوضاع بلاد الشام المتردية ؛ فكان هناك صراع على النفوذ بين الحمدانيين[٩] والإخشيديين ، وصراع بين الحمدانيين أنفسهم بعد وفاة سيف الدولة الحمداني ، فبعد استيلاء الفاطميين على دمشق وقعوا في نزاع مع القرامطة ، فهاجم القرامطة البلاد ، محاولين السيطرة عليها ، والحصول على أكبر مكسب مادي منها لأن دمشق كانت تدفع الجزية من قبل لزعيم القرامطة ومقدارها ثلثمائة ألف دينار كل سنة فغدت هذه الجزية لا تدفع إليهم بعد استيلاء الفاطميين على هذه المدينة[١٠].

وفي أول الأمر قام القادة الفاطميين بإحلال التشريع الشيعي مكان التشريع السني في القضاء والفتيا [١١] ، وباشروا تغيير الصيغة المذهبية الولائية للمدينة من خلافة بغداد العباسية السنية إلى خلافة القاهرة الفاطمية الشيعية ، وعملوا على نشر دعوتهم الإسماعيلية بين أهالي دمشق ، وقاموا بتوظيف المراكز الدينية التي تمثلها المساجد من قبل دعاتها لإعلان دعوتها الإسماعيلية بتنفيذ تلك الصيغة بدءاً من الآذان فجعلوه " بحي على خير العمل " ، بدلا من " حي على الفلاح " ، وذلك لأنهم يرون أن عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – قد غيّر في الصيغة التي تنوقلت عن النبي – صلى الله عليه وسلم - ؛ فقد كان عمر يرى أن الناس إذا سمعوا أن لصلاة خير من العمل ، تهاونوا في الجهاد وتخلفوا عنه [١٢] وفي صلاة الجمعة جهروا بصوت عال بالبسملة [١٣] ، وزادوا صيغة القنوت في الركعة الثانية ، التي مؤداها : " اللهم نحن ليك قانتون " ، وعلى النقيض أزالوا ما زاده أهل السنة في هذه الصلاة من قراءة " سبح باسم ربك " و " التكبير بعد الصلاة " [١٤].

وطبقوا نظام أوقات الصلاة عن طريق المزولة وعدم اعتماد التوقيت الشمسي [١٥]. وفي الصيام ، جعله الفاطميون على حساب لهم ، ثلاثين يوماً لا أكثر ولا أقل ولا يكون على الرؤية بطلب الهلال [١٦] ، حتى لا يحدث اضطراب في إفطار المسلمين في أرجاء دولتهم الواسعة نتيجة الاختلاف الزمني في رؤية الهلال. كما ألغوا صلاة التراويح [١٧] لأنهم لا يرونها مشروعة الجماعة ؛ إذ لا جماعة إلا في فرض.

ومما تجدر الإشارة إليه أن ابن كِلّس بلغ في الفقه الجعفري الفاطمي درجة عالية [١٨] أهلته لأن يؤلف الكتب والمراجع ، وقد ذكر أن عددها بلغ المائة ، ولكن هذا العدد الكبير من المؤلفات فقد ولم يبقَ منه إلا "الرسالة الوزيرية" في مختصر الفقه ، وبالنظر لأهمية هذه الرسالة فإن الخليفة الفاطمي "الظاهر لإعزاز دين الله" طلب إلى الدعاة والمستجيبين بأن يعمموها ويحفظوها عن ظهر قلب ، وإلى القضاة بأن يصدروا فتاويهم في الفقه والقانون بموجبها [١٩].

ومنذ عهد الحاكم بأمر الله ، تميزت الدعوة بالدعوة الباطنية وهو ما عرف بالتأويل وأن لكل ظاهر باطن وقد اعتبر التأويل أو علم الباطن ملكا لأسرة علي ومعجزته فهو العلم اللدني قرين القرآن الكريم الذي نقله النبي – صلى الله عليه وسلم - إلى علي رضي الله عنه ليتوارثه الأمة من بعده ، ونقلوا عن النبي – صلى الله عليه وسلم - قول " أنا صاحب التنزيل ، وعلي صاحب التأويل " ، وأن هذا التأويل يزداد من إمام لآخر [٢٠].

وقد نالت وظيفتا القضاء والخطابة بدمشق اهتمام الفاطميين حتى زوال حكمهم بها ، لما تقدمه لهم من خدمة في التشريع الإسماعيلي. وتذكر المصادر أنه لم يكن الفقهاء والعلماء المالكية العنصر المشارك بمنصب القضاء في العصر الفاطمي ؛ وإنما كان هناك قضاة شافعية وأحناف وحنابلة أيضاً فيذكر ابن حجر أنه بعد مقتل القاضي مالك بن سعيد الفارقي وخلو منصب القضاء فتقلده أبو العباس بن العوام الحنبلي المذهب وتولى منصب القضاء على مصر وبرقة وصقلية والشام [٢١].

وعلى هذا الأساس تم البناء السياسي والمذهبي بالمشاركة في العصر الفاطمي بدمشق في تلك الفترة بعد أن سمح الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله سنة ٣٩٩ هـ / ١٠٠٧ م لأصحاب المذاهب السنية العمل في الوظائف الفاطمية وعدم التعرض للصحابة والسلف [٢٢]

وكان فقهاء الدولة الفاطمية يرون أنه لا يوجد فرق بين التشريعين إلا في الفقه وتفسير أصول الدين ، إذ جعلوا تفسير أصول الدين وفقاً على الإمام وحده ، بحكم أنه وارث العلم الإلهي فهو المجتهد المطلق فإذا سمح به لغيره فهو مجتهد مقيد ، كذلك قاموا بتغيير نظام المواريث وجعلوه أساس رأي أهل البيت فيجيز أن ترث البنت كل ما تركه أبواها إذا لم يكن لها أخ أو أخت مع وجود ذوي العصبية ، وهذا يخالف مذهب السنة الذي لا يقضي بألا ترث البنت أكثر من نصف الثروة [٢٣].

وكان من المعروف عن سياسة الفاطميين أنها كانت وجهة إلى غاية أساسية ، وهي العمل بكل جد لحمل الناس على اعتناق مذهبهم ولكن الأمر العجيب واللافت للنظر أنه وعلى الرغم من استمرار الحكم الفاطمي لدمشق وما تخلله من اضطراب سياسي واقتصادي بين ولاتها وأهالي دمشق قرابة القرن لم تذكر المصادر التاريخية أن ولاتها قد اتبعوا سياسة عدائية ضد علمائها وفقهائها السنة أو منعهم من ممارسة دورهم الديني والتعليمي ، وفي القدوم والترحال منها واليها [٢٤] حتى أن الوزير الفاطمي يعقوب بن كِلّس [٢٥] وزير المعز قد استشير من قبل خليفته حول السياسة التي يجب اتخاذها لاستمرار حكمهم بالشام فقال له : " سالم يا أمير المؤمنين الروم ما سالموك ، واقنع من الحمدانية بالدعوة والسكة " [٢٦].

ومن المشهور عن هذا الوزير أنه بأنه كان يجمع في قصره العلماء والفقهاء ، ويعين فرق الكتاب لنسخ كتب الفقه والقانون والحديث ، وقد عيَّن على مقربة منهم فرقةً خاصة مهمتها التصحيح والمقابلة والضبط والتصويب لكل ما يكتبه الكتَّاب [٢٧].

ونلاحظ أن يعقوب لم يحرض المعز على اضطهاد علماء الشام وفقهائها السُنة أضف لذلك أن المدينة لم في المجئ إليها والاستقرار بها ، وطلب العلم من علمائها. كما أجازت مراسم الفاطميين للمؤذنين السنة أن يستعملوا العبارات المعتاد ذكرها في الصلاة حسبما يرون ، وألا تقدم شكاوى لسبب من الأسباب التي تتعلق بذكر هذه العبارات ، وألا يسب أحد من الخلفاء الأول ، ولا يمنع أحد من أن يقول هذه العبارة التي تنطوي على احترامهم وإجلالهم وهي : " اللهم ارحمهم " إذا ما ذكر أسماءهم ؛ وبذلك عوملوا معاملة الأبرار وإذا أراد أحد أن يستعمل هذه العبارة التي تدل على أسمى مراتب التعظيم لعلي وهي : " اللهم ارحمه " فلا حرج عليه ، وكان الحاكم بأمر الله يأمر بمحو أي لعن للسلف [٢٨] وكتب سجلاً بذلك ليقرأ في كل مكان على جميع الناس [٢٩].

وجعل لكل مسلم الخيار في إتباع الرسوم السنية أو الشيعية [٣٠] وتم إبطال الكثير من الرسوم الشيعية البحتة فتم إعادة القنوت في الصلاة ، وكان الحاكم قد أبطل في سنة ٣٧٠ هـ ، والسماح بصلاة الضحى ؛ وهذه من الصلوات التي تؤدى في ضحى اليوم من ارتفاع الشمس قدر رمح إلى الزوال ؛ وكان الحاكم قد منعها منعاً باتاً في سنة ٣٩٣ هـ [٣١] ، بل وأنشأ الحاكم بأمر الله مدرسة لتعلم المذهب السني. وتم إصدار مرسوم يجيز للناس صوم رمضان وفطره بمقتضى حساباتهم الفلكية ، بل وتم تعديل القاعدة الشيعية التي تجيز للبنت أن تستولي على جميع الثروة التي يخلفها أبواها إذا انفرت بالميراث [٣٢].

ومن السجل الذي كتبه الخليفة الحاكم الفاطمي لقاضي قضاته الحسين بن علي بن النعمان [٣٣] وأُسندت إليه مقاليد الدعوة وأخذ لقب " قاضي القضاة وداعي الدعاة " نرى أن سلطته شملت رياسة القضاء في مصر وبلاد الشام ، وأ ن عمله تعدى ذلك إلى النظر في شئون

موظفي المساجد من الأئمة والقوامين عليها والمؤذنين بها وغيرهم ، كما أصبح له الإشراف على دور الضرب ورسم له الخطة التي يسير عليها ، فأمره بتقوى الله في السر والعلانية ، والمحافظة على شعائر الدين ومراعاة حدوده ،وأمره أن يجعل الحكم في المواضع الظاهرة ويرفع عنهم حجابه ويفتح لهم أبوابه ويحسن لهم انتصابه ويقسم بينهم لحظة ولفظة ولا يحابي فيها قويا لقوته ولا يُردي فيها ضعيفا لضعفه بل يميل مع الحق ويجنح إلى جهته "(٣٤).

وقد لاحظ القلقشندي أن " مذهبي مالك والشافعي ظاهري الشعار في زمن الفاطميين " (٣٥) ، وعند النظر في كتب الطبقات والتراجم والأعلام والوفيات نجد التأريخ لعدد كبير من الشخصيات العلمية والفقهية ممن عاشوا في الفترة الفاطمية ومارسوا وظائف دينية وعلمية وساهموا مساهمات فعالة في نشر العلوم الفقهية والشرعية في الإقراء والرواية والاستماع ومداولة الحديث النبوي الشريف ومثال على ذلك أننا وجدنا الذهبي في تاريخه قد أرخ لنحو خمس وأربعين فقيه وعالم سنة وشيعة خلال حوادث (٤٥١ — ٤٦٧ هـ) ووجدنا الفقيه الشافعي رشأ بن نظيف بن ما شاالله أبا الحسن الدمشقي (ت ٤٤٤هـ / ١٠٥٢ م) قد أوقف داره التي بدار الخزاعية شمال الخانقاه السميساطية للقراء في حدود سنة أربعمائة وعرفت بدار القرآن الرشائية وجاء إنشائها بطبيعة الحال بموافقة السلطة الفاطمية بدمشق لأن كل كتب التراجم لا تشيد إلا بواقفها فقط وكانت الدار تقدم خدمات عامة للسنة والشيعة معاً .وما يؤكد عدم تعرض علماء وفقهاء السنة لأي نوع من أنواع الاضطهاد والأذى أننا إذا ما تتبعنا السير الذاتية لعلماء وفقهاء دمشق نجد أن لهم هم وصفا دقيقا لنشاطهم العلمي والشرعي الواضح من أمثال أبو هاشم عبد الجبار السلمي ، احمد بن محمد بن سعيد ، أبو سليمان بن ربيعة ، الحسن بن علي الرهاوي أبو القاسم البجلي ، الربعي علي بن محمد المالكي ، الحسن الأهوازي ، احمد بن علي الكفرطابي الخ (٣٦).

وذكر لنا ابن حجر قضية رجل ادعى ملكية حمام كان لجده وكان ينبغي أن ينتقل لأمه حسب قانون الشيعة وكان لقاضي السني أبو الطاهر قد حكم في هذه القضية بأ نه لم يكن لهذا الشخص الحق في ادعاء الملكية لأن جده قد وقف لحمام على الأعمال الخيرية إلا أن القاضي الشيعي ابن أبي ثبان أبطل الحكم وحكم لصالح الرجل الشيعي إلا أن الخليفة المعز أمر بإبطال حكم القاضي الشيعي ابن أبي ثوبان ليزيل السخط الذي دب في نفوس الشهود السنيين (٣٧). ولم يشكل الفقهاء والعلماء من عاصروا الفترة الفاطمية أي خطر على الدعوة الفاطمية وكان نشاطهم الديني والعلمي يتمشى وسياسة الأمر الواقع وأفادت كثير من المصادر بتشجيع الفاطميين لنشا ط القراءات وتداول رواية الحديث الشريف بالجامع الأموي الذي اعتمده علماء وفقهاء السنة والشيعة معا حتى نهاية الفترة الفاطمية بدمشق (٣٨).

خلاصة الأمر أنه لم تنجح الحامية الفاطمية بدمشق في تحقيق سياستها المذهبية على مدى القرن تقريبا بين أهلها وكان تأثيرها ضعيفاً لأنهم لم يتمكنون من حكم دمشق بشكل مستمر ، فكانت تتنازع مدنها أطماع القرامطة والأعراب حيناً ، وأطماع الروم حيناً آخر ، وعندما تكون الغلبة والسيطرة لإحدى هذه الفئات ، تتفنن في فرض الإتاوات والقيام بأعمال السلب والنهب. وهكذا لم ينعم الفاطميون بالاستقرار لاستمرار روح المقاومة بين السكان ضدهم ، مما زاد من معاناة أبناء سورية وانهيار اقتصادها وتهديم أجزاء منها ، بل وحريق جانب من الجامع الأموي في دمشق ، إبان الحكم الفاطمي ، الذي انتهى ليبدأ حكم السلاجقة.

الهوامش

(١) الإخشيديون : سلالة تركية مستعربة حكمت في مصر والشام سنوات ٩٣٥-٩٦٩ م ، راجع ، الموسوعة الإسلامية العامة ،المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، القاهرة ، ٢٠٠١ م ، ص ٧٦.

(٢) الطولونيون : سلالة من الأتراك المستعربة حكمت في مصر ، الشام وفلسطين سنوات ٨٦٨-٩٠٥ م. راجع ، الموسوعة الإسلامية ، ص ٩٢٨ .

(٣) محمد جمال الدين سرور: النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق ، دار الفكر العربي ، ص ٣.

(٤) حسن ابراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٤م ، ص ١٥١ .

(٥) للمزيد راجع ، خطط المقريزي ، ج ١ ، ص ٣٩١ .

(٦) راجع ، جيرار ديجورج : دمشق من عصور ما قبل التريخ إلى الدولة المملوكية ، المجلس الأعى للثقافة القاهرة ، ٢٠٠٥ م ، ص ١٣٤ ، وعبد المنعم ماجد : ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها ، مكتبة الحرية الحديثة ١٩٨٥ م ، ص ٢٩٣ .

(٧) جعفر بن فلاح : من قبيلة كتامة من البربر ، ومن قواد المعز .

(٨) أبو الفدا : تاريخ أبي الفدا ، ج ٢ ، ص ١١٥ .

(٩) الحمدانيون : سلالة عربية حكمت في بلاد الفرات والشام من ٩٠٤/٢٩-١٠٠٣ م. وكان مقرها الموصل وحلب. ينحدر الحمدانيون من قبيلة تغلب العربية. لمع نجمهم أثناء عهد مؤسس السلالة حمدان بن حمدون ، والذي أصبح سنة ٨٩٠ م واليا على منطقة ماردين من قبل العباسيين. راجع ، الموسوعة الإسلامية ، ص ٥٧١ .

(١٠) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ، مرجع سابق ، ص ١٥٣ .

(١١) الخطط المقريزية ، ج٤ ، ص ١٤٦ .

(١٢) النعمان : دعائم ، ج ١ ، ص ١٧٢ .

(١٣) الخطط ، ج٤ ، ص ١٤٥ - ١٤٦.

(١٤) اتعاظ الحنفا ، ص ١٦٨.

(١٥) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ، مرجع سابق ، ص ٢٢١ .

(١٦) الخطط : ج ٢ ، ص ٣٨٨ .

(١٧) نفسه : ج٤ ، ص ١٥٧ .

(١٨) Marg oliouth, Giro ,J erusalemand Damascus, p . 40

(١٩) للمزيد راجع ، عارف تامر : رحلة مع يعقوب ابن كلس ، مجلة التراث العربي ، دمشق ، عدد ٣٠ - السنة الثامنة - كانون الثاني "يناير" ١٩٨٨ م .

(٢٠) راجع ، سيرة المؤيد في الدين ، تحقيق : محمد كامل حسين ، القاهرة ، ١٩٤٩ م ، ص ١٧.

(٢١) للمزيد راجع ، ابن حجر : رفع الإصر عن قضاة مصر ، تحقيق : علي محمد عمر ، مكتبة الخانجي ، وحسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ، مرجع سابق ، ص ٣١٠ .

(٢٢) جمال محمد سالم عريكيز: فقهاء الشام ، فقهاء الشام في مواجهة لغزو الصليبي ، عين للدراسات والبحوث الانسانية ، القاهرة ، ٢٠٠٦ م ، ص ٣٢ .

(٢٣) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ، مرجع سابق ، ص ٣١٦ .

(٢٤) جمال عريكيز: فقهاء الشام ، مرجع سابق ، ص ٣٢ .

(٢٥) يعقوب بن كلس : هو يعقوب بن يوسف بن إبراهيم بن هارون بن داود بن كلس من أشهر وزراء مصر في العصر الفاطمي ، كما أنه كان أول وزير للفاطميين بالديار المصرية ، راجع ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٢ ، ص ٤٦١ .
(٢٦) ابن القلانسي : تاريخ مدينة دمشق ، تحقيق سهيل ذكار ، دار الفكر ، دمشق ، ١٩٨٣ م ، ص ٥٦.
(٢٧) للمزيد راجع ، عارف تامر : رحلة مع يعقوب ابن كلس ، مجلة التراث العربي ، دمشق ، عدد ٣٠ - السنة الثامنة - كانون الثاني "يناير" ١٩٨٨ م .
(٢٨) عبد المنعم ماجد : ظهور خلافة الفاطميين ، مرجع سابق ، ص ٣٥٥ .
(٢٩) محمد عبد الله عنان : الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٩٨٣ م ، ص ٧٧ .
(٣٠) الخطط المقريزية ، ج ٢ ، ص ٢٨٧ .
(٣١) نفسه ، ج ١ ، ص ٤٥٨ .
(٣٢) نفسه ، ص ٣١٦ .
(٣٣) صبح الأعشى ، ج ١٠ ، ص ٣٨٥ – ٣٨٨ .
(٣٤) نفسه .
(٣٥) نفسه ، ج ٣ ، ص ٥٢٤ .
(٣٦) جمال عريكيز : فقهاء الشام ، مرجع سابق ، ص ٣٣ .
(٣٧) الكندي : قضاة مصر ، ص ٥٨٨ .
(٣٨) جمال عريكيز : فقهاء الشام ، مرجع سابق ، ص ٣٩ .



زيارة جديدة للاستشراق

من مؤلفات
الأستاذ أنور محمود زنائي

أثارت الظاهرة الاستشراقية ، وما زالت تثير جدلا واسعا في مجال الدراسات الفكرية والحضارية ، فقد عملت هذه الدراسات على تشكيل العقل الغربي والشرقي معاً. والاستشراق ذلك التيار الفكري الذي تمثل في الدراسات المختلفة عن الشرق الإسلامي والتي شملت حضاراته وأديانه وآدابه ولغاته وثقافته. وكان لحركة الاستشراق قوة دفع ورواج أثارت وأثرت في الفكر الإنساني. لقد حاول الغرب أن يرسم صورا غير سوية لشخصية الرسولﷺ خلال اصطدامه بالحضارة الإسلامية بل وصل الأمر إلى أن بعض من المستشرقين شكك في وجود النبي حقيقة ، ومنهم من شكك في أسمه وأميته ، ومنهم من قال أنه المسيح الدجال. وهذا الكتاب يقوم بإلقاء الضوء على الاستشراق وإعطاء نظرة جديدة قد تضيف إلى هذا المجال الخصب قطرة من بحر ويحاول أيضا تتبع الظاهرة الاستشراقية وتطورها عبر العصور محللا دوافعها ومحركاتها ونقاط ضعفها وقوتها ، كما يحاول أن يستشف ويستنتج منهادرو سهاالأكثر تأثيرا فينا نحن أهل الشرق ، كما حاول إبراز آراء الصفوة من أولئك المستشرقين الذين كتبوا بموضوعية – إلى حد كبير – عن الرسولﷺ في ثنايا أعمالهم لأن تلك الأقوال المنصفة سوف تظل جزءا أساسيا في تراث الغرب ولابد من الاطلاع عليه ومعرفته ، ومن العجيب والمثير للتأمل في آن أنه رغم وجود أقلام حاقدة وبعيدة عن روح الإنصاف إلا أننا في ثنايا أعمالهم شهادات تكاد تجب ما قالوه وهو ما يستعرضه الكتاب أيضاً.

من تاريخ الفن



بقلم
أسماء صلاح

بقيت المرأة رمزاً للجمال ومحوراً للفن والأدب عبر التاريخ ، ولم تقف عند حدود المرأة الملهمة ، بل ساهمت بشكل أو بآخر في بناء صرح العمل الفني. وبين صفحات تاريخ الفن التشكيلي أشرقت المرأة كعنصر مهم في العمل الفني ، تعددت فيه استلهام الفنانين بالرسم أو النحت من جمال الجسد مروراً بدورها في الحياة ووصولاً إلى دخولها معترك المنافسة كفنانة مبدعة.

وفي إطار الاحتفال باليوم العالمي للمرأة نقدم بورتريه شخصي للفنانة السويسرية انجيليكا كوفمان Angelica Kauf fman (١٧٤١–١٨٠٧) التي تتلمذت على يد والدها الرسام الفقير لتصبح فيما بعد رسامة ملوك وملكات أوربا. كما اكتسبت من والدتها حب القراءة ، وتعلمت العديد من اللغات ، وعزفت الموسيقى ، فاقتربت من مجتمع المثقفين ، ورسمت شعراء وروائيين ومسرحيين من بينهم الشاعر الألماني "جوته" Gethe (١٧٤٩ - ١٨٣٢) الذي كثيراً ما امتدح ثقافتها ومواهبها المتعددة. لقبت بـ"الآنسة انجيل" ، و"ربّة الإلهام العاشرة لروما" بسبب حضورها الكبير وجاذبيتها الطاغية ، وقيل إن ملامحها تعطي انطباعاً عن امرأة لا تنتمي إلى هذا العالم.

ويعُد هذا البورتريه أجمل ما رسمت الفنانة لنفسها ، فظهرت كسيدة مجتمع مثقفة وعصرية تنظر إلى المتلقي بثقة وفي يديها أدوات حرفتها ، وبجوارها تمثال لمينيرفا Minerv الإلهة الأسطورية راعية الفنانين وأرباب الحرف. وثمّة احتمال بأنها أرادت من خلال التمثال أن تؤكد على أنها فنانة تنحاز للرسم الكلاسيكي. وتحكي الأسطورة عن انتصار مينيرفا في حربها مع نيبتون للسيطرة على أثينا ، رغم كونها أنثى ، وهذا احتمال آخر بالإشارة إلى حتمية نجاح النساء في الفن وتبوئهن مكانة تنافس الرجال.



القصر الملكي بفاس الجديد



المعالم العمرانية لفاس الجديد المرينية



د.عبد الباسط المستعين

كاتب وباحث في تاريخ المدينة المغربية

المملكة المغربية



abdelbasset73@yahoo.fr



الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

عبد الباسط المستعين ، المعالم العمرانية لفاس الجديد المرينية.- دورية كان التاريخية.- العدد السابع ؛ مارس ٢٠١٠.

ص ١٩ – ٢٨ .(www.historicalkan.co.nr)

مقدمة

تحتل مدينة فاس مكانة متميزة بالنظر إلى الدور الحيوي الذي لعبته في تاريخ المغرب سواء على المستوى السياسي أو الاقتصادي ، وكانت وما تزال من أهم المراكز الحضرية في البلاد التي تسترعي اهتمام السلطة الحاكمة. ولقد حققت ذروة ازدهارها ومنتهى الأهمية التي حظيت بها في العصر الوسيط ، ونظرا لهذه الحظوة فقد شهدت تطورا مستمرا منقطع النظير مع تعاقب الأسر الحاكمة. وقد لا نبتعد عن الحقيقة إذا قلنا أن فاس في العصر المريني كانت تتألف من ثلاث مدن مندمجة على الأقل ، عدوة الأندلس أو البليدة أي فاس الأصلي التي تعود حسب بعض الدراسات إلى عهد إدريس الأول ثم عدوة القرويين أو العالية التي تعود إلى عهد إدريس الثاني ، وتشكل العدوتان في مجموعهما فاس البالي ذي الأسوار الجامعة مع إضافة بعض القصبات في العصرين المرابطي و الموحدي. وأخيرا فاس الجديد أو المدينة البيضاء أو البلد الجديد الذي أسس من قبل المرينيين وهو موضوع هذه الدراسة التاريخية العمرانية.

وإذا كانت فاس العتيقة قد نالت الحظ الأوفر من الأبحاث فإن الدراسات التي تهم فاس الجديد لا توازيها من حيث الكم و النوع. وربما يعود السبب إلى الثقل الديمغرافي والاقتصادي فضلا عن السبق التاريخي للقسم الأول من المدينة.

إن التعرف عن المكونات العمرانية لفاس الجديد المرينية تعترضه عدة صعوبات منها ندرة المادة المصدرية ؛ فرغم وفرة المصادر التي تغطي الحقبة المرينية والمعاصرة لفترة إنشاء فاس الجديد ، فإن حديثها عن المعالم العمرانية للمدينة لا يتجاوز العرض الاحتفائي بمنجزات هذا السلطان أو ذاك في سطور وجيزة وإشارات عرضية عابرة لا تفي بالغرض كما أن استمرار مدينة فاس في موقع الريادة و مكانتها المهمة في عصر الأسر التي خلفت المرينيين في حكم المغرب ، جعلتها محط عناية تجلت فيه تأسيس المزيد من المنشآت التي ساهمت في تغيير ملامح المدينة المرينية الأصل ، إن جزئيا أو كليا.

كل هذا لا يمنع من تناول موضوع التشكيل العمراني لفاس الجديد المرينية ونفض ما تراكم عنه من غبار الحقب والعصور ، عسى أن يكون ذلك لبنة في حلقة الدراسات المونوغرافية والتاريخية والحضرية التي تنصب على وطننا الإسلامي و العربي عامة وعلى المغرب الأقصى خاصة.

فما هي ظروف تأسيس فاس الجديد ودوافعها؟ وما هي المعالم الكبرى للمدينة وطابعها العمراني خلال الفترة المرينية ؟

نظرة تاريخية حول أهمية فاس الجديد وظروف نشأتها

لقد كانت مراكش العاصمة السياسية للإمبراطوريتين المرابطية والموحدية لمدة تزيد عن قرنين من الزمن لكن المرينيين بالنظر إلى ظروف سيطرتهم على المغرب ، فضلوا أن يحولوا العاصمة إلى فاس. ويتفق كل من الحسن الوزان ومارمول كربخال على أن أسباب هذا التحول تعود إلى رغبة المرينيين في القرب من مملكة تلمسان التي كانوا معها في حرب دائمة[1]. لكن ما هو السبب الذي دفع المرينيين إلى اتخاذ مدينة جديدة بدلا عن فاس القديمة ؟

١- وصف إفريقيا – ج I- ص ٢٨٢ / إفريقيا – ج II. ص ١٤٤.

يعزو أحد الباحثين سبب استحداث فاس الجديد إلى عاملين أساسيين: هما ضيق القصبة الموحدية لإيواء جنود المرينيين وجميع أتباعهم، ثم الرغبة النفسية والتقليد التاريخي لدول هذه الفترة التي تثبت مشروعيتها بتشييد الجديد[٢]. إن هذين العاملين وجيهين لكنهما في نظرنا غير كافيين لتبرير عمل لا تنحصر دوافعه في الجانب التعميري فحسب، بقدر ما تجاوز ذلك إلى أهداف أكثر عمقا و جدارة.

إن تتبع مسار الأحداث التي واكبت قيام الدولة المرينية يمكن أن يساعدنا على استكشاف الدوافع الحقيقية في اتخاذ مدينة أخرى بجانب المدينة السابقة كعاصمة لهم. فقد دخل أبو يحي المريني إلى فاس منذ سنة ٦٤٥هـ ومكث فيها زهاء سنة ونصف وخرج بعد ذلك في أحد حروبه، فاستغل السكان فرصة غيابه وثاروا لصالح الموحدين، ولم يتمكن من استرجاع المدينة إلا بعد حصارها لمدة تسعة أشهر، مما يوحي أن استحداث المدينة الجديدة كانت له مرامي أمنية تكمن في ترسيخ نفوذ الدولة وتعزيز حضور القبائل المساندة لها في العاصمة من جهة، ومراقبة المدينة القديمة و التحكم في ساكنتها من جهة ثانية، ثم الفصل بين جيوشه حديثة العهد بالبداوة و الحضر من أهل فاس من جهة ثالثة[٣].

ومهما يكن، فإن مركز السلطة بمدينة فاس والمغرب عموما خلال العصر المريني، صار هو فاس الجديد منذ الإقدام على تأسيسها. فما هي ملابسات هذا التأسيس؟ على خلاف المدن المغربية في العصر الوسيط، تجمع المصادر حول مؤسس هذه المدينة وتاريخ تأسيسها بالسنة والشهر واليوم، حيث اتفق كل من صاحب "الذخيرة السنية" و"روض القرطاس و"روضة النسرين" و ابن خلدون و الوزان؛ على أن تأسيسها كان في الثالث من شوال سنة ٦٧٤ هـ[٤]. أما مؤسسها فتؤكد نفس المصادر أنه هو أبو يوسف يعقوب[٥]، المؤسس الفعلي لدولة بني مرين، مباشرة بعد تحقيقه لنجاحين كبيرين ومترادفين، وهما: الانتصار في المعارك التي خاضها بالأندلس[٦] والرجوع منها بغنائم وافرة وعدد كبير من الأسرى، ثم التمكن من دخول مراكش والقضاء على المرتضى آخر ملوك الموحدين[٧].

وهنا يكمن في نظرنا سبب آخر كان حافزا لتأسيس المدينة، ألا و هو دور الغنائم الأندلسية في تمويل مشروع بنائها وما يتطلبه من نفقات ضخمة، كان من المستبعد الإقدام عليه في غياب هذه الموارد[٨]، هذا فضلا عن استخدام الأسرى النصارى في عمليات التشييد[٩].

٢- فاس قبل الحماية – ج I. ص ٩٧.
٣. المسند الصحيح الحسن في مآثر و محاسن مولانا الحسن. ص ١١٦,
٤- الذخيرة السنية. ص ١٦١. روضة النسرين. ص ص ١٩. ٢٠ / روض القرطاس. ص ٤٠٤. العبر. ج VII. ص ٢٥٨. وصف إفريقيا- ج I. ص ٢٨٢.
٥. أ. ثبته كذلك ابن مرزوق في "المسند الصحيح". ص ١١٦.
٦. حول هذه الانتصارات، انظر: الإحاطة بأخبار غرناطة. ج IV. ص ٣٥٩. روض القرطاس. ص ص ٣١٣ و ٣١٥ إلى ٣١٩....
٧. حول إخضاع مختلف أطراف المغرب الأقصى، انظر: روض القرطاس. ص ص ٣٠٧ إلى ٣١٢.
٨. حتى قيل "وامتلأت أيدي بني مرين بالغنائم" روض القرطاس. ص ٣١٥ وقيل أيضا: "و فاضت الغنائم هنالك فيض النيل" م ن. ص ٣١٦، و حتى "يبعت الرومية بمثقال و نصف" م ن. ص ٣٢١ و"الغنم بدرهم للشاة" م ن. ص ٣١٩.
٩. الذخيرة السنية. ص ١٦٢.

وعلى عكس الانحدار المميز لموضع فاس القديمة، فإن فاس الجديدة تمتاز بموقعها السهلي[١٠] المنبسط، و لا تبعد عن نظيرتها سوى بحوالي "ألف قدم"[١١]، أو "رمية بندقية"[١٢]، وبالضبط قرابة ٦٧٥ متر[١٣]. كما تؤكد المصادر أنها بنيت منذ أول وهلة على شكل قصبة، مما يفسر دورها الإداري والعسكري، فقد اتخذها بنو مرين موطن قرارهم و محط رحالهم، فكانت مقرا للسلاطين وأعوانهم ووزرائهم وقادة الجند وأهم أطر الدولة، كالمحتسب والقائم على دار السكة ...، كما ضمت معسكرات الجيش المريني بما تطلبته من أبراج وحصون واصطبلات وغيرها.

المكونات العمرانية الكبرى لفاس الجديد في العصر المريني

تشكلت فاس الجديد* في العصر المريني من ثلاث وحدات عمرانية كبرى لم يتم تشييدها دفعة واحدة، و إنما تأسست في مراحل تاريخية متفاوتة لكنها متقاربة، وهذه الوحدات بلغت من الأهمية بحيث وصفها العمري بأنها ثلاث مدن متراصة[١٤]، ويقاربه في ذلك، و هي كما وردت في المصادر كالآتي:

١- المدينة البيضاء:

هي دار الإمارة[١٦]، أو دار الملك[١٧] التي اتخذها السلاطين المرينيون مقر أعمالهم ومركز قراراتهم السياسية والعسكرية. وقد كانت معدة لسكنى السلطان وذويه، وهي أول ما أسس أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق سنة ٦٧٤هـ، إلا أن القسم الخاص منها بعامة أشياع الدولة والمرافق العامة التي تحتاجها المدينة، يظهر أن تأسيسها تأخر إلى سنة ٦٧٩ هـ[١٨]. وهي "آخذة من شمالي ربض النصارى إلى ضفة النهر ويقع أول عمارة فاس الجديد قبالة آخر عمارة فاس العتيقة"[١٩].

٢- ربض النصارى:

يحدد العمري موقعها "قبالة فاس القديمة على بعد من ضفة الوادي من غير مسامتة ولا مد .."[٢٠]، ويحدد وظيفتها في أنها كانت "... لسكنى الطائفة الفرنجية المختصة بخدمة السلطان"[٢١].

١٠. إفريقيا - ج II ص. ١٥٥. تاريخ الشرفاء. ص ١٤٦.
١١- إفريقيا - ج II ص. ١٥٥.
١٢. تاريخ الشرفاء. ص ١٤٦.
١٣. فاس في عصر بني مرين. ص ٢٦.
* تسمى أيضا: المدينة البيضاء. انظر: المسند الصحيح الحسن. ص ص ١١٦ و ١٢٢و ٤٠٥ ... كما سميت: البلد الجديد: انظر: العبر. ج VII. ص ٢٥٨. روضة النسرين. ص ص ١٩. روض القرطاس. ص ٣٢٢. مسالك الأبصار. ص ١١٤. و أطلق عليها كذلك اسم: فاس العليا و المدينة المرينية. انظر: سلوة الأنفاس. ج III. ص ٢٧٢.
١٤- مسالك الأبصار. ص ١١٤.
١٥. صبح الأعشى. ج V. ص ١٥٤.
١٦. روضة النسرين. ص ١٩. النفحة النسرينية و اللمحة المرينية. نسخة إلكترونية. ص ص ٩. ١٠ حسب الترقيم الآلي.
١٧. فيض العباب. ص ١٥٤. تحفة النظار. ج IV. ص ٢٠٢. اللمحة البدرية في الدولة النصرية. ص ١٠٦. الذخيرة السنية. ص ١٦١.
١٨- ورقات عن حضارة المرينيين. ص ٤٣.
١٩- مسالك الأبصار. ص ١١٥.
٢٠- نفسه.
٢١- نفسه.

ولقد ذكر ابن مرزوق، بأن أبا يوسف يعقوب المريني "خص النصارى الخدام بمسكن يميزون به عمن عداهم"[٢٢]، وهكذا أخرج السلطان المذكور "أجناد الروم الذين يسكنون مدينة فاس عنها وبنى لهم حظيرة بخارج المدينة وأسكنهم فيها ورفع أذاهم عن الناس"٢٣. ويرى الأستاذ المنوني أن المدينة المعروفة بربض النصارى كانت معدة "لسكنى فرقة الروم القشتاليين الذين كانوا منتظمين في الجيش المريني"[٢٤].

٣- حمــص:

وهي الوحدة الأخيرة ضمن المتخذات الثلاث التي تشكل فاس الجديد[٢٥]. يقول عنها العمري: "مدينة حمص ويعرف موضعها بالملاح، بناه أبو سعيد عثمان أبي يوسف .... إلى جانب البيضاء"[٢٦]. ويحدد موقعها كالآتي: "وحمص راكبة على النهر بشمال على جانب فاس الجديدة آخذة إلى ربض النصارى عقد على الوادي قناطر وبنيت حمص على ضفته وهي فوق الجميع لأن الوادي منها ينحدر..."[٢٧].

ويستنتج لوطورنو أن هذه المدينة استقت اسمها من اسم المدينة السورية التي ينتمي إليها الرماة الذين استقروا هناك[٢٨] في بداية الأمر قبل أن يعوضهم في سكناها اليهود[٢٩] فيما بعد. لكن ثمة اختلافات كبرى بين المؤرخين والباحثين في التاريخ الذي انتقل فيه اليهود إلى هذا المكان[٣٠]. ويبدو أن فاس الجديد لم تحافظ على هذا المظهر العام بحيث ساهمت الأحداث المتوالية وتداخل العناصر البشرية في تغيير مورفولوجية المدينة، وهو ما يمكن استنباطه من الأوصاف التي نستقيها من كتابات الوزان ومارمول حول المدينة في فترة لاحقة والتي تكشف عن حجم التطور الذي شهدته.

أهم المرافق العمرانية لفاس الجديد في عصر بني مرين: وظائفها وخصائصها المعمارية

رغم طابعها الخاص، فقد تميزت مدينة فاس الجديد بتنوع وتعدد مرافقها الحضرية على مستوى الوظائف والأشكال والأحجام. ونرصدها كما يلي:

١- مؤسسات سلطانية: القصور

أ- القصر الرئيسي: من أولى المنشآت بالمدينة[٣١] بعد بناء السور، وهو بناية ضخمة تشغل مساحة شاسعة، تعكس قوة الدولة وسيطرتها، ويتجلى ذلك من خلال بعض الأوصاف التي خلفتها لنا المصادر. يصف العمري هذا القصر قائلا: "..... وهو عالي البناء ذو قباب عليه ضخمة لائقة بالملوك وغرف مرتفعة، ورفاف علوية، ومجالس سلطانية، وبداخله القبة المعروفة "بقبة الرضا" وهي قبة عظيمة الارتفاع خارقة الاتساع، وقدامها بركة ممتدة بها مركب لاتساعها وكبرها، وخلفها بركة أخرى مثلها، بها مركب آخر لاتساعها وكبرها، ومساحة المركبين واحدة، والقبة العظمى بينهما، وفي نهاية كل بركة قبة لطيفة المقدار وفي جميع جدر القباب شبابيك مطلة والبستان حاف بالجميع، وهو بستان جليل منوع بصنوف الأشجار والغراس على اختلافها"[٣٢].

ب- الدار البيضاء: أحد القصور الذي شيد بالبلد الجديد سنة ٦٨٦ هـ[٣٣]، ويشير العلامة المنوني إلى "أن قطعة من روض القرطاس بها زيادات على المطبوع تشير إلى أن هذه هي دار الدبيبغ التي يقال لها الدار البيضاء، كما يذكر رواية ابن خلدون في العبر أن السلطان أبا سعيد أنزل ابنة أبا الحسن بالدار البيضاء من قصوره ..."[٣٤].

ج- قصور أخرى: لقد اهتم المرينيون غاية الاهتمام بتشييد القصور والاعتناء بها، فتعددت قصورهم كثرة. جاء في "روضة النسرين" حول عناية أبو يوسف مؤسس الدولة المرينية وبنيه بالقصور أنها "كلفت همم الملوك (المرينيين) ... فشيدوا القصور الضخمة الرائعة المنظر المختلفة الأسماء"[٣٥]، ويكفي لمعرفة قدر هذه القصور وحجم الحظوة التي نالتها في هذه الفترة الوصف العرضي الذي أورده ابن الخطيب حول الحريق الذي التهم جزءا منها، فيذكر أن النار "اصطلمت القصر المعروف بأبي فبر مطرح الأموال المجموعة ... المشتملة دوره وزواياه على الكثير من عدد الملوك، وآلات الحركات، وأجرام المنشآت، وثمين السلع من اللك ... والعاج والأبنوس والصندل وشبهه.

ثم تعدت إلى دار الصنعة وبها ما لا يأخذه الوصف من السروج والمهندات ونقر الذهب والفضة إلى الموازين وآلات الخيل ثم اتصلت بدار الديباج فالتهمت الحرير والأثواب وآلات النسيج ضخام المناول ..."[٣٦].كما كانت هناك قصورا أخرى خارج المدينة كقصر رأس الماء الذي يذكر الجزنائي[٣٧] وابن الأحمر[٣٨] أن أباسعيد الأول شرع في تأسيسه على مشارف وادي الجواهر عند الموضع المعروف برأس الماء.

٢- منشآت عسكرية: تحصينات المدينة

تؤكد بعض الدراسات على الخاصية العسكرية لفاس الجديد والتي يمكن أن تستشف من طبيعتها المعمارية[٣٩]، كقلة الأبواب والسور المزدوج المزود بالعديد من الأبراج، فضلا عن معسكرات الجيوش وقصباتهم واصطبلات خيولهم. وفيما يلي عرض لأهم التحصينات التي عرفتها المدينة خلال الفترة المدروسة:

أ- الأســوار: تتفق العديد من المصادر[٤٠] التي تعرض لفاس الجديد حول ازدواجية السور الذي يحيط بها والذي لا شك أنه يلبي رغبة أكيدة لدى مشيدي المدينة في تحصينها الجيد ضمانا لمنعتها ضد كل عدوان خارجي. لقد قارن العمري بين حصانة و أسوار كل من فاس القديمة و فاس الجديدة وخلص إلى: "... وتزيد فاس الجديد على فاس العتيقة في الحصانة والمنعة. والعتيقة بسور واحد من الحجارة،

٢٢. المسند الصحيح الحسن. ص ١١٦ .
٢٣- تاريخ العمارة الإسلامية - ج IV. ص ٢٣٦.
٢٤- ورقات عن حضارة المرينيين . ص ٤٩.
٢٥- مسالك الأبصار.ص ١١٥.
٢٦- م ن. ص ص ١١٤-١١٥.
٢٧- م ن. ص ١١٥.
٢٨- فاس قبل الحماية- ج I. ص ١٠١.
٢٩- م ن. ص ١٠٢.
٣٠- وصف إفريقيا- ج I .ص ص ٢٨٢ – ٢٨٣ . إفريقيا . ج II. ص ص ١٥٥-١٥٦. فاس قبل الحماية . ج I. ص ١٠٣.
٣١ .روضة النسرين . ص ٢٠ .
٣٢- مسالك الأبصار. ص ١٠٩.
٣٣- روض القرطاس. ص ٤٠٧.
٣٤- ورقات عن حضارة المرينيين . ص ٧٥.
٣٥- روضة النسرين . ص ٢٠ .
٣٦- نفسه.
٣٧. جنى زهرة الآس . ص ٣٤ .
٣٨. روضة النسرين . ص ٢٠ .
٣٩- فاس قبل الحماية- ج I. ص ١٠٣.
٤٠- انظر: مسالك الأبصار. ص ١١٦ – صبح الأعشى . ج V . ص ١٥٥ .وصف إفريقيا -ج I . ص ٢٨١ .إفريقيا- ج II . ص ١٥٥.

والجديدة بسورين من الطين المفرغ بالقالب من التراب والرمل والكلس المضروب ، وهو أشد من الحجر ولا تعمل فيه المجانيق ولا تؤثر فيه"[٤١] ، وينقل عنه القلقشندي نفس الأوصاف[٤٢] .

ويعزو صاحب "الذخيرة السنية" تأسيس أسوار فاس الجديدة إلى مؤسس المدينة أبو يوسف يعقوب[٤٣] ، لكن الأستاذ المنوني يرى أن هذا التشييد إنما يخص السور الداخلي ، بينما "السور الثاني (الخارجي) فيبدو أن كله أو معظمه من تأسيس ملوك آخرين جاءوا بعده"[٤٤] .

ويذهب الأستاذ محمد مزين إلى أن "السور الداخلي من بناء يوسف مؤسس المدينة أما السور الثاني فيبدو كله أو معظمه من تأسيس ملوك آخرين مرينيين جاؤوا بعده فقد ورد في بعض نسخ القرطاس أن أبا سعيد المريني الأول أدار الستارة على مدينته الجديدة التي سيذكر بعد أن أسسها بجوار البلد الجديد"[٤٥]. كما أن السلطان احمد بن أبي سالم بني سياجا على البلد الجديد قصد حصار جيش الأمير عبد الرحمن المريني[٤٦] ، مما يفيد أن بناء السور الخارجي كان من إنجاز ملوك آخرين بعد مؤسس المدينة.

ويحاول الأستاذ مزين تتبع بقايا هذه الأسوار حاليا[٤٧] فيرصدها على الشكل التالي: "وتشاهد بقايا السور الداخلي ميسرة المخترق لممر بوطويل ابتداء من جهة باب الجياف ، وتنقطع هذه البقايا عند نهاية سوق فاس الجديد وعلى مقربة من البويبة النازلة للبستان العمومي "جنان السبيل" ثم يظهر نفس السور في واجهة باب معمل "دار السلاح الحين" لينعطف خلف القصر الملكي ويحيط به خارج المدينة في شبه قوس إلى أن يختفي وراء الأسوار الحسنية بمشوار بو الخصيصات ثم يظهر بعد هذا حتى يتصل بباب السمارين.

أما السور الثاني للمدينة فيظهر منه الجانب الذي يقع قرب ساحة التجارة ، ويمر وراء الملاح إلى باب الجياف ثم يحيط بالبلد الجديد مطلا على شارع علال الفاسي ، وينعطف حتى يشرف على البستان العمومي ، إلى أن يتصل بباب السبع "باب المكينة" ، ويلاحظ أن هيأة السور تبدو عند نهاية شارع علال الفاسي في شكل مخروط ، وقد يدل هذا على أن هذا القسم من البلد أضيفت له زيادات مرينية ناشئة عن تكاثف في هذه الناحية"[٤٨] .

ونظرا لأهمية هذه الأسوار فقد كانت أول ما بني في المدينة قبل مسجدها الجامع والأسواق وبقية المرافق.

ب- الأبـواب: كانت للأبواب خلال هذه الحقبة وظائف عسكرية واضحة فهي تضم أهم أبراج المراقبة و تعد أحد أهم نقط الحراسة فيها. و لم تعرض معظم المصادر التقليدية لأبواب فاس الجديد ، عدا ابن الأحمر الذي ذكر منها ثلاثة ، هي: باب القنطرة الذي تحول اسمه إلى باب الوادي ، و القريب من باب السبع ،وباب عيون صنهاجة في الطرف الأخير للسوق[٤٩] ، و اكتفى مارمول بذكر ثلاثة أبواب دون تسميتها[٥٠] .

لقد ذكر العلامة المنوني بأن أبواب فاس الجديد أربعة ، هي: باب عيون صنهاجة الذي عرف فيما بعد إلى الوقت الحالي بباب السمارين ، وباب القنطرة الذي أصبح بدوره يسمى باب الوادي ، و لايعرف موقعه[٥١] لأنه اندثر ، في السور الأول ، ثم باب الجياف ، أو بتسمية البعض: باب الجياد ، شرق باب السمارين ، وباب السبع ، وهو باب المكينة حاليا ، في السور الثاني[٥٢] .

ويؤيده في الرأي الأستاذ مزين حينما ذهب إلى أن: "... باب عيون صنهاجة حسب تسمية "روضة النسرين": باب السمارين الحالي ... ثم باب الوادي حسب تسميته في عصر مؤلف "روضة النسرين" بعدما كان يسمى باب القنطرة أوائل الفترة المرينية ... والبابان يوجدان بالسور الأول ، أما في السور الثاني فهناك باب الجياف وباب السبع أما باب الجياف الذي يسميه البعض "باب الجياد" وهو الواقع شرق باب السمارين ... ثم باب السبع المعروف حاليا بباب المكينة ، وكان هو مدخل فاس الجديد من جهة باب المدينة القديمة ..." [٥٣]. وكل هذه الأبواب مرينية البناء[٥٤] .

ومن خلال قراءة مواقع هذه الأبواب وعددها في كل سور يتبين لنا مدى الحاجة الشديدة التي كانت لدى الملوك المرينيين لتأمين المدينة وتحصينها ، كما استعملت أبراج باب السبع كسجن للدولة المرينية[٥٥] .

ج - معسكرات الجيوش: تتألف من قصباب الجنود واصطبلات خيولهم. يذكر الوزان أن أبا يوسف يعقوب غداة تأسيسه للمدينة وتحديده لمرافقها عمل على تخصيص قسم ضم اصطبلات كبيرة للخيول وبنى "بجوار الباب الغربي عند السور الثاني رواقا كبيرا جدا وحجرات صغيرة عديدة تكون مقرا دائما لحارس المدينة مع جنوده ومستخدميه"[٥٦] . في حين يذكر ابن الخطيب في معرض حديثه عن فاس الجديد المرينية ثلاث معسكرات للجنود هي "مقاعد الحرس" و"سقائف الترس والنصل" و "أهداف الناشئة أولي الخصل"[٥٧] .

ويعتقد الأستاذ المنوني أن إشارة الحسن الوزان تقصد "قصبة الخميس المعروفة بقصبة شراكة فيما بعد ، فإن بقايا جزء كبير من سورها تعكس خصائص لا تختلف عن هيئة السور المحيط بالقصر المريني بما في ذلك الشرفات وأبراج التقوية ، مما يؤكد كون القصبة المذكورة مرينية البناء ، كما أن النقش الذي يتوج باب القسم الشرقي المتخذ مركزا لمستشفى ابن الخطيب اليوم يتسم بالطابع المريني ويبدو أنه كان يمثل المدخل الرئيسي للقصبة المرينية"[٥٨] .

٤١- مسالك الأبصار. ص ١١٦.
٤٢ .صبح الأعشى . ج V . ص ١٥٥.
٤٣- الذخيرة السنية. ص ١٦٢.
٤٤ .ورقات عن حضارة المرينيين . ص ٤٥.
٤٥- فاس وباديتها. ج I . ص ٢٧١.
٤٦- تاريخ العمارة الإسلامية -ج IV. ص ١٠٥.
٤٧ .انظر أيضا: ورقات عن حضارة المرينيين . ص ص ٤٤. ٤٥ .
٤٨- فاس وباديتها. ج I . ص ص ٢٧٠-٢٧١.

٤٩ .روضة النسرين . ص ٢٠ .
٥٠- إفريقيا . ج II . ص ١٥٨.
٥١ . يذكر في مكان آخر أن موضع هذا الباب كان "عند مدخل السوق الحالي لفاس الجديد أوقريبا منه." .ورقات عن حضارة المرينيين . ص ٤٤ .
٥٢ .ورقات عن حضارة المرينيين . ص ٤٦ .
٥٣- فاس وباديتها . ج I . ص ٢٧٢.
٥٤- ورقات عن حضارة المرينيين . ص ٤٦ .تاريخ العمارة الإسلامية . ج IV . ص ١٠٦.
٥٥ .فاس في عصر بني مرين . ص ٧٨.
٥٦- وصف إفريقيا - ج I. ص ٢٨٢.
٥٧- معيار الاختيار. ص ١٧٦.
٥٨- تاريخ العمارة الإسلامية - ج IV. ص ١٠٩.

أما المعسكر الثاني المسمى بسقائق الترس والنصل فهو يهم "فرقة من الجيش تختص بذلك السلاح يحتل ثكنة جهة حي مولاي عبد الله من فاس الجديد، ويحتمل أن تضم تلك الثكنة أكثر من تلك الاختصاصات ... وقد أشار الحسن الوزان إلى أن يعقوب المنصور مؤسس الدولة المرينية قد شيد ضمن تلك المعسكرات اصطبلات كثيرة لخيله وعددا كثيرا من القصور لضباطه وحاشيته.

و يذهب الأستاذ المنوني إلى أن موضع تلك الإصطبلات كان بموضع نهاية حي مولاي عبد الله بفاس الجديد حيث لازالت سكة غير نافذة هناك تعرف إلى اليوم بدرب العودات قرب جامع مولاي عبد الله الأمر الذي يؤيده وجود باب هناك يعرف بباب العودة"[٥٩].

أما المعسكر الثالث المعروف بأهداف الناشئة أولي الخصل، فهناك من ربطها بـ "فرقة الغز الذين اتخذوا خصلة الشعر بأعلى أعلامهم ... كعلامة مميزة لهم بجيش المرينيين قد خلفوا اسمهم على ساحة التدريبات العسكرية وميدان التدريب الحربي"[٦٠].

ويتحدث مارمول عن إنشاء المرينيين كذلك لنفق تحت أرضي يربط قصبة فاس البالي بفاس الجديد[٦١]، وهذا الإجراء يكتسي بدون شك أبعادا أمنية، كما تم تحويل الماء من وادي فاس ليشكل خندقا يحيط بتحصينات المدينة[٦٢].

وبشكل عام فإن المصادر لا تسعف للتفصيل أكثر في هذا النوع من المنشآت رغم أن دور المدينة كان عسكريا بالدرجة الأولى. وتتلخص حصانة المدينة في مظهرها المعماري العام "فالشيء الذي يسترعي النظر هو خاصيته العسكرية (فاس الجديد) المتمثلة في وجود عدد قليل من الأبواب المحروسة بقوة إذا ما اعتبرنا باب السمارين القديم القائم في الطرف الجنوبي للطريق الكبرى، وفي السور المزدوج الذي يفصل بينه درب واسع للعسس حيث يستطيع عدد كثير من الجند أن يتمركزوا فيه في حمى من القذائف، الواقع على جزء كبير من الحافة وبخاصة جهة المدينة. هذه الأسوار ذات الشرفات التي كانت تضاف إليها من مسافة لأخرى أبراج متينة مربعة ذات شرفات كذلك، كانت لها قيمة عسكرية كبرى، نظرا لوسائل الهجوم في ذلك العهد، ولم تخل أيضا من جمال فيه شيء من السداجة والضخامة ..."[٦٣].

٣- مؤسسات دينية: المساجد:

تعد المساجد أهم المنشآت الدينية بفاس الجديد، وإذا أخذنا بعين الاعتبار بعض ملحقات المدينة المستحدثة على مشارفها، يمكن أيضا تعداد الزاوية المتوكلية المستحدثة سنة ٧٥٤ هـ[٦٤] من قبل أبي عنان[٦٥]. وبالنظر إلى مساحة فاس الجديد ومحدودية سكانها، فإن عدد المساجد فيها كان معدودا على رؤوس الأصابع، وجاء بناؤها تدريجيا، وقد توزعت على الشكل الآتي:

أ- الجامع الكبير: ورد في "روض القرطاس"[٦٦] و "الذخيرة السنية"[٦٧] أن تأسيس هذا المسجد كان سنة ٦٧٧ هـ. بينما لا تفصح المصادر الأخرى عن تاريخ التأسيس بالضبط مما دفع الباحثين إلى الاختلاف بشأن هذا التاريخ. ففي الوقت الذي ذهب فيه لوطورنو إلى أن تأسيس المسجد كان في نفس السنة التي تم فيها تأسيس المدينة أي سنة ٦٧٤ هـ[٦٨]، وهي نفس السنة التي يقرها ما سلوف[٦٩]، يذهب جورج مارسي إلى أن هذا التأسيس كان سنة ٦٧٥ هـ[٧٠]، غير أن المصادر والدراسات تتفق على أن مؤسس هذا الجامع هو يعقوب المنصور.

ويمدنا صاحب "الذخيرة السنية" بتفاصيل مهمة حول مراحل تأسيس هذا المسجد والمشرفين على ذلك ومصادر التمويل وصناعة تجهيزاته من محراب وثريا...[٧١]، ويقع هذا الجامع على مقربة من القصر الملكي. أما التفصيل المعماري لهذه المعلمة فنستقيه من عثمان عثمان إسماعيل الذي يرى أن تخطيط هذا المسجد يحقق "انتظاما ملحوظا وتناسقا هندسيا ويشغل مستطيلا مساحته ٥٤×٣٤ متر وبيت الصلاة فيه يزيد عمقا عن الاتساع على خلاف ما ذكر جورج مارسي، ويشتمل على سبع بلاطات أوسطها وهو بلاط المحراب أكثر سعة ومن سبعة أساكيب يتميز من بينها أسكوب القبلة بسعته وعقوده الموازية لحائط المحراب حيث تستند إليها عقود البلاطات التي تتجه عمودية نحو جدار القبلة. ويكاد يزيد اتساع الصحن عن العمق وتحيط به ثلاث مجنبات من الشمال والشرق والغرب، وعقود المجنبة الشمالية موازية للقبلة بينما عقود المجنبتين الشرقية والغربية عمودية."[٧٢].

وتتميز عقود بيت الصلاة بأنها "متجاوزة كاملة الاستدارة من أعلى ... وترتكز على دعائم مستطيلة المقطع ... وقد وضعت قبة عند بداية بلاط المحراب من جهة القبلة وأخرى عند نهايته من جهة الصحن، وهما قبتان ذاتا عقود متداخلة متقاطعة..."[٧٣] أما الصومعة المربعة فإنها تقع " بالركن الشمالي الغربي للتخطيط العام وتتحقق إضاءتها الداخلية عن طريق أربعة نوافذ مرتبة رأسيا على محور الواجهة الشمالية"[٧٤].

ب- مسجد الحمراء: تم تأسيسه في وقت لاحق بعد الجامع الكبير، ولا تذكر المصادر سنة تأسيسه، ويرجح لوطورنو أن يعود إلى السنوات الأخيرة من القرن الثالث عشر أو مطلع القرن الرابع عشر الميلادي[٧٥]، في حين يرجح جورج مارسي تأسيسه في عهد السلطان أبي الحسن[٧٦]. وبناءا على إشارة ابن بطوطة[٧٧] إلى إنشاء السلطان أبي عنان لمسجد جديد بالمدينة البيضاء، ذهب الأستاذ عبد الهادي

٥٩- تاريخ العمارة الإسلامية - ج IV. ص ١١٠.
٦٠- نفسه.
٦١- إفريقيا - ج II. ص ١٥٧.
٦٢. فاس في عصر بني مرين. ص ص ٣٣. ٣٤.
٦٣- فاس قبل الحماية. ج I. ص ١٠٣.
٦٤. أزهار الرياض. ج III. ص ١٩٧ .
٦٥. م ن. ص ١٩٦. حول أوصاف هذه الزاوية و مميزاتها المعمارية المتفردة، انظر: فيض العباب. ص ص ٢٠٦. ٢١٠ و تحفة النظار. ج IV. ص ص ٢٠٢. ٢٠٣.

٦٦- روض القرطاس. ص ٤٠٥.
٦٧- الذخيرة السنية. ص ١٦٢.
٦٨- فاس قبل الحماية. ج I. ص ٩٨.
٦٩- تاريخ العمارة الإسلامية. ج IV. ص ١٢٤.
٧٠. نفسه.
٧١- الذخيرة السنية - ص ١٦٢.
٧٢. تاريخ العمارة الإسلامية. ج IV. ص ١٢٤.
٧٣. م ن. ص ص ١٢٤- ١٢٥.
٧٤- م ن. ص ١٢٥.
٧٥- فاس قبل الحماية - ج I. ص ٩٩. فاس في عصر بني مرين. ص ٤٦.
٧٦- تاريخ العمارة الإسلامية – ج IV. ص ١٤٥.
٧٧. تحفة النظار. ج IV. ص ٢٠٢.

التازي[٧٨] إلى أن المقصود بهذا التشييد هو مسجد الحمراء ، ولا يستبعد الأستاذ المنوني نفس الحكم[٧٩]. ويقع هذا المسجد بجانب المحجة الكبرى لفاس الجديد ، وتتلخص أوصافه المعمارية في أن بيت الصلاة فيه يشتمل على "بلاط محوري فسيح وبلاطين آخرين شرقا وغربا مع امتداد البلاط الأخير في كل من الجانبين ليسير بطول الصحن إلى واجهة المسجد الشمالية...

إن أسكوب المحراب الفسيح عن بقية الأساكيب تتوسطه قبة خشبية أمام المحراب تقطع عقوده الموازية للقبلة امتداد عقود البلاطات التي تتجه عمودية نحو القبلة وتكون التغطية في أسكوب القبلة شرقا وغربا من قبة المحراب بواسطة أسقف خشبية قائمة على أربعة انحدارات حيث تتضافر جوائز البرشلة مكونة عناصر نجمية."[٨٠].

كما أن "عقد فتحة المحراب متجاوز منكسر... ويرتكز من كل جانب على عمود أسطواني ذي تاج وقاعدة من الرخام. ويحيط بالعقد الأساسي لفتحة المحراب عقد آخر مفصص ، وتفصل بين العقدين المذكورين صنج مزخرفة بالتناوب بزخارف هندسية وزهرية. ويحيط بمجموع العقدين إطار رئيسي يحصر بنيقات ذات زخارف نباتية من أوراق النخيل المزدوجة ... ويحيط بذلك كله إطار آخر من زخارف كتابية فوق خلفية زهرية."[٨١].

أما الصحن فيتميز بتخطيط مستطيل "... أبعاده ١٣.٧٠ طولا × ١١.٣٠ عرضا ويطل عليه من كل جانب ثلاثة عقود متجاوزة كاملة الاستدارة... مع تميز القوس الأوسط لبيت الصلاة المطل على الصحن بعقد مزدوج."[٨٢]. وتنفتح أبواب المسجد على الواجهتين الشرقية والغربية ، و يقع الباب الرئيسي منها بالواجهة الشمالية على نفس محور المحراب ، وكلها " أبواب بارزة على مستوى جدران المسجد وعقودها من أنوع المتجاوز المنكسر ... داخل إطار مستطيل فوق سقيفة ... يغطيها الزليج الأخضر مرفوعة على كوابيل .... من الخشب المنحوت المدهون."[٨٣].

أما صومعة المسجد فتقع "في الزاوية الشمالية الغربية للتخطيط ... وطول ضلع قاعدتها المربع ٤.٥٠ متر ، وارتفاعها ١٩.٢٠م بسمك سبعين سنتيمترا من البناء الآجر"[٨٤]. وقد استعملت في المسجد مواد بناء متنوعة ، حيث "أنشئ مجموع البناء بالآجر وكسى داخله وخارجه بالملاط المكون من الجير والرمل."[٨٥].

ج- مسجد الزهر: يرجع تأسيسه إلى عهد السلطان أبي عنان سنة ٧٥٩ هـ[٨٦] ، و هو جامع الحجر قديما[٨٧] ، ويقع في الطرف الجنوبي الشرقي لفاس الجديد في مقابلة أسوار القصر السلطاني. وعلى الرغم من صغر مساحته فإنه يعتبر "من أجمل منشآت المرينيين بفاس ، بل بل أن مدخله الذي نقشت زينته الفنية وزخارفه الهندسية من الحجر ليعتبر مثالا فريدا بين مآثر فاس على الإطلاق"[٨٨].

ومن حيث التفصيل المعماري لهذا المسجد ، فإن مدخله الرئيسي يقع "بالواجهة الشمالية (الرئيسية) على محور الصحن والمحراب وعقده ومنكسر يحيط به عقدان من نفس النوع. وقد شغلت المساحة بين العقد الأساسي والعقدين المحيطين به بعناصر زخرفية ذات ثلاثة فصوص مع وجود شريط خارجي من الزخرفة الكتابية فوق أرضية زهرية (نباتية) وقد تفرغت في البنيقات زخارف نخيلية. وقد توج المدخل بظلة أو سقيفة ... من المقرنصات المحفورة في الحجر لحماية روائع المدخل من الشمس والمطر حيث نرى صفا من الكوابيل محمولة على مجموعة من الأعمدة المزدوجة بينهما خمسة أقواس ثلاثية الفصوص تشكل حشوات فنية من الزخرفة الهندسية يتوسطها نقش التأسيس باسم السلطان أبي عنان."[٨٩].

أما التخطيط العام للمسجد فإنه "يكاد يكون مربع الشكل ، ومنذ البداية يتصل المدخل الرئيسي بصحن مربع المساحة طول ضلعه ٦.٦٠ مترا تحيط به مجنبة واحدة من رواق واحد شرقا وغربا. ويعيد بيت الصلاة بتخطيطه ذكريات مساجد الإسلام المبكرة حيث يقتصر على أسكوبين اثنين عقودهما موازية للقبلة وثلاث بلاطات فقط ... وفتحة المحراب تتكون من عقد متجاوز منكسر على أعمدة رخامية أسطوانية بدون قواعد ويحيط به إطار يضم زخارف من البالمت المزدوجة في البنيقات ، ويحيط بذلك إطار خارجي آخر من الزخارف الكتابية الكوفية تظهر بأركانه العليا زهيرات هندسية الشكل."[٩٠].

وتقع الصومعة في الجدار الشمالي الشرقي في مقابل أسكوب المحراب "... وهي مربعة التخطيط كالعادة ويبلغ طول ضلع مربعها ٣.٥٠ مترا وارتفاعها ١٦.٨٥ مترا ، ويدور سلمها حول نواة داخلية مربعة طول ضلعها مترا واحدا تقريبا. وعزري الصومعة يكاد يكون مربعا هو الآخر ١.٦٩ × ١.٦٢ بارتفاع ٤.٢٥ مترا وتزدان أوجه الصومعة الخارجية بشبكات المعينات فوق خلفية من الآجر. ويحيط بتلك العناصر الزخرفية بكل واجهة إطار من الخزف كحزام كامل يدور بها"[٩١].

د- مسجد الغريبة: يذكر لوطورنو أنه تأسس سنة ٨١٠ هـ[٩٢]. ولا يستبعد الأستاذ المنوني أن يكون هو جامع الرياض سابقا[٩٣] ، و أن إنشاءه كان في مطلع القرن التاسع الهجري في عهد السلطان المريني أبي سعيد الثاني ، كما يذكر ، بناءا على دراسة ألفرد بل ، أن جامع الغريبة كان يسمى في البداية مسجد السوق الكبير ، وأنه من تأسيس القائد عبد الله الطريفي حاجب السلطان المذكور[٩٤].

هـ- جامع العباسيين: يعده الأستاذ المنوني من بين مساجد فاس الجديد ، وكان موجودا قبل بناء المسجد السابق حيث ورد ذكره بنص

٧٨. م ن . هامش رقم ١٢٣. ص ٢٠٢.
٧٩. ورقات عن حضارة المرينيين . ص ٥٤.
٨٠. تاريخ العمارة الإسلامية - ج IV . ص ص ١٤٥.
٨١. م ن . ص ص ١٤٥. ١٤٦.
٨٢. م ن . ص ١٤٦.
٨٣. نفسه.
٨٤- نفسه.
٨٥. م ن . ص ١٤٥.
٨٦- ورقات عن حضارة المرينيين . ص ٥٢. تاريخ العمارة الإسلامية - ج IV . ص ١٥٨. فاس قبل الحماية. ج I . ص ٩٩.
٨٧. ورقات عن حضارة المرينيين . ص ٥٢.

٨٨- تاريخ العمارة الإسلامية -ج IV . ص ١٥٨.
٨٩. نفسه.
٩٠. نفسه.
٩١- تاريخ العمارة الإسلامية - ج IV . ص ١٥٩.
٩٢- ورقات عن حضارة المرينيين . ص ٥٣. فاس قبل الحماية - ج I . ص ٩٩.
٩٣. ورقات عن حضارة المرينيين . ص ٥٢.
٩٤- ورقات عن حضارة المرينيين . ص ص ٥٢. ٥٣.

وقفية جامع الغريبة تحت اسم مسجد الصفصاف بينما يجهل مؤسسه [٩٥].

يمكن أيضا إضافة جامع الجنائز الملحق بالمسجد الكبير والذي دفن فيه أبو عنان وخطيب المسجد محمد أبو سعد على التوالي سنوات ٧٥٩ هو ٧٦٠ ه [٩٦]، وجامع البيضاء الذي لا يعرف مؤسسه [٩٧].

عموما فإن جملة المساجد التي وجدت بفاس الجديد طيلة العهد المريني تبقى محدودة، كما أنها متواضعة الحجم من حيث المساحة وطول الصوامع وضخامتها، وهي خاصية عامة ميزت المساجد المرينية بالمقارنة مع نظيرتها الموحدية. وعلى العكس من ذلك، اهتم المرينيون بالبلاط المنطلق من المحراب إلى باب الصحن بإيداعه روائع فنونهم وزخارفهم ونقوش كتابية أو تصويرية على جبس قبتي المحراب والصحن أو الأعمدة أو نوعية الثريات المعلقة، كما اهتموا بالأسكوب الأول المنطلق من يمين المحراب إلى شماله، وبذلك استطاعوا أن يتركوا بصماتهم واضحة داخل المنشآت التي أقاموها، ومنها المساجد التي ما تزال إلى اليوم شاهدة على المدى الذي بلغه الفن المعماري المغربي في هذا العهد سواء على مستوى التخطيط والهندسة أو الزخارف والنقوش.

٤- مرافق اقتصادية

يبدو أن فاس الجديد لم تكن لها نفس الأهمية الاقتصادية التي اكتسبتها فاس العتيقة على مر العصور كمركز اقتصادي كبير. فتركز وتعدد و قدم مختلف الصنائع والحرف و انعقاد أهم الصفقات التجارية بها، جعل المرافق الاقتصادية بفاس الجديد تقتصر على ما يلبي حاجة سكانها القلائل بالقياس مع فاس القديمة، أو بعض المنشآت ذات الأهمية الخاصة مثل دار السكة. ويمكن تناول هذه المرافق كما يلي:

أ- دار السكة: وهي مركز ضرب العملة، وقد أسسها يعقوب المنصور قرب القصر الملكي بعدما نقل مكانها من قصبة النوار بفاس القديمة إلى عاصمته فاس الجديد. وهي "على هيئة مكان مربع محاط ببعض الحجرات الصغيرة حيث يسكن عمال دار السكة، وفي وسط هذه البناية يقع ناظر الدار مع العدول والكتاب وبالقرب من هذه الدار توجد دكاكين الصياغين مع الأمين الذي تعرض عليه المصنوعات ويضع طابعه على المقبول منها" [٩٨].

ب- الأسـواق: يتفق كل من ابن الأحمر وصاحب "الذخيرة السنية" على أن أبا يوسف يعقوب لما فرغ من بناء سور المدينة أمر ببناء بقية المرافق الضرورية ومنها الأسواق التي شغلت ما بين باب القنطرة إلى باب عيون صنهاجة [٩٩]، ويذكر الحسن الوزان أنها كانت تضم مختلف أصناف التجار والصناع [١٠٠].

ج- الفنادق: لا تسعفنا المصادر في توطين هذا النوع من المؤسسات داخل فاس الجديد، لكن مارمول يشير إلى أن المدينة كانت تحتوي على " فندق كبير (دار الصناعة) كان من عادة الأسرى المسيحيين أن يصنعوا فيه أدوات الحديد وأشياء أخرى تحت إمرة إسلاميين من غرناطة والأندلس وغيرهما، كانوا يصنعون الأسلحة والذخيرة [١٠١]". ولا يستبعد وجود هذا الفندق وغيره منذ الحقبة لأن الفنادق كانت رديفة الأسواق، فحيثما توطنت هذه حطت الأخرى الرحال بجانبها، وشدت إليها الرواحل من كل صوب.

د- المخـازن: شحت المصادر بذكرها هي الأخرى، ونستقي بعض الإشارات المحدودة التي لا تكفي لتأليف صورة كاملة حول هذه المرافق، إلا أنها تثير الانتباه إلى وجودها في العهد المريني. يذكر صاحب "سلوة الأنفاس" أن مخازن الدولة المرينية كانت "توجد في القسم الذي كانت فيه أيضا دار السكة من فاس الجديد" [١٠٢]، ويذكر روجي لوطورنو في سياق تعداده لبعض الآثار الدالة على العهد المريني "بناية كانت تقوم مقام مخزن للحبوب ثم أصبحت سجنا باسم حبس الزبالة.." [١٠٣].

ويمكن إضافة مرافق أخرى مثل الطواحين [١٠٤]، وغيرها، لكنها بدون شك كانت قليلة مما دفع المصادر إلى الإحجام عنها، مقابل حديثها المفصل بالأرقام عن نظيرتها بفاس القديمة [١٠٥].

٥- مؤسسات مدنية

تعددت المنشآت العامة بفاس الجديد ومن بين ما اشتملت عليه:

أ-مدرسة دار المخزن: ينسب ابن مرزوق تأسيسها للأبي سعيد المريني١٠٦، ويصفها هي و مدرسة القرويين بأن "لا مثيل لهما في الإحسان و تأنق الصنائع". وجاء في "روض القرطاس" أن هذا السلطان أمر ببناء تلك المدرسة بفاس الجديد سنة ٧٢٠ ه [١٠٧]، وهي المدرسة المرينية الوحيدة بالمدينة.

وأشار ابن أبي زرع إلى العناية التي حظيت بها هذه المدرسة من قبل السلطان أبي سعيد: "ورتب فيها الطلبة لقراءة القرآن والفقهاء لتدريس العلم وأجرا عليهم المرتبات والمؤونة في كل شهر، وحبس عليها الرباع والمجاشر" [١٠٨]. وتنتمي هذه المدرسة حسب الدكتور عثمان عثمان إسماعيل إلى المجموعة الأولى من المدارس المرينية التي انطلقت مع بداية الدولة المرينية وكانت تتميز ببساطة تخطيطها وخلوها من التعقيد.



نموذج للفن المعماري المريني بفاس القديم: المدرسة البوعنانية

٩٥- م ن. ص ٥٣.
٩٦- م ن. ص ١٨١.
٩٧. ورقات عن حضارة المرينيين. ص ٥٤.
٩٨- الذخيرة السنية. ص ١٦٢.
٩٩- نفسه. روضة النسرين. ص ٢٠.
١٠٠- وصف إفريقيا - ج I. ص ٢٨٢.

١٠١- إفريقيا - ج II. ص ١٥٧.
١٠٢- فاس وباديتها - ج I. ص ٢٩٢.
١٠٣- فاس قبل الحماية. ج I. ص ١٠٤.
١٠٤- إفريقيا - ج II. ص ١٥٩.
١٠٥- انظر: جنى زهرة الآس للجزنائي. ص٤٤ - روض القرطاس. ص ص ٤٨. ٤٩.
- وصف إفريقيا. ج I. ص ص ٢٣٣. ٢٣٧ - إفريقيا - ج II. ص ص ١٤٨. ١٥٥.
١٠٦. المسند الصحيح الحسن. ص ص ١٢٢ و ٤٠٥.
١٠٧- روض القرطاس. ص ص ٤١١-٤١٢.
١٠٨- نفسه.

ويطلعنا نفس الباحث على صفتها المعمارية بدقة ، بقوله: "... تخطيط هذه المدرسة عبارة عن صحن مستطيل على جانبيه بيوت الطلبة من طابق واحد بواسطة صهريج ... ويتصل من ناحية القبلة ببيت الصلاة. ويشتمل بيت الصلاة في هذه المدرسة على أسكوبين. أما أسكوب المحراب فيبلغ طوله ١٤.٥٠ مترا (وهذه المسافة تمثل طول جدار القبلة). أما الأسكوب الثاني وهو المطل على صحن المدرسة فلا يزيد طوله عن ١١ متر فقط بنقص ثلاثة أمتار ونصف على طول أسكوب المحراب ، فإذا نظرنا إلى التخطيط العام للمدرسة من أعلى أو من الخارج وجدنا أنه عند اتصال بيت الصلاة بالصحن يعود مرة أخرى إلى الاتساع بل وإلى نفس اتساع أسكوب المحراب حيث يسير الحائط الشرقي والحائط الغربي للمدرسة ابتداء من بداية الصحن (من ناحية بيت الصلاة) على امتداد الحائط الشرقي والحائط الغربي لأسكوب المحراب تماما ، ويستمر هذا الاتساع إلى الحائط الشمالي الغربي للمدرسة. أما من الداخل فإن الأسكوب الشمالي ببيت الصلاة والمنقوص في طوله يفتح على صحن يمثل اتساعه فقط ، بحيث تكون واجهة بيوت الطلبة المطلة على الصحن من الشرق والغرب تسير تقريبا على امتداد الحائط الغربي للأسكوب الأول من جهة الصحن ، وبهذا يكون عمق كل بيوت الطلبة يشغل المسافة المحصورة بين الحائط الخارجي للمدرسة وبين واجهة بيوت الطلبة المطلة على الصحن ، ويساوي أيضا المسافة التي قطعت من كل جانب من الجوانب الشرقية والغربية للأسكوب الشمالي ويساوي أيضا الزيادة التي زادها أسكوب المحراب عن الأسكوب المقصوص في كل جانب من جوانبه الشرقية والغربية..."[١٠٩].

مدرسة العطارين

ب- مؤسسات أخرى: بالإضافة إلى ما سبق تؤكد جل المصادر دون تفصيل أن المدينة توفرت على عدة مرافق أخرى من بينها الحمامات ، خاصة الحمام الكبير[١١٠] الموصوف بالعظمة[١١١]. كما توجد بعض المنشآت العمرانية الأخرى الملحقة بفاس الجديد ، و منها صنف من العمارة الجنائزية المسمى قبيبات بني مرين التي أصبحت مدفنا للسلاطين المرينيين منذ أن دفن بها السلطان أبو سالم سنة ٧٦٢ هـ، وما تزال بعض آثارها بارزة إلى اليوم[١١٢]. و عرفت فاس الجديد ببساتينها و رياضاتها ومنها حديقة المصارة وعرصة للامينة وروض الغزلان[١١٣]، بالإضافة إلى ملاعب الرياضة والفرجة ومجالس الحكم والاستشارة[١١٤]، كمجلس أهل الشورى بالمشور ومجلس العرض ببرج الذهب[١١٥]، ثم نواعير المدينة الخمس التي أضافها أبوعنان إلى الدولاب الكبير الذي طارت شهرته في الآفاق ونظمت حوله الأشعار[١١٦]. هذا فضلا عن قنوات توزيع المياه[١١٧]، و السقايات وغيرها من أصناف العمارة.

٦- الدور والبيـوت

يصف العمري أبنيته عامة الناس بفاس الجديد ويشير إلى تميزها على بناء فاس البالي بأن غالبها يتخذ بالقالب ".... وسقوفها بالأخشاب وربما قرنصت بعض السقوف بالقصدير والأصباغ الملونة ، وتفرش بالرخام دياراتهم وبالزليج وهو نوع من الآجر كالقاشاني بأنواع الألوان .... وغالبه الأزرق الكحلي ومنهم من يتخذ منه وزرات لحيطان الدور ، وأما دور هؤلاء فتفرش بآجر يسمى المزهري ، ولأهل فاس ولع ببناء القباب ، فلا تخلو دار كبيرة في الغالب من قبتين أو أزيد وصدرة تفسير أبنية دورهم: مجالس متقابلة على عمد من حجر وآجر ورفاف مطلة على صحن الدار ، وقدامها طفافير يجري إليها الماء ثم يخرج إلى بركة في وسط الصحن وتسمى البركة عندهم صهريجا. وغالب أعيانهم يعلمون لهم حمامات في بيوتهم ... ولهم تأنق في البناء ، وهم لا تقصير بهم عن الغاية فيه"[١١٨].

يضيف الدكتور عثمان عثمان إسماعيل أن "فكرة التخطيط الأساسية في الطوابق السفلى للمساكن المرينية .... صحن فسيح يتوسطه صهريج تنحدر إليه الأمواه وتحيط بالصحن بوائك ترتكز عقودها على سوار (أعمدة) من الحجر أو الآجر ، وكثيرا ما تكون أعمدة من الرخام الرقيق منحوتة تيجانها ، وخلف (البوائك) سقيفة في كل جانب تغطيها أسقف منحدرة تعلوها قوالب القرمود الأخضر ، وتحتل جانبي البناء الطويلين قبتان متناظرتان فسيحتان ، وتقع على الجانبين الضيقين قبتان أخرتان أصغر مساحة ..."[١١٩].

ولم يتسنى انتشار الدور بفاس الجديد إلا بعد إذن السلطة المرينية ، وشمل الأعيان ورجال الدولة ومن يواليهم من الأشياع ، ومن تم فإن هذه الدور انقسمت حسب الانتماء الاجتماعي كما توسعت لاحقا إلى أرباض تحيط بالمدينة.

١٠٩- تاريخ العمارة الإسلامية - ج IV .ص ص ٢٢٠ — ٢٢١.
١١٠ .روضة النسرين. ص ٢٠.
١١١- الذخيرة السنية. ص ١٦٢.

١١٢-- تاريخ العمارة الإسلامية - ج IV . من ص ١٨١ إلى ص ١٨٧.
١١٣- م ن. ص ٢٤٨ .ورقات عن حضارة المرينيين . ص ص ٥٨.٥٧ و ٦٢ .
١١٤- معيار الاختيار. ص ١٧٦.
١١٥- تاريخ العمارة الإسلامية - ج IV . ص ٢٤٣.
١١٦- معيار الاختيار. ص ١٧٦ — إفريقيا . ج II . ص ١٦٠.فيض العباب. ص ص ١٧٥ . ١٨٠ و ٢١١ . ٢١٣ - فاس وباديتها - ج I . ص ٢٦٢.
١١٧- إفريقيا - ج II . ص ١٥٩.
١١٨- مسالك الأبصار. ص ص ١١٧-١١٨.
١١٩- تاريخ العمارة الإسلامية- ج IV . ص ٢٤٤.

استنتـــاجـــات

بعد هذا العرض السريع لأهم المعالم العمرانية التي أثثت فضاء فاس الجديد في عصر بني مرين، يمكن أن نسجل حولها مجموعة من الملاحظات:

- إن الفن المعماري المغربي في عهد بني مرين بلغ أوجه من خلال تطور أشكال الزخرفة سواء على الخشب أو الجبس أو الرخام أو غيره من مواد البناء كما أن طبيعة منشآتهم ودقة تخطيطاتهم تتم عن تطور كبير في فن الهندسة المعمارية خلال هذه الفترة وكان لفاس الجديد نصيب مهم من هذه الفنون.
- إن الفن المعماري المريني بشكل عام تميز عن غيره بطابع تجلى في التركيز على خاصية الرونق والدقة و كثافة الزخرفة الشاملة لكل المساحات و المواد عوض الضخامة التي ميزت العمارة الموحدية مثلا، وتكمن أهمية هذا التحول في كونه شكل ذروة الإبداع في الفن المعماري بالمغرب الذي ما زال يتميز به لحد الآن.
- لا يمكن تجاهل دور الخبرة الأندلسية في مجال العمارة المرينية. وتأثيرها كان حاضرا بقوة سواء في شخص المسلمين الوافدين على فاس أو في شخص الأسرى المسيحيين. وتؤكد لنا المصادر دور هؤلاء في العديد من الأعمال، يذكر صاحب "الذخيرة السنية" أن بناء المسجد الكبير ثم بأيدي الأسرى الروم المستقدمين من الأندلس[١٢٠]، بينما تم صنع الدولاب الكبير المشهور على يد المهندس الإشبيلي محمد بن علي بن عبد الله بن محمد بن الحاج[١٢١].
- إن بناء فاس الجديد لم يأت، كما في حالة العديد من المدن، استجابة لضرورة اقتصادية أو ديمغرافية وإنما كان بدافع سياسي وأمني يجيب عن حاجة الدولة الجديدة إلى مشروعية عملية، ويؤمن الحكام الجدد من أي عدوان محتمل، ومن تم كانت وظيفة المدينة إدارية وعسكرية بالدرجة الأولى.
- أن فاس الجديد، رغم الاهتمام والعناية الرسميين اللذين حظيت بهما، لم تستطع تجاوز فاس البالي ولا التأثير على دوره التاريخي الذي استمر كمركز ديمغرافي هائل ومحور اقتصادي لا غنى عنه يستأثر بأهم الأنشطة الاقتصادية، وبذلك أضحت فاس الجديد بطبيعتها السلطانية والعسكرية، مدينة نخبوية من خلال محدودية مرافقها العامة مقابل تعدد القصور والمعسكرات.
- عمد المرينيون في سياستهم العمرانية، إلى تفادي أسباب النزاع مع ساكنة فاس البالي، فاستغنوا عن أخذ المياه من وداي فاس رغم قربه من المدينة وجلبوا إليها الماء من عين عمير بسهل سايس المجاور[١٢٢].
- إن إضافة فاس الجديد إلى حاضرة المدينة الأصلية جعل من فاس مركبا حضريا وبشريا ضخما تألف من عدة مدن، وجعل فاس تعزز مكانتها في أداء دور بالغ الأهمية في حقبة طويلة من تاريخ المغرب سواء كعاصمة سياسية أو مركز اقتصادي وعلمي أو تجمع بشري وعمراني لا تزال تحتفظ بجزء كبير منه إلى يومنا هذا.

١٢٠- الذخيرة السنية. ص ١٦٢.
١٢١- فاس وباديتها- ج I. ص ٢٦٢.
١٢٢- روضة النسرين. ص ٢٠.



بقايا إحدى الناعورات المرينية بفاس الجديد

بيبليـوغرافيـا

١- ابن أبي زرع، علي الفاسي "الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس" دار المنصور للطباعة والوراقة – الرباط- ١٩٧٢.

٢- ابن أبي زرع، علي الفاسي "الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية" دار المنصور للطباعة والوراقة – الرباط- ١٩٧٢.

٣. ابن الأحمر، أبو الوليد إسماعيل "النفحة النسرينية واللمحة المرينية" منشور إلكتروني بموقع الوراق: www.alwaraq.com

٤. ابن الأحمر، أبو الوليد إسماعيل "روضة النسرين في دولة بني مرين" المطبعة الملكية. الرباط. ١٩٦٢.

٥. ابن بطوطة، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي "تحفة النظار في غرائب الأمصار و عجائب الأسفار" تحقيق عبد الهادي التازي. مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية. سلسلة التراث. ١٩٩٧ (الجزء الرابع).

٦. ابن الحاج، النميري "فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة و الزاب" دار الغرب الإسلامي- بيروت. الطبعة الأولى ١٩٩٠.

٧. ابن الخطيب، لسان الدين السلماني "كتاب معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار" تحقيق محمد كمال شبانة - مطبعة فضالة – المحمدية- بدون تاريخ.

٨. ابن الخطيب، لسان الدين السلماني "الإحاطة بأخبار غرناطة" تحقيق محمد عبد الله عنان – الشركة المصرية للطباعة و النشر – القاهرة- الطبعة الأولى ١٩٧٧ (الجزء الرابع).

٩. ابن الخطيب ، لسان الدين السلماني "اللمحة البدرية في الدولة النصرية" المطبعة السلفية . القاهرة ١٣٤٧ هـ .

١٠. ابن خلدون ، عبد الرحمان "ديوان المبتدأ و الخبر في تاريخ العرب و البربر و من عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر" ضبط خليل شحادة . مراجعة سهيل زكار . دار الفكر . بيروت ٢٠٠٠ .

١١- ابن فضل الله ، أحمد بن يحي العمري "مسالك الأبصار في ممالك الأمصار" من الباب ٨ إلى الباب ١٤- تحقيق وتعليق مصطفى أبو ضيف أحمد – طبعة ١٩٨٨ .

١٢. ابن مرزوق ، محمد التلمساني "المسند الصحيح الحسن في مآثر و محاسن مولانا أبي الحسن" تحقيق ماريا خيسوس بيغيرا . الشركة الوطنية للنشر و التوزيع . الجزائر . ١٩٨١ .

١٣. الجزنائي ، علي "جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس" تحقيق عبد الوهاب بن منصور . المطبعة الملكية . الرباط . الطبعة الثانية ١٩٩١ .

١٤- عثمان عثمان إسماعيل "تاريخ العمارة الإسلامية والفنون التطبيقية بالمغرب الأقصى" الجزء الرابع: عصر الدولة المرينية و دولة بني وطاس . مطبعة المعارف الجديدة – الرباط . الطبعة الأولى ١٩٩٣ .

١٥ . القلقشندي ، أبو العباس أحمد "صبح الأعشى في صناعة الإنشا" المطبعة الأميرية . القاهرة . ١٩١٥ (الجزء الخامس).

١٦. طوريس ، دييغو دي "تاريخ الشرفاء" ترجمة: محمد حجي و محمد الأخضر . مطابع سلا ١٩٨٨ .

١٧. الكتاني ، محمد بن جعفر بن إدريس "سلوة الأنفاس و محادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء و الصلحاء بفاس" تحقيق محمد بن حمزة بن علي الكتاني . الموسوعة الكتانية لتاريخ فاس . رقم: ٤ . ٢٠٠٥ (الجزء الثالث).

١٨- كربخال ، مارمول "إفريقيا" ترجمة عن الفرنسية: محمد حجي – محمد زنيبر- محمد الأخضر- أحمد توفيق – أحمد بنجلون – مطبعة المعارف الجديدة . الرباط – ١٩٨٨- ١٩٨٩(الجزء الثاني).

١٩. لوطورنو ، روجي "فاس الجديد في عصر بني مرين" ترجمة إلى العربية: نيقولا زياده – مكتبة لبنان- بيروت ١٩٦٧ .

٢٠- لوطورنو ، روجي "فاس قبل الحماية" ترجمة إلى العربية: محمد حجي – محمد الأخضر – دار الغرب الإسلامي- بيروت . ١٩٨٦(الجزء الأول).

٢١- مزين ، محمد "فاس وباديتها – مساهمة في تاريخ المغرب السعدي ١٥٤٩ م – ١٦٣٧م" منشورات كلية الآداب و العلوم الإنسانية – مطبعة المعارف الجديدة . الرباط- الطبعة الأولى ١٩٨٦(الجزء الأول).

٢٢. المقري ، شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني "أزهار الرياض في أخبار عياض" الجزء الثالث . تحقيق مصطفى السقا و إبراهيم الأبياري و عبد الحفيظ الشلبي . مطبعة لجنة التأليف و الترجمة و النشر . القاهرة ١٩٤٢ .

٢٣. المنوني ، محمد "ورقات عن حضارة المرينيين" منشورات كلية الآداب و العلوم الإنسانية بالرباط . سلسلة بحوث و دراسات رقم: ٢٠ . مطبعة النجاح الجديدة . الدارالبيضاء . الطبعة الثالثة . ٢٠٠٠ .

٢٤- الوزان ، الحسن بن محمد الفاسي "وصف إفريقيا" ترجمة عن الفرنسية: محمد حجي ومحمد الأخضر - دار الغرب الإسلامي – بيروت – الطبعة الثانية ١٩٨٣ .

مملكة ماري السورية (١)

الخلفية الحضارية والتاريخية لنشوء مدينة ماري

2900 ق. م – 1760 ق. م





د.بشار محمد خليف
باحث في تاريخ العالم العربي
دمشق — الجمهورية العربية السورية
Khleif200@hotmail.com

لعل الخوض في تاريخ مملكة ماري الواقعة على الفرات الأوسط ، والتي امتدت فاعليتها التاريخية والحضارية لما يزيد على الألف عام من حوالي2900 . 1760 ق.م تدفعنا إلى البحث في العوامل والمعايير التي أدت إلى اعتبار الألف الرابع قبل الميلاد ولاسيما النصف الثاني من الألف الرابع قبل الميلاد/ مفصلاً رئيسياً في حركة تطور الاجتماع البشري في المشرق العربي آنذاك.⊗

ولم يكن هذا التطور ليحصل إلا عبر استناده على مجمل ما قدّمته حركة التطور التاريخي والحضاري في مدن المشرق العربي ومواقعه منذ نقطة انعطافه الرئيسة والتي تكمن في ابتكار الزراعة في الألف التاسع قبل الميلاد ، وكذلك تدجين الحيوان.فمع هذا المنجز الحضاري المتميز أصبحنا أمام معادلات ومعايير وقيّم حضارية جديدة ، أدت فيما أدته إلى الشروع بتوالد للمنجزات الحضارية الأساسية والفاعلة في سياق التطور الاجتماعي والإنساني ليس على نطاق المشرق العربي فقط ، بقدر ما كانت القاعدة الرئيسة المادية والروحية لانطلاق الحضارة الإنسانية بعامة.

وبذا نستطيع أن نفهم مقولة الكاتب الفرنسي جاك كوفان JACQUES CAUVIN من أن "المعنى التقليدي لنشوء الزراعة ، يرتكز في معياره الحاسم على إنتاج المعيشة ، وأنه بهذا الانتاج إنما بدأ في الواقع صعود المقدرة البشرية التي ليست حداثتنا سوى ثمرة لها"[١] الجدير ذكره هنا ، هو أن ابتكار الزراعة في مساق الحضارة البشرية ، تمَّ لأول مرة في المشرق العربي وتحديداً في المنطقة الممتدة من الفرات الأوسط مروراً بحوضة دمشق وحتى وادي الأردن.⊗

ولتبيان أهمية هذا المنجز على صعيد الحياة الإنسانية ، لابد أن نحدد الآفاق التي فتحها هذا الابتكار بما انعكس إيجاباً على مسار الاجتماع البشري بعامة والمشرقي بخاصة.

فأولاً: إن الاستقرار الذي أمّنته الحياة الزراعية أدى إلى إحساس المجتمعات القديمة بالطمأنينة والأريحية ما أدى إلى زيادة أعداد المجموعات البشرية واتساع مواقعها وتشكيلها لمستوطنات زراعية أخذت بالتوسع والكبر باطراد مع الزمن مؤدية إلى منجز نشوء المدن الأولى وذلك في الألف الرابع قبل الميلاد في المشرق العربي القديم.

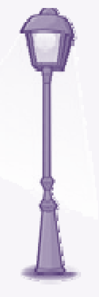
ثانياً: إن ما وفرته الحياة الزراعية من منتج ومردود ، دفع إلى نشوء التبادل التجاري النشط وتطور عالم التجارة ، ما انعكس على المجتمعات الزراعية آنذاك وتبدّى في غناها وتعبيرها عن الازدهار

⊗ المشرق العربي ، اصطلاح جغرافي يعني المنطقة التي تضم بلاد الرافدين وبلاد الشام ، والتي أكدت الكشوف والأبحاث الأثرية فيها على وجود وحدة حضارية وتاريخية واحدة تزامنت في خط حضاري واحد عبر الأزمنة ما قبل التاريخية ومن ثم التاريخية وهذا ما يعبّر عنه بوحدة الحياة في دورة روحية .اقتصادية .اجتماعية واحـدة. وتُعـرّف هـذه المنطقـة أيضـاً بمـا يسـمى " الهـلال الخصـيب " LE CROISSANT FERTILE.

⊗ للاطلاع على المزيد في مجال ابتكار الزراعة يمكن الرجوع لمؤلفات عديدة منها: المزارعون الأوائل للدكتور سلطان محيسن عن دار الأبجدية ، وكتاب الباحث جاك كوفان:

"NAISSANCE DES DIVINITE'S NAISSANCE DE L'AGRICULTURE " CNRS EDITIONS 1997

ترجمة الأستاذ موسى ديب الخوري وصدر عن وزارة الثقافة السورية تحت عنوان: الالوهية والزراعة .ثورة الرموز في العصر النيوليتي- 1999. وكذلك كتاب الباحث كوفان: " القرى الأولى في بلاد الشام " عن دار الحصاد .1995 .ترجمة الياس مرقص.



الاستشهاد المرجعي بالمقال:
بشار محمد خليف ، مملكة ماري السورية: الخلفية الحضارية والتاريخية لنشوء مدينة ماري.- دورية كان التاريخية.- العدد السابع ؛ مارس ٢٠١٠. ص ٢٩ — ٣٣ .

(www.historicalkan.co.nr)

الاقتصادي والتجاري بما سيؤدي إلى تطور في مجمل الحياة المادية والروحية. بالإضافة إلى ما قدّمه هذا المنجز من نشوء بوادر الادخار والتخزين وعالمهما الرحب.

ثالثاً: نتيجة دفع العامل الزراعي للتبادل التجاري فقد أدى ذلك إلى استنباط وسائل أولية للعدّ تُسهل من عملية التبادل التجاري والسلعي وهذا ما اعتبرته الأبحاث العلمية نواة ظهور علم العدّ والحساب ومن ثم سوف تتوالى المظاهر الحسابية بتطور واضح وصولاً إلى ظهور بوادر الكتابات والتي أخذت تتضح تباعاً عبر الكتابات التصويرية إلى المقطعية مع نهاية الألف الرابع قبل الميلاد.

رابعاً: أدى منجز ابتكار الزراعة إلى تطور تقنيات الصناعات الفخارية والحرفية بما ساهم في تطور الفنون في مناحيها الفردية والمجتمعية والاقتصادية. ولعل تراكم الخبرات التقنية عبر العصور هو الذي أدى إلى الدخول في عالم استثمار المعادن بدءاً من النحاس فالبرونز ثم الحديد مروراً بالقصدير والفضة والذهب.

خامساً: إن نشوء الزراعات المروية جعل المجتمعات تسعى إلى تنظيم وسائل الري ومقتضياتها وذلك عبر إنشاء السدود والسواقي والأقنية المائية منها والملاحية ما اقتضى تبعاً لذلك من نشوء حاجة اجتماعية لوجود سلطة مجتمعية تنظم أعمال هذا المرفق في الموقع نفسه وتالياً في العلاقة مع المتحدات الأخرى وهذا ما بلوّر في النهاية ظهور السلطة إن كان في وجهها المعبدي/المعتقدي أولاً، أو في وجهها الزمني / السياسي، بعد انفصال سلطة المعبد عن السلطة الزمنية في دول المدن ولاسيما في عصر الفاعلية الأكادية في النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد.

يقول الباحث بوهارد برينتس:

" إن التطور الذي أدى إلى الثورة العمرانية ونشوء المدن الأولى لم يكن ليحصل إلا نتيجة لظهور الزراعة وتطورها وتقسيم العمل، في الحرفة والزراعة وظهور التجارة. وإن النمو الكبير لمردود العمل / حيث أنه في الزراعة، ازداد الانتاج خمسة أضعاف عما كان عليه في مرحلة الصيد/ أدى إلى زيادة سريعة في عدد السكان ما أدى إلى ظهور المدن الكبرى وبروز أشكال جديدة في حياة المجتمع ".(٢)

وعلى كل هذا صار بإمكاننا النظر إلى منجز الزراعة كمنجز توالدي، فهو أدى إلى ظهور التجارة والتبادل التجاري، كذلك ساهم في نشوء علم العدّ والحساب، ثم علم الكتابة وكذلك دفع بقوة باتجاه ظهور السلطة للمجتمع كضرورة حتمية للتطور المدني ومن ثم نشوء المدن الأولى.



بالإضافة إلى خلقه لمعايير وقيم ورموز جديدة في كافة أوجه النشاط للاجتماع البشري ناهيك عن توطيده لعلاقة المجتمع بالأرض وعلاقات المجتمعات بين بعضها البعض ما خلق رائزاً مهماً للتفاعل الإنساني والانفتاح بين المجتمعات الإنسانية.⊗

ولا بأس هنا من محاولة لرصد أوجه الحياة في المشرق العربي القديم في الفترة الممتدة من منتصف الألف التاسع قبل الميلاد وحتى منتصف الألف الرابع كي نستطيع تحديد المعايير والقواعد والأرضية الأساسية التي ساهمت في نشوء المدن الأولى في فجر التاريخ في المشرق العربي ومن ثم في نشوء مدينة ماري في مطلع الألف الثالث قبل الميلاد.

المشرق العربي بين ظهور الزراعة 8300 ق.م وحتى نشوء المدن الأولى حوالي 3500 ق.م

مع حلول الألف الثامن قبل الميلاد، نلاحظ أن الزراعة شملت معظم مواقع المجتمع المشرقي العربي. بالإضافة إلى تزامن هذا مع تدجين الحيوانات.

وتشير الدراسات والأبحاث إلى أن النمط المعماري للمساكن أخذ بُعداً جديداً عبر التصاق المساكن ببعضها البعض ما يعطي انطباعاً بمعالم الاستقرار الدائم من جهة، ومن جهة أخرى الالتحام الاجتماعي والألفة بين سكان تلك المجتمعات وهذا سوف يؤدي بدوره إلى رسوخ التقاليد المجتمعية الزراعية حيث أن عالم الحياة الزراعية خلق إيقاعاً مجتمعياً يتماهى إلى حد كبير مع إيقاع البيئة الطبيعية والوسط الحيوي وهذا ما انعكس في الذهنية المجتمعية المشرقية وفي ظهور الأساطير والأدبيات الشفاهية ذات الأساس الخصبي والتي تمتلك بُعداً اعتقادياً يُعنى بعلاقة المجتمع مع رمز الخصب والذي يتبدى في إله المطر والخصب / دموزي. أدد. البعل/.. وكما هو معلوم، فإن الحياة الزراعية تحتم التآلف والتعاون الاجتماعي وهذا ما سوف يؤدي إلى التفاهم الاجتماعي من أجل تطوير عوالم الري عبر استخدام وسائل للري الصناعي إن كان عن طريق الأقنية أو السواقي أو السدود وهنا نكون أمام ظهور للزراعات المرّوية كالكتان مثلاً وهذا يؤرخ في حوالي 6500ق.م.

وفي هذه الفترة أيضاً سوف نلاحظ أننا أمام منجز معماري صحي تجلّى في إنشاء أقنية للتصريف داخل المنازل. وقد أبان موقع بقرص في سورية والذي يرقى إلى حدود 6500. 6000 ق.م عن نشوء أول قرية منتظمة بشكل مبكر حيث أنشئت وفق مخطط معماري مسبق. وبالاتجاه نحو الفترة الممتدة بين 6000. 3500 قبل الميلاد، فإن موقع الكوم في البادية الشامية قدّم دليلاً على ممارسة الزراعة المروية عبر جرّ المياه من الينابيع أو الأنهار كالفرات مثلاً.(٣)

أيضاً سوف نلاحظ في موقع سامراء في الجناح الرافدي والذي يعود إلى 5300 ق.م ظهور ابتكار جديد في مجال العمارة بما يعكس المناخ المستقر الذي أمنّه عالم الحياة الزراعية، حيث أبان هذا الموقع على أن سكانه ابتكروا قوالب خشبية/ وذلك للمرة الأولى في التاريخ

⊗ لعل هذا يتبدى جلياً حين البحث في حركة انتشار الزراعة من المشرق العربي القديم إلى العالم آنذاك إن كان نحو الأناضول أو مواقع عالم المتوسط أو مصر. للاستزادة يمكن الرجوع إلى كتابنا " دراسات في حضارة المشرق العربي القديم" الدراسة الأولى. دار الإنماء الحضاري 2003.

الإنساني/ لتكييف اللبن في تشييد جدران المنازل. وتنبغي الإشارة في هذا المجال إلى أن مواقع المشرق العربي استخدمت المعادن ولاسيما النحاس منذ الألف الخامس قبل الميلاد.

ومع حلول منتصف الألف الخامس نجد مواقع الجنوب الرافدي وتبعاً لإشراطات البيئة الطميية والمستنقعية تعمد إلى تكييف الوسط الطبيعي بما يلائم احتياجاتها فقد عمد سكان تلك المواقع إلى مكافحة ملوحة التربة، وتجفيف المستنقعات، ومارسوا الزراعة المروية بإتقان. ولعل استخدامهم المبكر لتقنيات الري الصناعي حتمت نشوء سلطة مجتمعية وبنى اجتماعية ادارية متطورة وهو ما مهّد إلى تأسيس أولي للقاعدة المادية الاجتماعية لنشوء المدن الأولى في النصف الثاني من الألف الرابع قبل الميلاد.

" فالفترة الممتدة بين نهاية الألف الرابع قبل الميلاد وبداية الألف الثالث، تلعب دوراً خاصاً في التاريخ البشرية، ففي هذه المرحلة قامت سلطة الدولة التي هي نتاج حركة المجتمع وتطوره ".(٤)

ومع حلول منتصف الألف الرابع قبل الميلاد، أصبحنا أمام محددات ومداميك واضحة تبدّت في نشوء المدن الأولى. فنتيجة لكل ما سبق من تراكم للخبرات الحياتية من بيئية واقتصادية واجتماعية واعتقادية وذهنية تطورت عن النظام الزراعي وعوامله ونتائجه أصبح المشرق العربي أمام مجتمعات مركبة ذات علاقات حياتية معقدة فرضت انبثاق السلطة المنظمة لحركة المجتمع وتفاعلاته سواء كانت سلطة معتقدية⊗ أو سلطة سياسية رغم أن الأولى سبقت الثانية في ظل سيادة سلطة المعبد السابقة لانفصال المعبد عن القصر.

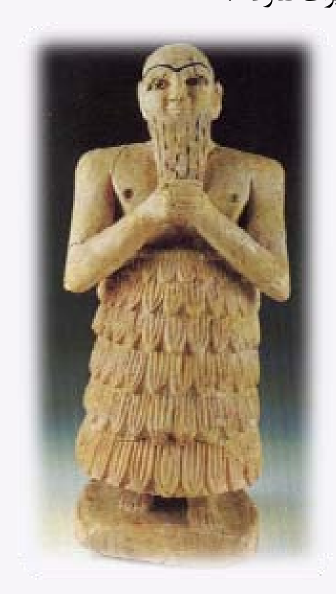
وبالإضافة إلى معالم نشوء المدن الأولى، بتنا أمام ظهور لفاعلية المؤسسات المدنية في التجارة والحِرفِ والاقتصاد والملاحة، وكل هذا يندغم وبشكل متجانس مع تضخم العمران حتى بتنا في هذه الفترة أمام مواقع لمدن شملت المشرق العربي بجناحيه. ففي الجناح الرافدي نجد مواقع مدن أوروك وأريدو وتبة. غورا، أما في الجناح الشامي فنجد تل براك بمدينته ناغار في الجزيرة الشامية العليا ومواقع مدن حبوبة الكبيرة الجنوبية وعارودة وتل قناص. وتشير الأبحاث العلمية إلى وجود تشابه في النمط المعماري لمعابد تلك المواقع، ما يعطي دلالة واضحة على وجود وحدة حضارية واكبت نشوء المدن الأولى في المشرق العربي آنذاك.

ويشير الباحث علي أبو عساف إلى أن التنقيب في تل براك / ناغار / نوار القديمة / إلى الشمال الشرقي من الحسكة، كشف عن معابد ولقى أخرى تشابه معابد ولقى أثرية اكتشفت في أوروك في جنوب الرافدين. بالإضافة إلى أن التقنيات الأثرية في كل من جبل عارودة وحبوبة كبيرة الجنوبية وتل قناص التي تقع جميعها على ضفة الفرات اليمنى إلى الشمال من مسكنة، كشفت تلك التنقيبات عن معابد من طراز معابد أوروك وبيوت سكنية في جبل عارودة وتل قناص. وفي هذه المعابد والبيوت والمدينة، عثر المنقبون على أوانٍ فخارية وطبعات أختام أسطوانية، وأوتاد ملونة زخرفية طينية مماثلة لما عثر عليه في أوروك ولكنها ذات طابع محلي. كما كشف التنقيب في موقع الشيخ حسن عن آثار من تلك الفترة تتمتع بمواصفات محلية "(٥)

ويتابع الباحث: " لقد شهدت البلاد إبان عصر فجر التاريخ عهداً مستقراً ممتازاً نشطت فيه الحركة التجارية بين مختلف هذه الوحدات الإدارية وغيرها، في سبيل الإبقاء على طرق التجارة مفتوحة. فالجنوب الرافدي الذي كان يتوفر فيه فائض من غلال الحبوب والثروة الحيوانية، رغب بتصديرها ومقايضتها مع المناطق المجاورة، وكان بحاجة إلى الأخشاب والمعادن حيث يستوردها من مناطق أخرى فسهّلت منطقة ناغارا/تل براك، هذه العملية وساهمت في حسن تنظيم الحركة التجارية مع آسية الصغرى وإيران وبلاد الشام ".

ويشير الباحث أيضاً إلى أن هذه المواقع الشامية كانت مدناً مزدهرة شدّت من أواصر التعاون القوي بين مختلف مناطق بلاد الرافدين والشام حتى بدا لنا ذلك التعاون اليوم وكأنه شامل يرقى إلى مستوى الاتحاد بين تلك الكيانات السياسية. وتظهر آثار ذلك في بناء المعابد على طراز واحد وتحصين المدن وإنتاج أواني فخارية متماثلة، واستعمال الأختام الاسطوانية ذات النقوش المعبّرة عن أفكار متقاربة واتباع أسلوب واحد في تسجيل الحسابات.

والجدير ذكره هنا، هو أن مدينة حبوبة كبيرة الجنوبية أُنشئت وفق مخطط مسبق ودقيق وقد أُحيطت بسور طويل / 600 متر / وعرضه ثلاثة أمتار. ولعل النمط المعماري المتبدي في المخطط المسبق للإنشاء والسور الواقي للمدينة، سنجده مكرراً في نشوء مدينة ماري مع مطلع الألف الثالث وكذلك في تل الخويرة وإبلا وغيرها من مدن المشرق العربي القديم. أما لجهة الواقع الديمغرافي في هذه الفترة فقد أشارت الأبحاث إلى وجود ديمغرافي سومري وأكادي وتلحظ المعطيات تواجداً أكادياً إلى جانب السومريين. " ففي الموروث المدون لبلاد الرافدين والشام، نقرأ أسماء ملوك سومريين وأكاديين في الجنوب الرافدي، عاشوا جنباً إلى جنب متسالمين حيناً ومتخاصمين حيناً آخر منذ الألف الثالث قبل الميلاد... علماً أن السومريين والأكاديين كانوا في المشرق العربي منذ الألف الخامس قبل الميلاد حسب أكثر التقديرات تفاؤلاً ".⊗



⊗ نميل لاستخدام تعبير المعتقدية أو الاعتقادية لتفريقه عن التعبير المستخدم في الأدبيات التاريخية والذي يُطلق على الحياة الميثولوجية والليتورجية تسمية "الدينية ". ونعتقد أن هذا الأمر يواكب معطيات العلم الحديث ولا سيما علم تطور الإنسان ولا سيما في شقه الدماغي. فالمعتقد القديم هو تعبير عن التطور الذي وصل إليه الدماغ الإنساني في تفسير المعطى الماورائي. انظر كتابنا" دراسات في حضارة المشرق العربي القديم " الدراسة الأولى.

⊗ انظر علي أبو عساف. وثائق الآثار السورية. وزارة الثقافة. المديرية العامة للآثار والمتاحف. سورية 2002 انتشار الحضارة في حوض الفرات توافق مع مجرى النهر ص 33.

وقد أشار بوهارد برينتس إلى أن " السومريين حين جاؤوا إلى الرافدين أكملوا ما بدأه العبيديون / 4500 . 3500 / ق.م وقد دلل على ذلك بأن الكتابة السومرية احتوت على كلمات كثيرة مقتبسة ممن قبلهم. بالإضافة إلى أن الكثير من أسماء الآلهة السومرية مأخوذة من لغات الشعوب التي سكنت الرافدين قبل السومريين.

ويشير الباحث أيضاً إلى أن المدن السومرية كانت تقريباً تحمل أسماء غير سومرية وتعود في أصولها إلى الحضارات التي سبقتهم /العبيديون /.[٦] ومع الاتجاه نحو نهاية الألف الرابع قبل الميلاد ، فإن منجزاً جديداً / تمخض عن عالم الزراعة وامتداداته / سوف ينبثق ، عنيتُ بذلك منجز الكتابة التي خرجت من معطف الحساب والعدّ في العمليات التجارية. وأضحت مدن المشرق العربي تمتلك مصالح اقتصادية وتجارية حتمت نشوء سلطة القصر الزمنية التي أخذت تنظم الفعاليات الحياتية المتنوعة وفق ما يلائم تطور المجتمع وتشابك علاقاته ، بالإضافة إلى تشابك المصالح بين المدن آنذاك.

وسوف نجد في هذه الفترة نشوء مدن مسوّرة في المشرق العربي منها: كيش . تل فارا . أبو صلابيخ في الرافدين ، بالإضافة إلى المدن العائدة للفترة السالفة. وفي بلاد الشام نجد تل العشارة . تل ليلان . تل براك. أما في الأردن فسنجد باب الضهرة وفي فلسطين ، مجيدو . خربة الكرك . تل الفرح. وفي لبنان ، جبيل.

والجدير ذكره هنا أن موقع مدينة أوروك في هذه الفترة أبان عن ظهور الموزاييك في معابدها كأول ظهور له في المشرق العربي. ومع مطلع الألف الثالث قبل الميلاد ، نلاحظ أن منطقة الفرات الأوسط سوف تتجه إلى إبداء وتفعيل دورها الحضاري مستندة على الدور التاريخي لنهر الفرات وهذا ما تحقق في إنشاء مدينة ماري ، التي أقيمت وفق مخطط مسبق وداخل سور.

يقول الفرنسي جان كلود مارجرون: " لقد سمح نهر الفرات لسورية أن تشرع بعملية التمدن ، ذلك أنه يَّسر لها التطور من خلال العلاقات التجارية انطلاقاً من البلاد السومرية في الألف الرابع قبل الميلاد. وهو دائماً وأبداً وللأسباب ذاتها الذي ضَمِنَ تطور سورية الداخلية في الألف الثالث قبل الميلاد ". ⊗

البيئة الجغرافية الطبيعية لمنطقة الفرات الأوسط

تُشكل منطقة الفرات الأوسط جزءاً من الجزيرة الشامية ويمتد واديها بين دير الزور والبوكمال. وقد تمكن الإنسان من التوطن فيها رغم المعوقات الطبيعية والبيئية حيث ملوحة المياه الجوفية لهذا الوادي من جهة وقوة الفيضانات في نهر الفرات.

واستطاعت مجتمعات المشرق رغم هذا من التفاعل مع معوقات هذه البيئة بوجهتها الايجابية والسلبية حيث كشفت التنقيبات الآثارية على وجود قرى منظمة تعود إلى الألف السابع قبل الميلاد ، كما في موقع بقرص وتل السن. وتشير الأبحاث إلى العثور حتى الآن على حوالي 150 موقعاً من جميع العصور. ويبدو أن هذه المنطقة شهدت فاعليتها التاريخية مع نهاية الألف الرابع باتجاه الألف الثالث قبل الميلاد فقد شهد وادي الفرات كثافة سكانية في الجزء الجنوبي منه حول مدينة ماري التي كانت مركز المنطقة السياسي والاقتصادي.

واستطاع التقدم التقني في تجهيزات الري الزراعي من أن يجعل المجتمعات المستوطنة تتحكم بمجمل المساحات الطميية التي كانت تشكّل تجويف ماري وهذا ما سوف نناقشه في الفصل الثاني ، غير أننا نود أن نشير أن نهر الفرات قدّم لهذه المنطقة الممكنات التي أهلّتها كي تبدو " بصورة عالم مكتنز بالخيرات ، وضع فيه علم الماء القديم كل امكاناته لاستغلال جميع المساحات الزراعية المتوفرة أحسن استغلال ".⊗

وهذا ما تبدّى في النصف الثاني من الألف الرابع قبل الميلاد عبر نشوء هذه الفعاليات المتحدية في تلك المنطقة. ولعل دراسة أحوال المناخ تبرز كيف أنه ومنذ حوالي 8200 ق.م بدأ المناخ بالاستقرار والتصاعد بصورة بارزة وصولاً إلى العصور التالية وتقدم الأبحاث المناخية معطياتها عبر أنه وفي حوالي 10000 . 9500 سنة خلت ، كان مناخ الجزيرة السورية بارداً

وبين 9500 . 8500 سنة خلت عمَّ مناخ دافئ.

ومن 8500 . 8200 سنة خلت حل عصر بارد.

ثم واعتباراً من 8200 ق.م عم دفء كبير وحار ثم ومن 3000 وحتى 800 ق.م أصبحنا أمام مناخ جاف ودافئ. ويشير د. عادل عبد السلام إلى أنه ومنذ ذلك الحين مال المناخ نحو التحسن نسبياً مع تذبذبات سلبية وايجابية حتى اليوم. وبشكل عام فإن المناخ في الجزيرة الشامية الآن يعتبر قريب الشبه بما هو عليه منذ الألف الثالث قبل الميلاد مع تغييرات قصيرة الأمد.[٧] وهذا يعني فيما يعنيه أنه في فترة إنشاء مدينة ماري مع مطلع الألف الثالث قبل الميلاد كنا أمام مناخ شبيه بالمناخ الحالي وعنوانه الأساسي مناخ جاف ودافئ.

مدن المشرق العربي
مع مطلع الألف الثالث قبل الميلاد

مع حوالي مطلع الألف الثالث عمّت المدن الحديثة الإنشاء المشرق العربي إلى جانب المدن الرائدة ، فإلى جانب أوروك في الجناح الرافدي نجد مدن ، كيش - أور - لاجاش -أوما- شوروباك . وأدب. أما في الجناح الشامي فسنجد تل الخويرة وماري بالإضافة إلى مواقع لم تكتمل فاعليتها التاريخية بعد مثل إبلا وأوغاريت وغيرها ، هذا بالإضافة إلى موقع تل براك و تل العشارة.

وقد حكمت السلالات السومرية تلك المدن ما عدا مدينتي كيش وماري حيث حكمتها سلالات أكادية. ويشير البروفسور مارجرون إلى أن ماري حسب الاعتقاد القديم هي عاصمة سومرية ، لكن الأبحاث الحديثة تظهر أن ماري تمتلك صفاتاً سورية وإلى جانبها صفات سومرية.[٨]

الجدير ذكره هو أنه في هذه الفترة كانت مدن المشرق العربي تُبدّي مصالحها المدينية على ما سواها ، لهذا فإننا نجد الخلاف والحروب بين المدن وصراع المصالح هو المُتبدي في غياب أي وعي مديني اتحادي أو ما شابه. ولعل أهم خصائص حركة التاريخ والمجتمعات المدينية في هذه الفترة ، تتوضع من خلال:

⊗انظر

EXPOSITION SYRO – EUROPEÉNNE D' ARCHEÓLOGIE. 1996 JEAN CLAUDE MARGUERON.

⊗ المساهمة الفرنسية في دراسة الآثار السورية .المعهد الفرنسي للآثار الشرق الأدنى 1989 استكشاف وادي الفرات الأوسط .جييرو مونشابير .ص 61 .

أولاً: حصول تطورات مهمة في مجال العمران وتقنياته ما أدى إلى توسع المدن ، وتلبية النظام العمراني لحاجات المجتمعات المادية والروحية.

ثانياً: إذا كانت مدن الألف الرابع قد أبانت عن سيادة السلطة الاعتقادية /المعبد على المجتمع ، فإن معايير الألف الثالث سوف تتجه لانفصال السلطة تلك عن المجتمع عمرانياً ، بحيث أبانت المكتشفات الأثرية على وجود معابد مفصولة عن المحيط المديني ، في مقابل مثلاً أن مواقع مدن أوروك وحبوبة كبيرة الجنوبية وعارودة وقناص كانت تقام المعابد فيها في أحياء خاصة.

مع ملاحظة أنه في ماري في الألف الثالث ، عثر على معابد مرتبطة بالقصر الملكي وهذا ما يُسمى /قصر معبد/ وهذا يعطي دلالة على وجود استقلالية ما عن الخط الذهني العمراني الاعتقادي الذي كان سائداً. ولربما يدل على احتواء للسلطة الزمنية لسلطة المعتقد/المعبد.

ثالثاً: في مجال الحياة الفنية وتبعاً للزمن ، كان لابد أن تشهد مدن المشرق ظهور اتجاهات فنية جديدة ومبتكرة ولا سيما في أسلوب العمل أو معالجاته ومواضيعه ، وهذا ما تُقدمه الأدلة الأثرية في فن الفسيفساء وصناعة الفخار والنقش على الأختام.

رابعاً: من أهم مميزات هذه الفترة وبالاتجاه نحو الألف الثالث يمكننا أن نلاحظ معالم انفصال للسلطة المعتقدية عن السلطة الزمنية ونشوء مؤسسات مدنية تُعنى بأوجه الحياة السياسية والاقتصادية والتجارية والحرفية.

وتبعاً لهذا نفهم مقولة الباحث مارك لوبو من " أن الإشغال البشري/ في المشرق العربي / في الألف الثالث قبل الميلاد ، كان أثره ملموساً في ناحيتين أو منحنيين: الأول ، في الزراعة. والثاني ، المتولد عن الأول والذي يتجلى في التجمعات المدنية.

وإن هذين المنحنيين يتميزان في الانتشار الواسع والعميق ، بحيث بتنا أمام بنى اجتماعية واقتصادية لجماعات بشرية كانت مغلوبة ومقهورة ، والآن هي جماعات قادرة على التحكم جزئياً بالوسط البيئوي المحيط ".(٩)



المراجع

١. جاك كوفان – الألوهية والزراعة - ثورة الرموز في العصر النيوليتي- ت- موسى خوري – وزارة الثقافة ١٩٩٩- دمشق.

٢. بوهارد برينتس .نشوء الحضارات القديمة .ت .جبرائيل كباس .دار الأبجدية .دمشق ١٩٨٩

٣. سلطان محيسن . المزارعون الأوائل – دار الأبجدية – دمشق١٩٩٤.

٤. بوهارد برينتس .مرجع سابق.

٥. علي أبو عساف .انتشار الحضارة في حوض الفرات توافق مع مجرى النهر .وثائق الآثار السورية .وزارة الثقافة .سورية ٢٠٠٢.

٦. بوهارد برينتس .مرجع سابق.

٧. عادل عبد السلام . البيئة الجغرافية للجزيرة العربية واستيطانها. وثائق الآثار السورية .مرجع سابق.

٨. محاضرة للباحث الفرنسي جان كلود مارجرون في المركز الثقافي الفرنسي تحت عنوان ماري. ١٩٩١ . دمشق. ونشرت في صحيفة الحياة اللندنية بتاريخ ١٩٩١/١٢/٢٠ .

٩. الحوليات الأثرية السورية . ٤٣ . ١٩٩١ . دمشق. وزارة الثقافة السورية. مارك لوبو . طرق الاتصال في بلاد الرافدين العليا في الألف الثالث ق.م .



الدكتور بشار خليف في سطور:

كاتب وباحث سوري من مواليد دمشق عام ١٩٥٧. له كتابات في القصة القصيرة والشعر ، ودراسات أثرية وتاريخية. عضو إتحاد الكتاب العرب (دمشق) وعضو اتحاد الآثاريين العرب (دمشق). كتب في عدد وافر من الصحف والمجلات العربية المطبوعة والإلكترونية مثل: الحياة اللندنية - مجلة ديوان العرب- مجلة البناء - صباح الخير اللبنانية. صحيفة تشرين السورية - الأبجدية الجديدة- دورية كان التاريخية - الديار اللبنانية.



"التأسيس والتحولات"



د.عباس عبد الحليم عباس

الجامعة العربية المفتوحة

عمان – المملكة الأردنية الهاشمية


Abbas_176@hotmail.com



الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

عباس عبد الحليم عباس ، الظاهر المصطلحية في تاريخ النقد عند العرب: التأسيس والتحولات.-دورية كان التاريخية.- العدد السابع ؛ مارس ٢٠١٠. ص ٣٤ – ٤٠. (www.historicalkan.co.nr).

ملخص

يتناول هذا البحث بدايات التأسيس التاريخي لحركة المصطلح وتمثلاته في تراث العرب والمسلمين ، ليرصد الحراك التاريخي لمثل هذا الاهتمام ، من خلال كتب الحدود والتعريفات والرسوم التي شكلت إرهاصات لتأسيس ما يشبه علم المصطلح في الثقافة المعاصرة. وقد استند الباحث إلى المنجز المصطلحي في تاريخ البلاغة والنقد في التراث العربي ، ليصل إلى توصيف حقيقي لواقع المصطلحية وتحولاتها التاريخية في هذا الحقل المعرفي الذي شكل محل نظر وعناية من العلماء العرب المسلين في تاريخنا العربي. وهذا ما ينبغي أخذه بعين الاعتبار عند دراسة المصطلح في العصر الحديث ، إذ لا يمكن للباحثين والنقّاد تجاوز كل هذا التراث ، الذي صار جزءاً من التراث المعرفي الإنساني ، وجزءاً من تراث النقد العالمي ، وخاصة لأنّ النشاط النقدي العربي ، عبر عصور التاريخ ، انفتح انفتاحا واضحا على النشاط النقدي الغربي بتياراته ومناهجه المختلفة ، بل اصطبغ بصبغتها منذ أوائل المحاولات النقدية الممنهجة في العصر الحديث ، كما رأينا عند طه حسين وعباس محمود العقاد ، ومحمد مندور ، وغيرهم ، وبطبيعة الحال ازدادت هذه الصبغة وضوحاً ، وازداد نطاقها اتساعاً مع تزايد وسائل التلاقي بين الشرق والغرب في التاريخ الحديث.

المصطلح في التاريخ العربي الإسلامي

"مرحلة التأسيس"

يظل الحديث عن بدايات المعرفة وتأسيساتها الأولى في أي مجال من المجالات محفوفاً بكثير من المخاطر والصعوبات ؛ ولاسيما المعرفة التي تعود نشأتها إلى مراحل زمنية ضاربة في جذور التاريخ ، بيد أن ما يهوّن الأمر على المرء في مثل هذه الدراسات ارتباطها الوثيق بما أحدثه الإسلام من أثر في حقول المعرفة المختلفة في حضارتنا العربية والإسلامية ، ويمكن القول إن بدايات الوعي المصطلحي عند العرب المسلمين ترتبط بالتحولات الحضارية التي أحدثها ظهور الإسلام في مناحي الحياة العربية جميعها ؛ وقد كانت التحولات اللغوية واحدة من أهم الآثار التي تركها نزول الوحي على محمد – صلى الله عليه وسلم – ذلك أن كثيراً من الألفاظ بدأ يأخذ معاني جديدة لم تكن معروفة من قبل ، كالصلاة ، والزكاة ، وغير ذلك ... ومع تقدم حركة التأليف في علوم اللغة والمنطق والكلام والتاريخ ، والبلاغة وعلوم الشريعة كعلوم القرآن ، والفقه ، والحديث ، وغيرها.

بدأت الحاجة إلى ثقافة المفاهيم اللغوية تظهر ، وبدا من المهم العمل على إيجاد تحديدات دقيقة لما تعنيه ألفاظ المشتغلين بتلك العلوم ، وهو ما دفع بعلماء المسلمين إلى وضع (مصطلح علوم الحديث) الذي يختص بدرجات الحديث وأنواعه ورواته وطرق إسناده ، وغيرها مما كانت حاجتهم إليه تظهر تباعاً. يقول ابن فارس (ت ٣٩٥هـ) فيما ينقله عنه السيوطي (ت ٩١١هـ) : "كانت العرب في جاهليتها على إرث من إرث آبائهم في لغاتهم وآدابهم ونسائكهم وقرابينهم ، فلما جاء الله تعالى بالإسلام حالت أحوال ، ونسخت ديانات ، وأبطلت أمور ، ونقلت من اللغة ألفاظ من مواضع إلى مواضع أخر ، بزيادات زيدت ، وشرائع شرعت ، وشرائط شرطت ، ثم يضرب مثلاً على ذلك بكلمات المؤمن والكافر والصلاة والجرد وغيرها ويقول: الوجه في هذا إذا سئل الإنسان عنه أن يقول: فيه اسمان لغوي

وشرعي، ويذكر ما كانت العرب تعرفه، ثم ما جاء الإسلام به، وكذلك سائر العلوم، كالنحو والعروض والشعر، كل ذلك له اسمان: لغوي وصناعي"[١]

ثم صار لكل جماعة تشتغل بعلم واحد ألفاظهم ومصطلحاتهم الخاصة بهم، يقول الجاحظ (ت ٢٥٥هـ): "لكل قوم ألفاظ" "ولكل صناعة ألفاظ قد حصلت لأهلها بعد امتحان سواها".[٢] وقد شرع أصحاب تلك العلوم والصناعات يحددون معاني ألفاظهم وحدودها ورسومها، ونشأت إثر ذلك حركة تأليف مصطلحي تمثلت في كتب خاصة باصطلاحات العلوم المختلفة، ومنها:

- الحدود، لجابر بن حيان (ت ٢٠٠هـ).
- مفاتيح العلوم، لمحمد بن أحمد بن يوسف الكاتب الخوارزمي (ت ٣٨٧هـ).
- رسالة الحدود، لأبي حامد الغزالي (ت ٥٠٥ هـ).
- السامي في الأسامي، لأحمد بن محمد أبي الفضل الميداني النيسابوري (٥٣١ هـ).
- الاقتراح في بيان الاصطلاح، لمحمد بن علي بن دقيق العيد (ت ٧٠٢ هـ).
- اصطلاحات الصوفية، لكمال الدين عبد الرزاق الكاشاني (ت ٧٢٠ هـ).
- التعريف بالمصطلح الشريف، لابن فضل العمري (ت٧٤٩هـ) وهي في التعريف بمصطلحات الكتابة الديوانية.
- التعريفات، للشريف علي بن محمد الجرجاني (ت ٨١٦ هـ).
- الحدود الأنيقة والتعريفات الدقيقة، لزكريا بن محمد الأنصاري (ت ٩٢٦هـ).
- الكليّات، لأبي البقاء الكفويّ (ت ١٠٩٥ هـ).
- كشاف اصطلاحات الفنون، لمحمد علي الفاروقي التهانوي (١١٠٨هـ).

ومع أن هذه الأعمال لا تجمعها منهجية محددة المعالم، إلا أنها تمثل وعياً علمياً بأهمية وجود معجمية مصطلحية، تجنبهم فوضى المصطلح، وتشكّل مرجعية موحدة في التعامل معه. فعبد الرزاق الكاشاني (ت ٧٣٠هـ) في "اصطلاحات الصوفيّة" يقول: "ولمّا كان الكلام فيه [يعني كتاب الفتوحات المكية لابن عربي] وفي شرح فصوص الحكم، وتأويلات القرآن الحكيم، مبنياً على اصطلاحات الصوفية، ولم يتعارفها أكثر أهل العلوم المنقولة والمعقولة ولم تشتهر بينهم، سألوني أن أشرحها لهم، فقسمت هذه الرسالة على قسمين ... (ثم راح يوضّح أقسام رسالته هذه)"[٣]

وبالإضافة إلى هذه الإشارة وإشارة الجاحظ السابقة، تكشف جهود آخرين عن ملامح الوعي بمواصفات الجهاز المصطلحي في تراثنا العربي، يقول ابن دقيق العيد ٧٠٢ هـ: "وينبغي في هذا كلّه أن لا يصطلح الإنسان مع نفسه اصطلاحاً لا يعرفه غيره، ويخرج به عن عادة الناس من أرباب صنعته"[٤] ففي ذا إدراك ناضج لدور المواطأة في الاصطلاح، وأن يعمّ المصطلح جماعة من الناس، يفهمون المراد به لمجرد ذكره.

ولعل ابن وهب الكاتب (ت ٢٨٥ هـ) يحدد آليات بعينها من آليات تأسيس المصطلح. في قوله: "أما (الاختراع) فهو ما اخترعت له العرب أسماءً مما لم تكن تعرفه، فمنه ما سمّوه باسم من عندهم كتسميتهم الباب في الساحة باباً، والجَريب جريباً، والعَشير عشيراً، ومنه (ما أعربته) وكان أصل اسمه أعجمياً، كالقسطاس* المأخوذ من لسان الروم، والشطرنج المأخوذ من لسان الفرس، وكل من استخرج علماً أو استذر شيئاً وأراد أن يضع له اسماً من عنده، ويواطئ عليه من يخرجه إليه، فله أن يفعل ذلك.

ومن هذا الجنس اخترع النحويون اسم الحال والزمان والمصدر والتمييز، واخترع الخليل العروض، فمن بعض ذلك الطويل، وبعضه المديد، وبعضه الهزج، وبعضه الرجز. وقد ذكر أرسطو طاليس ذلك، وذكر أنه مطلق لكل أحد احتاج إلى تسمية شيء ليعرفه به أن يسمّيه بما شاء من الأسماء. وهذا الباب مما يشترك العرب وغيرهم فيه وليس مما ينفردون به"[٥]

عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ) وضع أوضح تعبير في سياق كلامه على قضية الحدّ (المصطلح) مفرقاً بين حدّي الحقيقة والمجاز قائلاً: "فمن حق الحدّ أن يكون بحيث يجري في جميع الألفاظ الدالّة. ونظير هذا نظير أن تضع حداً للاسم والصفة، في أنّك تضعه بحيث لو اعتبرت به لغة غير لغة العرب وجدته يجري فيها جريانه في العربية؛ لأنك تحدّ من جهة لا اختصاص لها بلغة دون لغة. ألا ترى أنّ حدّك الخبر بأنه: ما احتمل الصدق والكذب مما لا يخصّ لساناً دون لسان؟. ونظائر ذلك كثيرة، وهو أحد ما غفل الناس عنه، ودخل عليهم اللبس فيه، حتى ظنّوا أنه ليس لهذا العلم قوانين عقلية، وأنّ مسائله كلها مشبهة باللغة في كونها اصطلاحاً يتوهم عليها النقل والتبديل"[٦]

وكلما حاول الباحث المضي في تتبّع ملامح الجهد المصطلحي في الحضارة العربية الإسلامية وجد إضافات أخرى يمكن أن تؤسس —مع مثيلاتها من الملاحظات والشذرات- أساساً جيداً لنظرية عربية تراثية في علم المصطلح، وخاصة لدى الفلاسفة والمتكلمين، والبلاغيين واللغويين، وعلماء الشريعة، والمشتغلين بالعلوم العقلية والنقلية بوجه عام، فها هو ذا جابر بن حيان (ت ٢٠٠هـ) يقدّم لرسالته (الحدود) بتوطئة في الحدّ يقول فيها: "واعلم أنّ الغرض بالحدّ هو الإحاطة بجوهر المحدود على الحقيقة، حتى لا يخرج منه ما هو فيه، ولا يدخل فيه ما ليس منه".[٧]

أما صاحب (الحدود والرسوم) فيلسوف العرب الكندي (ت ٢٥٠هـ) فقد أدرك أن "الإحاطة بحدود الأشياء ورسومها صعبة المسالك"[٨] وفي ذلك ما لا يخفى من دلالة على إشكالية المصطلح المتواترة حتى هذه الأيام، في ميادين المعرفة كافة، وهو ما وعاه الكندي وغيره، بدليل محاولاتهم التأسيسية لضبط عملية التعريف والتحديد من أصولها، كما فعل الشيخ الرئيس ابن سينا (ت ٤٢٨هـ) وغيره ممن سعوا لوضع حدٍّ للحد[٩]، مردفين ذلك ببيان الغرض من صياغة الحدود والمصطلحات وشروط تلك الصياغة وآلياتها، وهو ما فصّل فيه القول حجة الإسلام الغزّالي في رسالة له في الحدود.[١٠]

غير أن مصطلحات العلوم المختلفة ظلّ معظمها مبثوثاً في بطون التأليف، يتفق بعضها في فهم المصطلح الواحد، ويختلف بعضها الآخر في ذلك. فمصطلحات البلاغة والنقد —على سبيل المثال- وهي

ميدان البحث – اختلفت مفهوماتها باختلاف بيئات المؤلفين وثقافاتهم ، من لغويين ، وأدباء ، ودارسي إعجاز ، وفلاسفة ومنطقيين.

وحسبنا من هذا الاختلاف ما يفهم من مدلولات مختلفة لمصطلح (البديع) الذي صنف فيه عبدالله بن المعتز (ت ٢٩٦هـ) كتاباً مستقلاً ، وجعل هذا المصطلح متضمناً لفنون عديدة هي (الاستعارة ، والتجنيس ، والمطابقة ، وردّ أعجاز الكلام على ما تقدّمها ، والمذهب الكلامي) ، وكأني به يعني بالبديع (البلاغة) وفنونها. وهو خلاف ما استقر فيما بعد من أن البديع فرع من فروع البلاغة ، لا هيَ ، وأن الاستعارة شيء والبديع شيء آخر مختلف كل الاختلاف. ولاشك أن المتتبع لاختلاف المفاهيم في حقل المصطلح النقدي والبلاغي سيجد من الأمثلة ما يعز على الإحاطة والحصر . ولفهم طبيعة هذا الإشكال ينبغي أن يبحث من زاوية نظر مختلفة تتعلق بمنهجية صياغة المصطلح تاريخيا ، وهي منهجية بدأت وصفية وانتهت معيارية.

ومع هذا ، فإن مدونات النقد والبلاغة في تراثنا العربي أظهرت شيئاً من عناية القدماء بالمسألة الاصطلاحية. وقد أفصح أرباب هذه الصناعة عمّا بذلوه من جهد في تأسيس الجهاز المصطلحي لعلمهم ، يقول قدامة بن جعفر: "فإني لما كنت آخذاً في معنى لم يسبق إليه من يضع لمعانيه وفنونه المستنبطة أسماء تدل عليها ، احتجت أن أضع لما يظهر من ذلك أسماء اخترعتها ، وقد فصلت في ذلك ، والأسماء لا منازعة فيها ، إذ كانت علامات. فإن قنع بما وضعته من هذه الأسماء ، وإلا فليخترع كلُّ من أبى ما وضعته فيها ما أحبّ ، فإنه ليس يُنازَع في ذلك". [١١]

وهذه دعوة للاجتهاد في وضع المصطلحات ، وفتح الباب لكل من لديه الكفاية أن يضرب فيه بسهم ، وهي دعوة لها ما يسوّغها في مراحل تأسيس الجهاز المصطلحي في أي علم من العلوم ، ولعلّ استعراضاً سريعاً لتاريخ المصطلح في النقد العربي يبرز لنا الأمور التالية:

١- ظهور المصطلح النقدي ومحاولات تأثيله في مرحلة مبكرة من مراحل الحركة النقدية في تراثنا العربي ، وما عناية الخليل بن أحمد (ت ١٧٥هـ) بمصطلحات العروض وتحديدها إلا دليل على الاهتمام المبكر بالمصطلح. ومثل هذا يقال فيما يتعلق بمصطلح "الفحولة" عند الأصمعي (ت ٢١٠هـ) "والتسويم والتحجيل" عند ثعلب (ت ٢٩١هـ).

٢- لا نزال بحاجة إلى مراجعة الألفاظ والتعابير التي كان يتداولها الشعراء ورواة الشعر واللغويون والنحاة حتى نهاية القرن الثاني الهجري ؛ لأنها "هي المنبع الأول للمصطلح النقدي البلاغي" ، [١٢] الذي استمد منه النقاد العرب القدماء عملهم المصطلحي ، وطوّروا مصطلحاتهم انطلاقاً من تلك الجهود.

٣- ثمة أثر واضح لعلاقة الإنسان بالبيئة البدوية ومكوناتها في صياغة المصطلح ، فمصطلحات الخليل وثعلب وغيرهما دليل واضح على هذا الارتباط كما "كان ما أداه الخليل في مصطلح العروض دليلاً يهتدي به أوائل النقاد ؛ فقد ربط في ذلك المصطلح ربطاً وثيقاً بين الشِّعر وبيت الشَّعر (البيت ، الوتد ، السبب ، الإيطاء .. إلخ) أي كانت خلاصة موقف الخليل أن الشعر ولد في البداوة ولهذا فإنه صورة للكيان البدويّ ، ومصطلحه يمكن أن يؤخذ من ذلك الكيان ... ولهذا التفت أوائل النقاد إلى حياة البداوة في اختيار المصطلح ، فكان مصطلح "الفحولة" الذي اختاره الأصمعي (ت ٢١٠هـ) ، مستمداً من طبيعة حيوان الصحراء – وخاصة الجَمل – واستعار صاحب كتاب "قواعد الشعر" مصطلحه من الخيل .. وحسبنا أن نذكر مصطلح "عمود الشعر" الذي نلقاه لأول مرة عند الآمدي ، فإنه وثيق الصلة بالخباء" [١٣]

٤- عانى تراثنا البلاغي والنقدي من فيضان المصطلح في بعض الأزمنة ، فسادت الفوضى وتراجع النظام ، وخلّف ذلك كلّه تراجعاً في الدرس البلاغي والنقدي لصالح التضخم في تشقيق المصطلحات وتوليدها وتفريعها ، فباتت مدونات بلاغية ونقدية كاملة تقوم على تتبع لعشرات المصطلحات في نظرة قوامها التشتت والتجزيء والبعثرة ، لا النظرة الكلية الشمولية المستقصية "فأخفت كثرة المصطلحات والتسميات خيراً كثيراً" [١٤]

٥- ليست الثقافة العربية وحدها هي التي استأثرت بإمداد النقد والبلاغة العربيين بالمصطلح ، إنما كان لجسور التفاعل مع الحضارات الأخرى دور لا يستهان به في صبغ شخصية المصطلح البلاغي والنقدي بصبغة أخرى ، كما نلحظ لدى الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) ، مروراً بقدامة بن جعفر (ت ٣٢٦هـ) وحتى نصل إلى حازم القرطاجني (ت ٦٨٤هـ). ذلك "أن الصّلة بين النقد وكتاب الشعر لأرسطو قد أدخلت مصطلحاً من نوع آخر ، مثل "الأقاويل الشعرية" و "المحاكاة" و "التخييل" ، وأنّ محاولة محو الفارق بين الشعر والخطابة قد جعلت المصطلحات المتصلة بالخطابة تنتقل إلى حيّز الحديث عن الشعر أيضاً" [١٥] وهذا – بطبيعة الحال – كان عاملاً أساسياً من عوامل ثراء المصطلح وثراء الفكر النقدي من جهة ، وسبباً أساسياً في خلق مشكلات مهمة وضعت مدونة النقد العربي في أزمة مردّها سوء الفهم الناجم عن سوء الترجمة من جهة أخرى. وحسبنا مراجعة سريعة للترجمات العربية القديمة لكتاب فن الشعر لأرسطو لنقف على أوجه هذه الأزمة وتفصيلاتها.

٦- وأخيرا يمكن القول بأن نظرية النقد الأدبي اليوم تخلو من الإسهام العربي أو تكاد بسبب عدم تنظيم المنجز المصطلحي في النقد والبلاغة العربيين في تراثنا القديم ،فاستأثر الآخر بهذه النظرية ، علما بأن دراسات كثيرة ترى أن النقد والبلاغة العربيين قدّما أصولا نظرية توازي أحدث ما توصلت إليه نظرية النقد الأدبي في أحدث المدارس والاتجاهات. بل قد أدى غياب هذا الإسهام عن مسيرة النقد الأدبي الإنسانية إلى فترة طويلة من التخبط في تاريخ النقد الأدبي عامة ، والنقد الغربي خاصة ، استمرت من دانتي حتى مطلع القرن العشرين ؛ فقد عمد النقد العربي إلى بلورة حقيقتين معياريتين أصبح لهما دور أساسي في الثورة النقدية الحديثة. أولاهما: ضرورة اعتماد النقد على معايير نصية مستقاة من داخل النص نفسه. وثانيتهما: أن النص الأدبي مشيّد من الكلمات ، ولذلك فإن أي تعامل معه لا بد أن يعتمد على تحليل اللغة [١٦] وهذان أمران بني عليهما هيكل المدونة النقدية العربية القديمة ، لكن غياب التنظيم المصطلحي – كما أسلفت – كان سببا كافيا لتغييب الدور العربي في إطار هذه النظرية.

المصطلح في تاريخ النقد الحديث

"مراحل التحوّل"

ظهر لنا أن المصطلح في تاريخ العرب البلاغي والنقدي شغل حيزاً واسعاً لدى المشتغلين في هذين الحقلين ، غير أن هذه السعة كانت سلاحاً ذا حدّين ، فهي محاولة لتنظيم الدرس البلاغي والنشاط النقدي من جهة ، وهي مثار إشكالات موضوعية وفنية بالغة التعقيد من جهة أخرى. فعلى امتداد مسيرة التأليف في علوم النقد والبلاغة يُصادف الباحث ما يمكن تسميته بالمنجز المصطلحي الثري الذي يملأ بطون التآليف في ذينك المجالين ، وفي تضاعيف هذا الجهاز يلحظ المتتبع أن كل مؤلّف من المؤلفات النقدية والبلاغية يكاد يمثّل قائمة مصطلحية منفردة بذاتها ، وهي قائمة تتضمن مصطلحات متداولة في بيئتي النقد والبلاغة ، وأخرى انفرد بها صاحب هذا العمل أو ذاك ، وحسبنا ما صنعه الدكتور أحد مطلوب في"معجم المصطلحات البلاغية وتطورها" (صدرت الطبعة الأولى عن المجمع العلمي العراقي عام ١٩٨٣ ، في ثلاثة أجزاء)، والذي جمع فيه ألف مصطلح ومئة ، عبر استقراء ما يقارب ستة وثلاثين ومئة مصدر من مصادر التراث البلاغي والنقدي ، وما صنعه في "معجم النقد العربي القديم" (صدرت طبعته الأولى عن دار الشؤون الثقافية العامة — بغداد — عام ١٩٨٩ ، في جزأين)، الذي ضم أيضاً ثماني مئة وثمانية عشر مصطلحاً لنعرف حجم المنجز المصطلحي في المدونة التراثية ، وبطبيعة الحال تبقى مصطلحات آخرى خارج نطاق الاستقراء ، ومع ذا ، فإن هذه الكثرة من المصطلحات كانت بحاجة إلى إطار تنظيمي كذاك الذي أوجده (علماء الحديث) و(أصول الفقه) في التنبّه على هذه المسألة.

ولكن — على الجانب الآخر — تشير هذه الكثرة إلى حرص النقاد والبلاغيين العرب القدماء على إيضاح مفاهيمهم وتحديدها وتعريفها بوضع اصطلاحات مناسبة لقضايا فنية وموضوعية في مجالات نقدية وبلاغية مختلفة ، غير أن جهودهم تلك اطّردت على هذه الشاكلة حتى عهد متأخر من تاريخ النقد والبلاغة في تراثنا العربي ، بما في ذلك ترجمات الفلاسفة العرب والمسلمين لكتابي أرسطو طاليس "الخطابة" و"الشعر" متخذين من الوضع والاشتقاق والنقل والمجاز والترجمة والتعريب وسائل وآليات لإيجاد مزيد من المصطلحات ، وإسناد الجهاز المصطلحي بما يُحتاج إليه منها ، معتمدين على ما يوفره لهم نظام العربية الصرفي من مرونة وإمكانات.

واستمرت تلك الجهود المصطلحية في سيرورتها الزمنية ترفد الدرس البلاغي والنقدي ، إلى أن ذهب بعض الدارسين للقول بأن هذه المصطلحات "كان لها أكبر الأثر في تقدم الحركة الأدبية الحديثة. ويبدو أن الاتجاه — في السنوات الأخيرة — بدأ يميل إلى الغرب ، وصار المؤلفون والمترجمون والنقاد يغرفون من المصطلحات الأجنبية ادعاءً أو استسهالاً ، وهو ما أدى إلى طغيان المصطلحات الأجنبية فيما ينشر ويترجم ، وبدأت الأصوات ترفع شعار (إشكالية المصطلح النقدي)،[١٧] تلك التي بدت ملامحها تتشكل في المدونة المصطلحية التراثية وازدادت حدّة في تحولات المصطلح في النقد الحديث بمختلف اتجاهاته.

وهنا بدأت الأمور تتجه نحو المزيد من الإشكالات والتعقيدات على مستويي النظرية والتطبيق في مجال المصطلح النقدي ، ولن أستبق الأمور بالحديث عن هذه التعقيدات في سياقها المعجمي ، ولكن حسبي عموم الإشارة هنا إلى ما أفضت إليه جهود أصحاب تلك المعاجم من مشكلات " تنطوي على مفارقة طريفة ، إذ قصد أهل العربية إلى جعلها وافية بمتطلبات العلوم والفنون كأنما يقدّمون سرداً مشخصاً عملياً على دعوى قصور العربية ، ولكن المعجمات المتعدّدة المتنوعة التي وضعوها قد حملت إليهم وضعاً من التشعّب ، إذ أصبح الناظر في معجمات الموضوع الواحد يجد بإزاء المصطلح الأجنبي الواحد مقابلين عربيين أو أكثر ، وأصبح من المشكلات الشاغلة الناجمة عن ذلك لأهل العربية مشكلة توحيد المصطلحات. وهو عنوان غير منسجم ، إذ هي — في الغالب — ليست بالمصطلحات. ولو كانت مصطلحات لكانت متعارفة متداولة متفقاً على المراد بها ، وهي لا تعدو - في العادة — أن تكون (ألفاظاً) أو مقابلات مقترحة للمصطلحات الأجنبية ، اقترحها الواضعون على أسس شتى ... حتى ليشبه كل "مصطلح" أن يكون اختياراً قطرياً".[١٨]

فإذا كانت حدود البلاغة والنقد في التراث العربي لا تتجاوز في امتداداتها علوم اللغة والدراسات القرآنية ، الإعجاز تحديداً ، فإن النقد الأدبي الحديث راح يتقاطع مع وفرة من العلوم ، كعلم النفس والاجتماع والجمال وعلم الإنسان (الأنثروبولوجي) والأساطير ، وعلم اللسانيات وصولاً إلى السيمياء وعلوم الحياة (البيولوجي) وحتى البيئة ، دع ما يقع من تداخل الأجناس الأدبية المختلفة (شعراً ، وقصة ، ورواية ، ومسرحاً ، وغير ذلك) مع فنون عديدة كالموسيقى والنحت والفن التشكيلي والسينما ، وغيرها. الأمر الذي يفرض على المشتغلين بالنقد الأدبي والمعانين لمصطلحه الانفتاح على ضروب مختلفة من العلوم والمعارف والثقافات ، وهو انفتاح في صالح أدبنا وتراثنا ، إذ "لابد من روافد متجددة تصب في هذا التراث ، فتحرّك ساكناً حيناً ، وتزيد ماءه حيناً آخر ، وتعمّق مجراه وتوسعه حيناً ثالثاً ، فلا بدّ من الاطّلاع على ثقافات الأمم ومعارفها في القديم والحديث ، ولابد من ترجمة بعض هذه الروائع والذخائر ، فهي ملك الإنسانية كلها ، وإذا كان تراثنا في الماضي لم يتردد في الاسترفاد بضروب التراث المختلفة عند الأمم جميعها ، وامتص كثيراً منها ، وجعلها جزءاً منه ، فإننا سنقصّر في حقّ أنفسنا وكرامتنا الفكرية ، وفي حق التراث الذي نصنعه للمستقبل حين نغلق منافذ النور من حيث أتي".[١٩]

وعلى هذا الأساس يغدو اتصالنا بالآخر فرضاً لا نافلة ، ولا سيما فيما يخصّ الاشتغال بالنقد الأدبي ، الأمر الذي يفرض ملاحقة مستمرة لكل جديد ، وهذه صعوبة جوهرية يواجهها الناقد في العصر الحديث ، وتتمثل بما سمّاه إحسان عباس "بالمستلزمات الضرورية لتكوين الناقد. فالناقد الحديث — في عصر التخصص الدقيق — امرؤ غير متخصص في حقل بعينه ، بل عليه أن يكون واسع الاطّلاع على جميع الثقافات: من تراثية ومعاصرة ، وهذه تضم الاتجاهات العلمية والفنية والفلسفية والدينية ... على نحو مستفيض".[٢٠]

ولاشك أن هذا الانفتاح المعرفي سيقود إلى انفتاح في لغة النقد ، ومن ثم في مصطلحه ، وإذا قلنا ما أشبه الليلة بالبارحة فإننا نتذكر ما كان من أمر الفلاسفة المسلمين ومصطلح كتاب الشعر الأرسطي ؛ إذ صار المديح عندهم (قوموذيا) والهجاء (طرغوذيا)، وأصل الخطأ بطبيعة الحال ناشئ عن خلل في الانفتاح المعرفي نفسه ، فابن سينا والفارابي اطلعا على المدونة النقدية الأرسطية ، لكنهما لم يعرفا (المسرح اليوناني) ولم يطلعا على نماذج منه.[٢١]



غير أن المسألة في النقد الحديث تختلف اختلافاً بيناً ، فالجهاز المصطلحي اليوم يتضخم باستمرار ، ونحن نمتلك من المعرفة بلغات الآخرين وفنونهم وآدابهم الشيء الكثير ، ولذلك صار مقبولاً الآن أن نتساءل عن طبيعة هذا الجهاز ووجهة سيره وتحوله ، وخاصة أننا أمام فيض من الأجناس الأدبية والفنية التي تشتغل عليها المصطلحية في النقد الأدبي ، وتشكّل التحولات الأدبية والفنية المستمرة تحدياً فنياً وموضوعياً أمام المشتغلين بالمصطلح وصياغته. وإذا كان التكون الجنيني للمنظومة الاصطلاحية في النقد الأدبي قديماً ناجماً عن إحساس المعنيين بالنقد والبلاغة بحاجتهم الماسة لضبط عملهم ، انطلاقاً من أن النقد الأدبي صناعة لها مقوماتها الخاصة واستقلالها ، كما هي الحال عند ابن سلاّم (ت ٢٣٢هـ) في طبقات فحول الشعراء ، بالإضافة إلى أثر الاحتكاك الحضاري في دفعهم إلى الوعي بضرورة التأليف في مجال التحديد المفاهيمي ، كما نرى عند ابن المعتز (ت ٢٩٦هـ) الذي أخرج كتاب(البديع) محدداً عدداً من المصطلحات البديعية لإثبات أصالتها وأصالة مفهوماتها وتصوراتها الفنية ، معتمداً على التراكم المعرفي الذي أتيح له أن يطلع عليه في المدونتين: الدينية والأدبية في التراث العربي. وإذا كانت تلك هي حال المسألة لدى الناقد القديم فما الذي أحدثته منظومة التغيرات الجديدة ، في بنية المصطلح في ضوء المزيد من التراكم المعرفي الذي لا يمكن الفكاك منه لأي دارس للنقد الحديث.

إن ما يمكن مناقشته في الحديث عن مراحل التحول في سيرورة المصطلح النقدي يقع في صلب التحولات الجذرية التي مرّت بها نظرية الأدب ومناهج النقد الأدبي ، حقاً لقد وقفنا على منجز مصطلحي ضخم في تراثنا العربي ، يتمثل في عدد هائل من مصطلحات النقد والبلاغة والعروض ، وأن ثمة محاولات جزئية لجمع شتات ذاك المنجز ، إلا أن عناية النقاد بالجهاز المصطلحي للنقد الأدبي لم تبلغ مبلغ عناية أقرانهم من المحدّثين والفقهاء في تنظيم مصطلحات الحديث والأصول ، ولا حتى المتصوفة في تحديد مفاهيم العرفانية ، ومع ذا فإن مراجعة التراث النقدي مراجعة متأنية يمكن أن توقفنا على آليات صياغة المصطلح النقدي وطبيعته عند كل بلاغي أو ناقد على حدة ، وبالفعل فقد قامت محاولات جيدة لدراسات متفردة تعالج الجهاز المصطلحي في كتاب نقدي ما ، وقد كان لكليات الدراسات العليا في العديد من الجامعات العربية أدوار بارزة في هذا الإطار ، إذ وجّه كثير من الأساتذة تلامذتهم لمثل هذه الدراسات ، التي عرفنا منها:

- المصطلح النقدي في (نقد الشعر) لإدريس الناقوري ، دار النشر المغربية ، الدار البيضاء ، ١٩٨٢م.
- مصطلحات نقدية وبلاغية في كتاب البيان والتبيّن ، الشاهد البوشيخي ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ١٩٨٢م.
- المصطلح البلاغي في كتاب الصناعتين ، عبد الرحيم الشهاب ، رسالة ماجستير بجامعة اليرموك ، رقم ١١٧٤ ، ١٩٨٨م.
- المصطلح النقدي عند حازم القرطاجني ، عباس عبد الحليم عباس ، رسالة ماجستير بجامعة اليرموك ، رقم ١١٩٥ ، ١٩٩٠م.
- النقد الأدبي ومصطلحه عند ابن الأعرابي ، نجوى حيلوت ، عالم الكتب الحديث ، إربد ، ٢٠٠٦م .
- المصطلح البلاغي في معاهد التنصيص ، محمد الخلايلة ، عالم الكتب الحديث ، إربد ، ٢٠٠٦م .

وهذا – في رأيي – وجه من وجوه التحول في بحث المصطلح النقدي ، أعني أننا بهذه الدراسات بتنا نشعر بحاجة علمية ماسة للإحاطة بالمنجز المصطلحي في تراثنا النقدي ، وهو الأمر الذي لم تتح لأحد فرصة إنجازه على وجه الكلية والعموم ، واقتصر الأمر على الدراسات المنفردة كما أشرت آنفاً ، وأحسب أن هذا التوجه خطوة أولى نحو دراسة منهجية شاملة ومنظمة للجهاز المصطلحي في نقدنا القديم.

إذن ، فقد عثر الدارسون على منجز مصطلحي في النقد والبلاغة القديمين اقترب من النضج والاكتمال ؛ لأنه غطّى جوانب العملية الإبداعية كلها ، بدليل أن مكونات هذا المنجز "نبعت من مصادر ثلاثة ، فبعضها يعود إلى المبدع ، وبعضها يعود إلى المتلقي ، وغالبيتها تعود إلى النص ذاته".[٢٢]

وهذا ما ينبغي أخذه بعين الاعتبار عند دراسة المصطلح في العصر الحديث ، إذ لا يمكن للباحثين والنقّاد تجاوز كل هذا التراث ، الذي صار جزءاً من التراث المعرفي الإنساني ، وجزءاً من تراث النقد العالمي ، وخاصة لأنّ النشاط النقدي العربي انفتح انفتاحا واضحا على النشاط النقدي الغربي بتياراته ومناهجه المختلفة ، بل اصطبغ بصبغتها منذ أوائل المحاولات النقدية الممنهجة في العصر الحديث ، كما رأينا عند طه حسين وعباس محمود العقاد ، ومحمد مندور ، وغيرهم ، وبطبيعة الحال ازدادت هذه الصبغة وضوحاً ، وازداد نطاقها اتساعاً مع تزايد وسائل التلاقي بين الشرق والغرب ، وبسيادة الحداثة وتجلياتها في الأدب والنقد بات النقد العربي الحديث انعكاساً واضحاً لمعطيات النقد الغربي وتحولاته المستمرة ، نظراً وتطبيقاً.

وفي ثنايا ذلك كله تبرز قضية المصطلح واحدة من أهم القضايا التي ينبغي النظر إليها بمزيد من العناية والتأمل ، ولاسيما ونحن أمام مذاهب وتيارات ومناهج نقدية عديدة ، لكل منها مصطلحاته ومفاهيمه وقضاياه ، وهو ما جعل الحاجة إلى تنظيم (المصطلحية النقدية) حاجة ماسّة ، وفي إطار ذلك كله ظهرت الدعوة إلى إنجاز المعاجم المتخصصة فظهر عدد من (معاجم المصطلحات النقدية) التي تندرج في إطار التوجهات العملية لحصر المصطلحات وتنظيمها والتعريف بها ، وفق مناهج متنوعة ، ووجهات نظر سيعرض لها هذا البحث في الفصل التالي بشيء من التفصيل.

ومثلما سادت مصطلحات مثل نظرية الشعر ، ونظرية الرواية ، ونظرية الأدب ، وغير ذلك ، كان (النظرية المصطلح) وجود حقيقي في ميادين المعرفة كلها ، وما يهمنا هنا هو تأمل هذه النظرية في سياقاتها الخاصة بالنقد الأدبي ومصطلحه ، على أساس أن مثل هذا البحث هو التحول الأساسي والجوهري في دراسة مصطلحات النقد الأدبي ومعاجمها.

إن وجود منجز مصطلحي أعد بوسائل وآليات صناعة المصطلح المعروفة يضعنا أمام ما يسمى (بالمصطلحية) والتي يسميها الفرنسيون LaTerminographie التي تعنى بالجانب التطبيقي للمصطلحات. ويقابله ما يسمى بالفرنسية LaTerminologie أي الاصطلاحية. وهي التي تتناول القضايا النظرية لمسائل الاصطلاح عامة.

وهذا كله يوازي ما يسمى بالإنجليزية Terminology (علم المصطلح) الذي يعالج النظريتين العامة والخاصة فيه ،[٢٣] وهو العلم الذي بدأت أبحاثه تزدهر حديثاً مع ظهور مؤسسات وجهات تعنى بالمصطلح والتنظير له. ولست بصدد تتبع هذه الأبحاث ، فأغلبها يقع في صلب المصطلحية العلمية الخاصة بالطب والتقنية الحديثة ، إنما

يهمني هنا رصد أبرز ملامح هذه (المصطلحية) في اتجاه النقد الأدبي. وهنا أشير إلى جهود عبدالسلام المسدي في تحديد آليات صياغة المصطلح بما أسماه بالثوابت المعرفية المطلقة ، والنواميس اللغوية العامة والمسالك النوعية الخاصة "فأما الثوابت المعرفية فتتصل بطبيعة العلاقة المعقودة بين كل علم من العلوم ومنظومته الاصطلاحية ، وأما النواميس اللغوية العامة فتقتضي تحديد نوعية اللغة التي نتحدث عن قضية المصطلح ضمن دائرتها ، وما تختص به من فروق تنعكس على آليات صياغة الألفاظ ضمنها ، وأما المسالك النوعية ، فإننا نعني بها مجال الاختصاص المعرفي الذي نتناول آلياته الاصطلاحية بالدرس".[٢٤]

وتشير (الثوابت المعرفية) إلى أنّ العلاقة بين النقد الأدبي ومنظومته الاصطلاحية ، يشوبها الكثير من التشويش والاضطراب ، ومن مظاهر ذلك ما نجده من اختلاف في كثير من المصطلحات في صياغتها الفنية أو في فهم محتواها ، ولست أبالغ إذا قلت إن عبارة (إشكالية المصطلح) أصبحت من العبارات المألوفة في الدراسات النقدية ، ولا يخفى أن هذه الإشكالية ذات أوجه ولبوسات مختلفة ، ففي بعض الأحيان نلمس ملامحها في الصياغة اللغوية الخارجية للمصطلح كما في مصطلحات (الرومانطيقية ، والرومانتيكية ، والرومانتية ، والرومانسية) أو (الهدمية ، والتفكيكية ، التشريحية ، والتقويضية) ، وأحياناً أخرى تتجلى هذه الإشكالية في مفهوم المصطلح ودلالاته المضمونية كما في (الشعر الحر) إذ إنه ترجمة لشيء آخر غير الذي أطلق عليه في أدبنا العربي في وقت من الأوقات. وسيكون للبحث مزيد من الوقفات مع جوانب إشكالية المصطلح فيما يلي من فصول. وقبل أن نصل إلى هذه التفصيلات من المهم أن يجلو البحث مزيداً من النقاشات المصطلحية التي تظهر لنا حجم العناية التي وجهها الباحثون المعاصرون لمسألة المصطلح ، اعتقاداً منهم بخطورة هذا الجهاز الذي يعد (لغة شارحة) الأمر الذي ينقله من دائرة المفردة الوصفية الحيادية ، إلى كونه جهازاً مفهومياً يدخل في صلب عملية الفهم ويوجهها بحسب تحولاته. ومن أجل الخروج من أطر الإنشائية والتعميمات المكررة يشار إلى تجربة شخصية قام بها الباحث الحالي لفحص ثقة النقاد والدارسين بالجهاز المصطلحي في النقد الحديث ، الذي ينبغي أن تكون المعاجم المصطلحية خير ممثل له ، وتتلخص التجربة في تتبع مدى شيوع الاعتماد على معاجم النقد الأدبي المتخصصة في الدراسات النقدية ، وبخاصة المحكّمة ، وذلك باختيار عينة عشوائية منها ، لنجد أن العديد من هذه الدراسات النقدية (نظرية وتطبيقية) لا ترجع إلى معاجم المصطلح النقدي في كثير من الأحيان ،وهو الأمر الذي يسبب نوعا من الفوضى المنهجية في تلك الدراسات.

وهذا – بطبيعة الحال – يشير إلى مدى ما يمكن مصادفته من مغايرة واختلاف في فهم الدارسين للمصطلحات المستخدمة الأمر الذي يدفع نحو مزيد من التشويش والاضطراب في هذا السياق.

وفيما يتعلق (بالنواميس اللغوية) فإننا نتحدث عن لغة امتازت أنظمتها (الصوتية والنحوية والصرفية والمعجمية) بقدرة عالية على استيعاب فضاءات التطور ، وتمثّل منجزات الألسنية الحديثة ، وتطبيقات الذكاء الاصطناعي ، والحوسبة لمستويات الدرس اللغوي كافة ، ولا سيما نظامها المعجمي ، سواء في معاجم الألفاظ ، أو المعاجم المتخصصة ، حيث "أصبح للمعجم ، في مجال اللسانيات الحاسوبية ، موقع محوريّ ، بل أصبح المعجم مفتاح الدلالة ومحور التوليد اللغوي"[٢٥] وسنتعرف إلى طرق هذا التوليد وفلسفته عند عرض مناهج التأليف في المعاجم المصطلحية المتخصصة بالمصطلح النقدي.

وإذا انتقلنا إلى مقولة المسدّي الأخيرة الخاصة (بالمسالك النوعية) فيجدر بنا النظر في طبيعة الحقل الذي ندرس مصطلحاته ، وأعني النقد الأدبي ، من زوايا مختلفة ، نظرية وإجرائية ، آخذين بعين الاعتبار أنّ هذا الحقل المعرفي يعدّ من أكثر حقول المعرفة الإنسانية تحدّيا للمشتغلين بالعمل المصطلحي ، ففي الوقت الذي تتسم فيه موضوعات العلوم الأخرى بثبات ملموس ، نجد أنّ مادة النقد الأدبي وموضوعها الأساسي وهو " الأدب " يتسم بمقدار كبير من التغيّر ، وبقدر وافر من الثراء الأسلوبي ، واللاتجانس الموضوعي في أبعاده الثقافية والحضارية والفكرية والدينية . وهو ما يجعل من الصعوبة بمكان أن نضبط مفردات هذا الحقل ضبطا نهائيا ، وأن نسير في مسالكه النوعية سيراً آمناً . وللتدليل على ذلك يمكن أن نأنس إلى نقاش موجز حول مصطلح " القصة " هذا النوع الأدبي الذي يوصف – عادة – بعدم الاستقرار ، وعدم الاكتمال ، وتعدد أنماطه البنائية له التي تسبب – في كثير من الأحيان – إشكالات في الفهم تربك المصطلح .

الهوامش

(١) السيوطي ، عبد الرحمن جلال الدين ، المزهر في علوم اللغة وأنواعها ، عيسى البابي الحلبي ، القاهرة ، د.ت ، ج ١ ، ص٢٩٤.

(٢) الجاحظ ، الحيوان ، تحقيق: عبد السلام هارون ،مكتبة الحلبي ،القاهرة، ١٩٨٤، ٣٦٦/٣ ، ٣٦٨/٣.

(٣) الكاشاني ، كمال الدين ، اصطلاحات الصوفية ، تحقيق: كمال جعفر ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨١ ، ص١١.

(٤) الاقتراح في بيان الاصطلاح ، تحقيق: قحطان الدوري ، بغداد ، ١٩٨٢ ، ص٢٨٨.

* الجريب: مقدار معلوم من الأرض المزروعة. والعشير:القبيلة أو الزوج. والقسطاس: الميزان (لسان العرب).

(٥) بن وهب ،أبو الحسين الكاتب ، البرهان في وجوه البيان ، تحقيق: أحمد مطلوب ، بغداد ، ١٩٦٧ ، ص٦٤.

(٦) الجرجاني ، عبد القاهر الجرجاني ، أسرار البلاغة ، دار المعرفة ، بيروت ، ١٩٨٢ ، ص٣٠٣

(٧) بن حيّان ،جابر ، رسالة الحدود ، ضمن: (عبد الأمير الأعسم)، المصطلح الفلسفي عند العرب ، بغداد ، مكتبة الفكر العربي ، ١٩٨٣ ، ص١٦٥.

(٨) الكندي ، أبو يعقوب ، رسالة الحدود والرسوم ، ضمن (الأعسم) ، ص١٨٩.

(٩) ابن سينا ، الإشارات والتنبيهات "حدّ الحدّ".

(١٠) الغزّالي ، أبو حامد ، رسالة الحدود ، ضمن: (الأعسم) ، ص٢٦٦.

(١١) بن جعفر ، قدامة ، نقد الشعر ، تحقيق:كمال مصطفى ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٩٧٨ ، ص٢٣-٢٤.

(١٢) البوشيخي ، الشاهد ، مصطلحات نقدية وبلاغية في كتاب البيان والتبيّن للجاحظ ، مقدمة أمجد الطرابلسي ، دارا لآفاق الجديدة ، بيروت، ١٩٨٢ ، ص١٠.

(١٣) عباس ،إحسان ، تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، دار الثقافة ،ط ١ ، بيروت ، ١٩٨٦ ، ص٢٧-٢٨.

(١٤) ناصف ،مصطفى ، النقد العربي نحو نظرية ثانية ،سلسلة عالم المعرفة ، العدد ، الكويت، آذار ٢٠٠٠ ، ص٢٠.

(١٥) عباس ، إحسان ، تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، ص ٣٠.

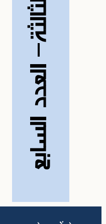
(١٦) حافظ ،صبري ، قراءة الخطاب النقدي والنظرية النقدية: أو مسيرة من التقطّع إلى الاستمرارية ، مجلة فصول ، ع ٧٠ ، ٢٠٠٧ ، ص ٢٠٣.
(١٧) مطلوب ، أحمد ، معجم النقد العربي القديم ، ط ١ ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ١٩٨٩ ، المقدمة ٢٦/١.
(١٨) الموسى ،نهاد ، قضايا العربية في العصر الحديث : مثل من الحوار بين الشرق والغرب ، ضمن (من الصمت إلى الصوت) ، تحرير : محمد شاهين ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط ١ ، ٢٠٠٠ ، ص ص٢٨٥-٢٨٦.
(١٩) الأسد ، ناصر الدين ، تحقيقات أدبية ، منشورات أمانة عمان ، ٢٠٠٦ ، ص٣٦.
(٢٠) عباس ، إحسان ، توجيه النقد الأدبي للفكر العربي ، ضمن (من الذي سرق النار): خطرات في النقد والأدب ، جمع وتقديم : وداد القاضي ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٨٠م. ، ص ٢٥.
(٢١) انظر: أمين ، أحمد ، قصة الأدب في العالم ، مكتبة النهضة بمصر ، ١٩٥٥ ، ج١ ، ص٢. وطه حسين ، خصام ونقد ، دار الأندلس ، بيروت ، ١٩٧٧ ، ص ٢١٢.
(٢٢) عبدا لمطلب ، محمد ، بنية التحول البلاغي ، علامات ، النادي الأدبي ، جدة ، ج٨ ، م٢ ، ١٩٩٣ ، ص١٩٨.
(٢٣) للمزيد انظر: هليّل ،محمد حلمي ،أسس المصطلحية ، علامات ، النادي الأدبي ، جدة ، ج٨ ، م٢ ، ١٩٩٣ ، ص ص٢٨١-٢٩٦. والزيدي ،توفيق ، تأسيس الاصطلاحية النقدية العربية ، المصدر نفسه ، ص ص١٧١-١٧٢.
(٢٤) المسدي ، عبدا لسلام ، المصطلح النقدي وآليات صياغته ، علامات ، النادي الأدبي ، جدة ، ج٨ ، م٢ ، ١٩٩٣ ، ص٥٤.
(٢٥) الموسى ، نهاد ، العربية: نحو توصيف جديد في ضوء اللسانيات الحاسوبية ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط ١ ، ٢٠٠٠م ، ص٢٥٢.



الدكتور عباس عبد الحليم في سطور:

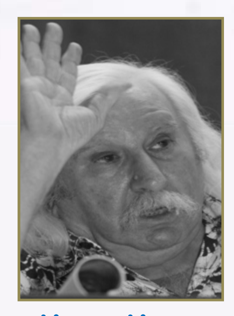
- PHD Arabic Language, UNIV. of JORDAN, 2009.
- PHD Arabic Language, CAIRO 2001.
- MS Arabic language, YARMOUK UNIV. 1991.
- Bach. Arabic Language& Education, YARMOUK UNIV.1988.
- Member of Arab network for Open& Distance.
- Member of Jordanian writers Association.





العربيـة
"لغة وكتابة"





د. محفل محفل
رئيس تحرير
مجلة دراسات تاريخية - جامعة دمشق
عضو مجمع اللغة العربية (دمشق)
الجمهورية العربية السورية



الاستشهاد المرجعي بالمقال:
محمد محفل ، العربية: لغة وكتابة.- دورية كان التاريخية.- العدد السابع ؛ مارس ٢٠١٠. ص ٤١ – ٤٥.
(www.historicalkan.co.nr)

اللغة والمجتمع

لا حاجة بنا إلى القول بأنه لا لغة بلا مجتمعٍ ، كما أنه لا وجود لمجتمع بغير لغةٍ ، ومن نافلة القول أيضاً أن نقرّرَ الصعوبات التي تعترض سبيل الباحثين وذوي الاختصاص ، لمعرفة تاريخ ومكان وكيفية نشوء "اللغة الأولى" لبني البشر. فهذا ليس قصدنا ولا مجال لذلك في عجالتنا هذه ، متغاضين عن أهواء أولئك الذين اهتدوا بما جاء في التوراة ، (سفر التكوين ، الإصحاح الحادي عشر):

"١- وكانت الأرض كلها لغةً واحدةً وكلاماً واحداً.

٢- وكان أنهم لما رحلوا من المشرق وجدوا بقعةً في أرض شنعار فأقاموا هناك.

٣- وقالوا تعالوا نبني لنا مدينةً وبرجاً رأسه إلى السماء...

٤- فنزل الربّ لينظرَ المدينةَ والبرجَ..

٥- وقال الربّ هاهم شعبٌ واحد ولجميعهم لغة واحدة..

٦- هلُمّ نهبط ونبلبل هناك لغتهم حتى لا يفهم بعضهم لغة بعضٍ...

٧- فبدّدهم الربّ من هناك على وجه الأرض كلها..

٨- ولذلك سُمّيت بابلَ لأنَّ الربّ هناك بَلْبَلَ لغة الأرض كُلِّها..".

لا تعليق لنا على ما جاء أعلاه!!.. مع العلم بأن اسم بابل لا يعني في الأكدية- البابلية والآرامية لاحقاً "باب إيلو/ باب إيلا " سوى (باب إيل= باب الله") وإيل كما نعلم هو رب الأرباب في الهلال الخصيب ، في إحدى الحِقَب ، ومن هنا الأسماء المركّبة: اسماعيل ، جبرائيل ، عزرائيل ، اسرافيل ، الخ... ولدينا في الضاحية الجنوبية لدمشق بلدة "ببيّلا" بمعنى (باب الله).

لم يكن هدفنا من هذه اللفتة الاشتقاقية لاسم بابل ، سوى التمهيد لما سنلاحظه لاحقاً من تشابهٍ جليّ واضح ، بين اللغة العربية ، كما أدركناها في الأدب الجاهلي وفي الخطاب القرآني فيما بعد ، إضافةً لما نجده في مختلف وثائق الحضارة اليمنيّة والنقوش القديمة (ثموديّة ، لحيانيّة ، صفائية ، وقال البعض صفوّية) وجميعها بالقلم المسند ، أي بالتراث اللغوي لشبه الجزيرة العربية قبل الإسلام ؛ هذا من ناحية ، وبين لغات بلاد الرافدين والشام ووادي النيل ، إضافةً لشمال إفريقية ، تلك اللغات واللهجات التي أطلق عليها البعض اسم اللغات "الحامية-السامية".

أعلن نفرٌ أن السريانية هي لغة "الإنسان الأول" واحتجّ آخرون على ذلك زاعمين أنها العبرية -مع العلم بأنه لا كيان لـ "عبرية قديمة" خارج دائرة اللغتين الكنعانية والآرامية ، وأكد آخرون أنها العربية ؛ بل شطت مخيلة هذا الفريق أو ذاك ، عندما زعموا أن لغة أهل الجنّة هي هذه أو تلك!!

غنيٌّ عن البيان أن شتى هذه الدعاوى لا علاقة لها بمنطق الأمور ، وتدحضها مختلف الدراسات اللغوية المقارنة. ولا مجال لنا للاستغراق في الحديث حول ذلك. ولكن لا بأس من ذكر بعض هذه الدراسات ، إذ من البديهي أن يطمح البعض إلى متابعة هذه النقطة أو تلك ، وهذا أمر مفهوم.

قال البعض ، إن الإشارات والرموز التي ظلّت الوسيلة الوحيدة للتفاهم لدى الجماعات البدائية ، حتى مطلع قرننا هذا ، (مجاهل أقيانوسية وافريقية الخ....) ، والتي نلاحظها في الطفل قبل أن يتعلم الكلام ، تعطينا فكرة تقريبية عن وسيلة التفاهم الأولى لدى الكائنات البدائية ، ' وبعد الإشارات هذه جاءت الأصوات فالكلمات: أحادية الصوت أو ثنائيته الخ... ثم كانت اللغة ؛ والحالة هذه ، فاللغة أصلاً هي

أصوات وليست كلمات، والكلمة صوتٌ يرمز إلى معنى، وكتابة الكلمة رسمٌ يرمز إلى هذا الصوت، إذاً فالصوت هو الأصل. جاء في القاموس المحيط (الفيروز آبادي): "واللغة أصواتٌ يعبّر بها كلُّ قومٍ عن أغراضهم". ويضيف ابن منظور في مادة "لغا": "…. واللّغةُ، اللِّسْنُ، وحَدُّها أنها أصواتٌ يُعبِّر بها كلُّ قومٍ عن أغراضهم…".

ونلخّص فقرتنا هذه بما قاله (الأستاذ أحمد عبد الرحيم السائح): "… وقد يصعب على الباحث معرفة متى وأين وكيف بدأت اللغة، إلا أننا لا نعدو الصواب، إذا قلنا: إنها بدأت عندما تكونت أول جماعة إنسانية في هذا الوجود، ولا نعدو الصواب أيضاً إذا قلنا: إن الجماعة الإنسانية الأولى -أياً كان طابعها- عندما تكونت صحبت معها مشاكلها الخاصة، الناتجة عن علاقات الأفراد بعضهم ببعض، والناتجة عن علاقة الإنسان بالبيئة والطبيعة.

وفي سبيل البحث عن حل لتلك المشاكل الجديدة في نوعها، تولّد النشاط الإنساني في استخدام الصوت، لتكوين ألفاظ لغوية، بدائية الطابع، والإنصات لتلك الأصوات، بما يتبعه من مسلك ذهني لفهم مدلولها اللفظي عن طريق الأذن. تجسّد هذا النشاط الإنساني المتميّز من كائنات الطبيعة الأخرى، في صيحات موسيقية، تومي بمعانٍ سحرية، تختلف في دلائلها باختلاف موسيقاها.. بذلك تكوّن العنصر الأساسي للبيئة الثقافية الخاصة بالإنسان وحده.. وليست على هذا الأساس، البيئة التي يحيا فيها الإنسان، يعمل ويبحث مادية فقط، بل ثقافية كذلك، فأفعال الإنسان وكيفية أدائه لها، لا تتوقف على التكوين العضوي لجسده فقط، بل البيئة والإنسان يتأثران كذلك بمؤثرات تراثه الثقافي المنبث في التقاليد والنظم الاجتماعية والعادات والأهداف والمعتقدات التي تحملها الألفاظ اللغوية. في طيّها وتوحي بها.

العربية وانتسابها اللغوي

من الأمور المقررّة حالياً -في الدراسات الجامعية والأكاديمية- والخاصة بأصل الشعوب وألسنها، أنه لا يمكن أن نقيم علاقة مطلقة بين الأصل العرقي لشعب ما، وبين اللغة التي ينطق بها، ويمكننا أن نتيقن من ذلك، بدلائل وشواهد قديمة وحديثة، إذ نجد أقواماً وشعوباً تهجر ألسنتها الأصلية، لمصلحة ألسن أقوام أخرى، لأسباب سياسية أو اقتصادية أو دينية الخ…. فمثلاً اللغة الحوريّة اندثرت في سورية، بعد زوال سلطان الدولة الميتانية، في نهاية القرن الرابع عشر (ق.م)، لمصلحة لغة السكان المحليين. الكنعانية فالآرامية. وكذلك الفلستينيُّون[١]، وهم من أقوام شعوب البحر[٢]، فبعد استقرارهم على الشريط الكنعاني الجنوبي، هجروا لغتهم لمصلحة الكنعانية، وكذلك أولئك الذين أطلقوا عليهم اسم الاسرائيليين القدماء فاليهود فيما بعد، منذ تسللهم إلى فلسطين، بعد القرن الثاني عشر (ق.م) ومروراً بالسبي الآشوري (٧٢١ ق.م) فالبابلي بمرحلتيه (٥٩٧/٥٨٦ ق.م) وانتهاء بتشريدهم النهائي على يد الرومان (عام ١٣٥م)…. أما بالنسبة للأزمنة الحديثة والمعاصرة، فالشواهد على ذلك وافرة متنوعة: فالأقوام والشعوب التي تنطلق اليوم بالإسبانية والبرتغالية في مختلف أنحاء أمريكة الجنوبية، لا حصر لأصولها العرقية، ونحن نعلم أن الاسبانيين والبرتغاليين قد شرعوا في استعمار العالم الجديد- لاسيما القسم الجنوبي منه- منذ مطلع القرن السادس عشر.

وشاع استعمال هاتين اللغتين، ذات الأصل اللاتيني، بين سكان أمريكة الجنوبية، إلى درجةٍ كبيرة، مما جعل البعض يطلق اسم "أمريكة اللاتينية" على القسم الجنوبي من القارة الأمريكية، وماقيل عن الشعوب الناطقة بالاسبانية والبرتغالية ينطبق على بعض الأقوام الافريقية والآسيوية التي اعتمدت اللغة الفرنسية أو الانكليزية لغة رائجة لها، مع احتفاظها أحياناً (كالهند مثلاً) بلهجاتها القومية.

تنتسب لغتنا "العربية الفصحى" إلى تلك المجموعة اللغوية، التي أُطلِق عليها تجاوزاً اسم "اللغات السامية". وهي اللغات واللهجات التي تكوّنت في مختلف أصقاع وطننا العربي القديم اعتباراً من الألف الرابع (ق.م). وأوّل من نادى بالنظرية السامية بدءاً من عام ١٧٨١، الباحث النمساوي شلوتسر معتمداً -لأسبابٍ سياسية/ كهنوتية- على ماجاء في (سفر التكوين، الإصحاح العاشر)، ومن يقرأ هذا الإصحاح يلاحظ مباشرةً أن كاتب النصّ يُقسّم الشعوب والأقوام لاعتبارات سياسية، لاسيّما موقفها من أهل التوراة، ومن الأمثلة على ذلك، أنهم أخرجوا الكنعانيين من دائرة "الشجرة السامية"؛ علماً أن مختلف الدراسات المقارنة قد أظهرت الصلات الجوهرية والوشائج المطلقة، التي تشدّ الكنعانية إلى غيرها من لغات مشرقنا العربي القديم. ثم جاء بعد شلوتسر من عمل على ترويج هذه التسمية وفي مقدمتهم العالم الفرنسي (إرنِسْت رِنَان)، بل راح "يفلسفها" عرقياً، خدمة للمدرسة الاستعمارية الفرنسية في القرن التاسع عشر.

نحن نرفض جازمين نظرية "التسمية السامية"، لأسبابٍ علميةٍ محضة، ولدوافع سياسية وقومية:

أولاً: فمن الناحية العلمية، دحضت مختلف الدراسات العرقية والإناسية (انثروبولوجية) نظرية وحدة السلالة أو الأصل MONOGENISME/ MONOGENISM بمعنى أن مختلف أفراد شعبٍ ماينحدرون من شيخٍ واحدٍ[٣].

ثانياً: التسمية ذات أصل توراتي -كما ذكرنا أعلاه- كما أن الاستشراق الغربي قد "ابتدعها" وروّجها، لأسبابٍ سياسية/ مذهبية، لم تعد خافية على أحد، وذلك في أوج اندفاع الاستعمار الغربي، وقبل قرنٍ تقريباً من انعقاد المؤتمر الصهيوني الأول. كما أننا اكتوينا كافياً برعونة سلاح: سامية/ لاسامية، وإضافة لهذا وذاك، لا نجد أثراً لهذه التسمية في مؤلفات علمائنا وشيوخنا الأوائل؛ وما نقرّره هنا، قد نَبَّهْنا إليه منذ ربع قرن تقريباً في المقدّمة التاريخية لكتابنا (المدخل إلى اللغة الآرامية)، المقرّر في جامعة دمشق، والمعمول به حتى يومنا هذا، إذ قلنا أن المُهمة ملقاة على عاتق الباحثين العرب المعاصرين لإيجاد بديلٍ للتسمية التوراتية… ويدخل الموضوع في باب "السهل الممتنع" لانتشار هذا الخطأ الشائع في الأوساط الجامعية، عربياً ودولياً.

وقد سبق أن انتبه لإبهام التسمية بعض الباحثين العرب، لاسيّما الأستاذين محمد عزّة دروزة وجواد علي، وقد لخّص هذا الأخير الموضوع كما يلي: "… ولعلّني لا أكون مخطئاً أو مبالغاً إذا قلت إن الوقت قد حان لاستبدال مصطلح (سامي) و(سامية) بـ(عربي) و(عربية)… ولما كان العلماء قديماً قد أطلقوا على هذه الأرض التي ظهرت فيها شعوب كثيرة ولغات عديدة اسم (جزيرة العرب) أو (شبه جزيرة العرب) غير مراعين في ذلك تعداد المواضع أو اللغات واللهجات أو القبائل، ولا تاريخ ظهور لفظة (العرب) إلى عالم الوجود، جاز لنا بل وجب علينا -على ما أرى- أن نستبدل مصطلح (السامية) بمصطلح (العربية)، فنكون بذلك قد لاحظنا عاملين مهمّين: عامل القرابة اللغوية والأصل اللغوي، وعامل وحدة المكان.. وإذا وافقنا على إقرار

هذا الاصطلاح ، نكون قد تقربنا نحو العلم ، وابتعدنا عن الأساطير ، أسطورة انحدار الساميين من صلب رجل هو سام ، وحري بالعلم أن يبني أحكامه على حقائق علمية ، وأن يبتعد عن القصص والأساطير".

وغنيّ عن البيان ، أنه لا يمكن تمييز أولئك "الساميين" عن غيرهم من أقوام وطننا العربي القديم ، استناداً إلى ماهية العرق البشري فقط ، إذ أن هؤلاء قد امتزجوا ، منذ الألف الرابع (ق.م) ؛ بسواهم من الأقوام المنحدرة من جبال زاغروس أو المتدفقة من بلاد الأناضول أو الوافدة من جزر الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط: من سومريين[٣] وغوتيّين[٤] وحثيّين[٥] وكاشيين[٦] وحوريين-ميتانيين[٧] وفلستينيين[٨] وفرس أخمينيين[٩] وإغريق ولاتين[١٠] وغيرهم. ومع أن أولئك الأقوام قد نطقوا بألسنٍ مغايرة لما كان سائداً في ربوعنا ، فلم يتمكّنوا من فرض لغاتهم على أهل البلاد ، فظلّت محدودة في أوساطهم لتندثر بزوال سلطانهم السياسي.

وقد أظهرت شتى الدراسات المقارنة الخاصة بأصول السلالات البشرية (الاثنولوجية) ، أن عملية تمازج الشعوب لم تنقطع منذ عصور ماقبل التاريخ ، من جراء الهجرات البشرية المختلفة ، مما أدّى إلى اختلاط دماء شتى الشعوب ، وينطبق هذا الأمر على وطننا العربي القديم كما ذكرنا أعلاه.

ولاينبثق اختلاف الأمم في التفكير والسلوك عن نوعيات عرقية مطلقة ، بل يتحدّد ذلك بالشروط والظروف الاقتصادية-السياسية والاجتماعية لشعبٍ ما ، إضافةً للعوامل الجغرافية التي تؤمّن شروطاً مناخية معينة ، لا يُنْكِرُ دورها في هذا المضمار. وعندما نشير إلى جنسٍ ما ، فلا يخطر على بالنا صفاء عرقه ، بل نقصد بذلك تلك الصفات التي تميّز حضارته وثقافته في مختلف الميادين ، على مرّ الأيام والسنين ، وأهم حقلٍ تشعّ فيه الخصائص المشتركة لأمّة من الأمم ، هو حقل اللغة ، ويبدو هذا الأمر جليّا واضحاً في لغات ولهجات وطننا العربي عبر العصور. وإليكم أهم خواص وميزات تلك الألسن ، في بعض مركباتها ، وأحوالها واختلافاتها عن غيرها من اللغات:

أ- اشتقاق أغلبية المفردات من جذرٍ ثلاثي ، ولذلك أطلق علماء اللغة عليها صفة "ثلاثية الجذر" TRILITERE / TRILITERAL ونعلم أن المشتق ومصدره ، في لغتنا العربية وأخواتها ، يتفقان في الحروف الأصلية وترتيبها ، فنقول: "نَصَرَ وناصر ومنصور ومنتصر وانتصر الخ.. وكَتَبَ وكاتب وكتابة ومكتوب ومكتبة وتكاتب الخ.. ونَفَقَ واستنفقَ والنافقة والنفقة والمنفاق الخ..." نلاحظ أنه في مختلف المفردات المشتقة من (نَصَرَ) ، أن ترتيب الحروف ثابت (ن/ فاء الفعل ، ص/ عين الفعل ، ر/لامه) ، وكذلك بالنسبة لـ (كَتَبَ: ك ، ت ، ب) وأيضاً لـ(نَفَقَ: ن ، ف ، ق).

ونعلم أيضاً أنه في بعض المشتقّات يحصل اتفاق في الحروف الأصلية ، دون ترتيبها ، مع تناسب في المعنى ، وذلك هو الاشتقاق الكبير (القلب). والاشتقاق في لغتنا العربية وأخواتها هو على ثلاثة أشكال: الاشتقاق الصغير ، وهو اشتقاق كلمة من جذرٍ بشرط أن يكون بين المفردتين تناسب في اللفظِ والمعنى وترتيب الحروف ، مع تغاير في الصيغة ، مثل: كَتَبَ ، كتابة ، مكتوب الخ.. ثم لدينا الاشتقاق الكبير ، حيث نجد تناسباً في اللفظ والمعنى دون ترتيب الحروف ، مثل جَذَبَ وجَبَذَ ، طاف وطفا ، جَدَلَ وجَلَدَ الخ... وقالوا أيضاً: "القلب" كما ذكرنا. ويأتينا بعد ذلك الاشتقاق الأكبر وهو "الإبدال" حيث نجد بين لفظين تناسباً في المعنى ومخارج الحروف دون تناسب في اللفظ ، نحو: نَفَقَ ونَهَقَ ، ضَمَّ (ضَمَمَ) وضَمَدَ ، رَصَّ (رَصَصَ) ورَصَفَ ، رَجَّ (رَجَجَ) ورَجَفَ ، الخ.. هذا ، إضافةً إلى الاشتقاق الكُبّار ، وهو النحت ، وهو أن تختصر من كلمتين فأكثر كلمة واحدة ، ولا يُشترط فيها حفظ الكلمات بتمامها ، ولا يؤخذ أحياناً من كل الكلمات كما أنه ليس من الضروري موافقة الحركات والسكنات ، ولكن لابدّ من مراعاة ترتيب الحروف. والنحت عند جمهور العلماء على أربعة أشكال:

فعلي ، نحو: بَسْمَلَ (إذا قلت بسم الله الرحمن الرحيم) ، حَوْقَلَ (لا حول ولا قوة إلا بالله) ، حَمْدَلَ (الحمد لله) ، سَمْعَلَ (السلام عليكم) ، حَسْبَلَ (حسبي الله) ، جَعْفَلَ (جعلني الله فداءك). الخ...

والوصفي نحو:الصلدم بمعنى الصلد ، وهو الأسد أيضاً ، والاسمي ، نحو الجلمود ، بمعنى (الصخر القاسي ، من جلد وجمد) والنسبي ، وهو أن نشتق من منسوب مدينتين أو بلدين أو شخصين منسوباً واحداً ، نحو عبدلي (نسبة إلى عبد اللات) وعبدري (من عبد الدار) وطبرخزي (من طبرستان وخوارزم) ...إلخ. ولكل ذلك أصوله القياسية لدى جمهور العلماء. وعندما نقع في العربية على كلمة يتجاوز عدد حروفها الصامتة ثلاثة حروف أصلية ، فعلينا أن نتأكد أنها ليست دخيلة وحينئذٍ نبحث عن أصولها الاشتقاقية. هذا في لغتنا العربية وكذلك في أغلبية أخواتها القديمة.

ب- انعدام الحياد في لغتنا العربية وفي أخواتها القديمة: كالأكدية- البابلية- الآشورية والكنعانية والآرامية ولغات ولهجات شبه الجزيرة العربية القديمة من سبئية ومعينية وحضرمية وحبشية ولحيانية وثمودية وصفائية وكلها بالقلم المسند ، بأشكاله المختلفة ، وذلك في أسماء الجنس والصفات وأسماء الإشارة والموصول والضمائر والأعداد ، الخ... فهي إما أن تكون مؤنثة أو مذكرة ، بعكس ما نجده غالباً في اللغات الهندو- أوروبية ، التي تضم المحايد إلى جانب المذكر والمؤنث. ويبدو هذا جلياً واضحاً في اللغتين اليونانية القديمة واللاتينية وكذلك في لغاتٍ حديثة كالألمانية والانكليزية (ضمير IT).

ج- تفردها بأصوات الإطباق (القاف ، الصاد ، الطاء ، الظاء ، الضاد) ، ونجد الأصوات الثلاثة الأولى (ق ، ص ، ط) في العربية وأخواتها ، بينما تعرّض حرفا (ظ ، ض) للتبدل في بعضها. وقالوا إن صوت (الضاد) مقتصر على العربية الفصحى الحجازية ، ومنه قولهم (العربية لغة الضاد). ونعتقد أن هذا غير صحيح. فأولاً نجد حرف (الضاد) في النقوش السبئية والحميرية على شكل (.. .) ليتطور إلى (.. ..) ثم (...) وأخيراً (، ،) ويمكن للراغب في الموضوع أن يطالع كتاب (مختارات من النقوش اليمنية القديمة) ، في النقوش التالية (رقم النقش فالسطر) مع مراعاة الترتيب الأبجدي للمفردات: (ضأن ، اسم جمع ، كالعربية ٧/١٨) ؛ (ضبأ ، بمعنى حَاْرَبَ ، ٧/٤٠) ؛ (ضرس ، بمعنى طوى بالحجارة ١/١٢٠) ؛ (ضرك ، طوى بالحجارة ١٢/٧) ؛ (ضرع ، بمعنى هزم ، أذلّ ١٨/٢ ، ٨/١٢ ، ٢٩/٧٣ ويأتي أحياناً غَرَبَ ، مال ، ٢/٣٤) ؛ (ضفر ، بمعنى ضَفَرَ ، طوى بالحجارة بئراً ١/٣٦) ؛ (ضمد بمعنى دعا إلى هدنة ٥/٦) الخ... كما تأكد وجود حرف (الضاد) في النقوش الثمودية والصفائية ، كما قلنا أعلاه ، نقول صفائية لاجتناب اللبس مع الصفوية (نسبةً إلى الدولة الفارسية الصفوية ١٥٠٢-١٧٣٦م). وعلى قول بعضهم مؤخراً وُجِدَ حرف (الضاد) في أحد النقوش الأوجاريتية ، وإضافةً لهذا وذاك ، نلاحظ هذا الصوت في بعض اللغات الأوروبية الحديثة.

فمثلاً في الانكليزية ، فعل عَمَلَ (DO, DID , DONE)، فنلفظ (DO, DID) بحرف (D د)، أما (DONE) فنلفظها بحرف الضـاد ، هكـذا (ضَـنْ). وكـذلك فـي الفرنسـية ، فلـو أخـذنا فعـل PRENDRE (أَخَـذَ)، فـي المسـتقبل ، فنقـول JE PRENDRAI (متكلم مفرد)، فحرف (D) هنا نلفظه (د)، أما في المتكلم الجمع ، PRENDRONS NOUS وكـذلك فـي الغائـب الجمـع ILS PRENDRONT فـنلفظ حـرف (D) وكأنـه صـوت (الضـاد)، ولنأخذ حرف (ط)، من أصوات الإطباق ، فمع أن هذا الحرف غير موجود في الأبجدية الانكليزية ، ولكننا نسمعه أحياناً ، ولنلفظ مثلاً NOT (لا) و BUT (لكن)، فنسمع حرف (T) في الحالتين وكأنه حرف (ط)؛ وعلى كل يختلف عن حرف (T) في TO (إلى ، نحو ، الخ....) و TO TAKE (أخَذَ) الخ.... ومن أصوات الإطباق أيضاً ، حرف (ق) الذي يقابل حرف (Q) في الأبجدية اللاتينية ، فتارة نسمعه بصوت (ق) وأخرى بصوت (ك).

فلنأخـذ مـثلاً كلمـة (QUOIQUE)، بمعنـى (مـع أن ، وإن ، ولو) الفرنسية ، ففي مطلع الكلمة نلفظه بصوت (ق)، والحرف الثاني بقيمة (ك) وكذلك في الانكليزية ، وعندما يراجع المرء باب (Q) في المعاجم الفرنسية والانكليزية يعثر على أمثلةٍ شتى مماثلة.

ومـع ذلـك ، فمـا أوضحناه أعـلاه لا يلغـي البنـد (ج) الخـاص بـ(أصوات الإطباق)، والأمر ليس بهذه السهولة والبساطة. ولكن من الواضـح أيضـاً ، أنـه مـا مـن أبجديـة عكسـت قـديماً وحـديثاً ، مختلـف أصوات لغة أصحابها بشكل مطلق[١١].

والمشـكلة قائمـة أيضـاً ، كمـا نعلـم ، فـي كتابتنـا العربيـة منـذ نشـأتها وحتـى يومنـا هـذا ، فمـثلاً بالنسـبة للحركـات الـثلاث: (الضـمة والفتحة والكسرة)، المعبّرة عن الصوائت (الواو ، الألف ، الياء). فكم من صوتٍ تعجز هذه الحركات عن سلامة نطقه ، لاسيّما في اللهجات المحليّة في مختلف ربـوع وطننا العربي. ولا نـدري حقاً لماذا اقتصـر أسلافنا العلماء على هذه الحركات الثلاث ، مع الشدّة والسكون ، علماً أن الكتابتين: الآرامية المتّطورة والسريانية فيما بعد ، قد ابتدعتا عدداً أكبـر مـن الحركـات (الكبـرى ، والصـغرى) المعبّـرة عـن أصـوات تعجـز أحياناً كتابتنا العربية عنها. نرانا أسرفنا في الموضوع... ولا مجال لأكثر من ذلك في عجالتنا هذه.... ولكن الإشكال مازال قائماً وينتظر الحل على يد علماء اللغة العرب.. اليوم وغداً.

د- يأتي العدد في لغتنا العربية وأخواتها ، من ثلاثة إلى عشرة ، على عكـس المعـدود ، فهـو مـذكر مـع المؤنـث والعكـس صحيح ، أمـا العـددان (واحـد ، واثنـان) فيأتيـان بموجـب المعـدود. فنقـول : رجـل واحد ، وامرأة واحدة ، رجلان اثنان ، وامرأتان اثنتان ، وثلاثة رجال ، وثلاث نساء الخ.... إلا إن كانت العشرة مركبة ، فهي على وفق المعدود. وللمقارنة مع اللغتين الآرامية والسريانية لدينا بعض المراجع المحلية الجامعية.

هـ- تضـم لغتنـا العربيـة مختلـف الأصـوات الحلقيـة (الهمـزة ، الحـاء ، الخـاء ، العـين ، الغـين ، الهـاء)، بينمـا لـم تحـتفظ أخواتهـا إلا ببعضها ، وأقلها الأكدية التي لم تحتفظ سوى بصوتي (الهمزة والخاء).

و- تشـابه الضـمائر المنفصلة إلى درجةٍ كبيرة ، وكذلك طريقة ارتباط الضمائر المتصلة بالأفعال والأسماء والحروف...الخ.

ز- التشـابه الكبيـر فـي المفـردات الدالـة علـى أعضـاء الجسـم والعدد وصلات القرابة ومختلف مرافق الحياة المألوفة لدى أسلافنا في العصور القديمة وحتى صدر الإسلام ، إضافةً إلى التشابه في الضمائر والحروف وأسماء الإشارة ،...الخ.

وإليكم الجدول المقارن لبعض تلك اللغات:

عربي شمالي	أكدي /بابلي /آشوري	كنعاني	آرامي / سرياني	يمني /حبشي
أب	أبو	أب	أبا	أب
ابن	بنو	بن	بر	بن
أخ	أخو	أخ	أخ	أخو
إذن	إزنو	إزن	أود	أزن
أربع	أربعو	أربع	أربع	أربع
اسم	شومو	شم	شم	شم
أم	أمُّو	أم	أما	أم
جمل	جملو	جمل	جمل	جمل
دم	دمو	دم	دم	دم
و(حرف عطف)	و	و	و	و
زَرْع	زرُو	زَرْع	زَرْعا	زَرْع
يَدّ	أدُو	يَدْ	أيْدا	أد
كوكب	كاكبو	كوكب	كوكبا/كوخبا	كوكب
ماء	مو	مَايِم	مايا	ماي
مَوْتْ	موتو	موَت	مُوْتا	مُوْت
ست (٦)	ششُوا	شِش	شِش	سِسُو
عين	أنُوَ	عين	عينَا	عيْن
شمس	شَمْشُو	شِمش	شَمْشَا	شمس
ثلاث (٣)	شلاشو	شلَوش	ثلاث	شلاس

لـم نتطـرق فـي جـدولنا أعـلاه إلـى اللغـة المصـرية القديمـة ، بكتابتها الهيروغليفية وأشكالها المختلفة على مرّ العصور. ونحن نعلم جيـداً "النعـرة الفرعونيـة ، التـي جعلـت مـن اللغـة المصـرية القديمـة "كياناً" قائماً بذاته ، لا علاقـة لـه بألسـنة وطننـا العربـي البائدة منها والباقية ، لقد تزعزت أركان "الفرعونية" بعد الدراسات اللغوية الحديثة. ولعـلّ أفضـل ماصـدر فـي السـنوات الأخيـرة فـي هـذا المجـال ، دراسـة الدكتور علي فهمي خشيم ، تحت عنوان (آلهة مصر العربية)(10) بحث فـي تـاريخ وادي النيـل ومعبـودات قدماء المصـريين واللغـة المصـرية القديمة ، بمنهجٍ عربيٍ جديد).

العربية الفصحى: انتسابها ومكانتها

نقصد بالعربية الفصحى ، تلك اللهجة التي أدركناها مكتملة القواعد والبيان ، في الشعر الجاهلي ثم في القرآن الكريم والحديث الشـريف ، قبـل أن نأخـذ لاحقـاً منـاحي جديـدة فـي العصـرين الأمـوي والعباسـي ، فالعصـور التاليـة حتـى أيامنـا هـذه. والأمـر المـدهش بـل المحيّر ، عظمة بلاغتها وبيانها وغنى مفرداتها ، بالنسبة إلى الكتابات اليمنية التي تمّ العثور عليها -حتى الآن- مع غيرها من النقوش اللحيانية والثمودية والصفائية بالخط المسند ، إضافةً لتلك النقوش الشمالية ، اعتباراً من منتصف القرن الثالث للميلاد وحتى نهاية القرن السادس للميلاد ، وعلى وجه التحديد (عام ٥٦٨م) وهي محدودة العدد ، وقد عُثِرَ عليها في المنطقة النبطية ، ماعدا (نقش زبد)، كما سنرى وإليكم تسلسلها:

أ- أقدم هذه الكتابات هو (نقش أم الجمال الأولى)[١٢] نبطي اللهجة وبقلم نبطي، منقور في حجر شاهدة قبر "فهر بن شلى" مربي جذيمة، ملك تنوخ[١٣]، ويرجع تاريخه إلى حوالي (عام ٢٥٠م)، وهو بدء استعمال القلم النبطي عند ملوك العرب، ويُعْتَبَر هذا النقش، على قصره، عظيم الأهمية، بإشارته للصلات التاريخية بين الأسر العربية الحاكمة في العراق وبلاد الشام.

ب- والوثيقة الثانية هي كتابة النمارة[١٤]، على قبر الملك "امرئ القيس" ويرقى إلى (عام ٢٢٣) من سقوط البتراء (سلع) والموافقة لعام ٣٢٩ للميلاد[١٥] ويتألف النقش من خمسة سطور منقوشة على صرحٍ مربعٍ، وهي بالقلم النبطي وبلغة آرامية/ عربية ويغلب عليها تراكيب الجملة العربية، وتكمن أهمية النقش في أنه أقدم نص مكتوب بلهجة قومٍ لسانهم قريب من لهجة أهل الحجاز.

جـ- والوثيقة الثالثة هي كتابة "زَبَدْ" وهي خربة، تقع جنوبي-شرقي حلب، ويرجع تاريخه لعام (٥١٢م) ويتكّون النقش من كتابات بثلاث لغات: يونانية وسريانية وعربية قديمة. وقد نُقِشَت الكتابات على حجرٍ كائنٍ في صرح الكنيسة.

د- أما النص الرابع، فهو الشهير بنقش "حرّان"، (الصفا، في اللجاة، شمالي جبل العرب)، وتاريخه هو عام (٥٦٨م.) وهو منقور في حجر فوق باب مزار، وأغلب الظن أنه يعود لأحد أمراء كندة، الذي أشار على حاشيته به، بمناسبة تدشين مزار (مشهد/ مرطور) تكريماً للشهيد القديس "يوحنا المعمدان". وتمتاز هذه الوثيقة بكون لهجتها قريبة إلى درجةٍ كبيرة من العربية الحجازية، ولاسيّما لهجة قريش. كما أن الخط يقترب كثيراً من النسخي القديم. واعتباراً من هذا النص، راحت الكتابة العربية الشمالية (الحجازية) تبتعد تدريجياً عن القلم النبطي.

تزداد حيرتنا أكثر فأكثر، عندما نقيس ركاكة أسلوب محتوى النقوش، التي أشرنا إليها أعلاه، ببلاغة سحر الشعر الجاهلي وجزالته فالقرآن الكريم. مما لاشك فيه، أن تلك الكتابات الوجيزة لا تعكس بالضرورة حقيقة لغة التخاطب اليومي، وبالأحرى، ماهية الخطاب الأدبي. لسكان شبه جزيرة العرب، ولاسيما في ربوعها الوسطى والشمالية (نجد، الحجاز، بلاط الحيرة، بادية الشام الخ....).

ومع ذلك، يظلّ ذلك الموضوع الملّح، الذي شغل بال علمائنا السابقين والباحثين المحدثين، من عربٍ وغيرهم، قائماً وبلا جوابٍ مقنعٍ حاسم، حتى يومنا هذا، وعنينا بذلك: أين ومتى تمّت تلك "الطفرة النوعية، اللغوية لعربيتنا الفصحى، التي أدركناها في بلاغة وبيان الشعر الجاهلي ثم في الإعجاز القرآني فجزالة الحديث الشريف ؟!..

الهوامش

(١) نعني بهم أولئك الجماعات الذين هاجموا سواحل الدلتا المصرية، وبعد فشلهم توجهوا نحو الساحل الكنعاني الأدنى/ الفلسطيني، حيث استقرّوا على الشريط الساحلي الممتد من يافا حتى غزة وأسسوا عدة مدن منها اشدود وعسقلان. واسمهم في المراجع الانكليزية حالياً plaestinian وهم غير الفلسطينيين" palestinian

(٢) وهم الأقوام الذين اكتسحوا الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط- ومنهم الفلسطينيون- في القرن الثاني عشر (ق.م)، انطلاقاً من جزر بحر ايجه وكريت بل ومن صقلية وسردينية... الخ

(٣) ظهر السومريون في المنطقة الجنوبية لبلاد الرافدين، بدءاً من منتصف الألف الرابع (ق.م)، وقد اعتبرهم البعض سابقاً غرباء عن المنطقة وأظهرت دراسات مقارنة حديثة إمكانية تطوّرهم محلياً.

(٤) انحدروا إلى بلاد الرافدين عبر جبال زاغروس، في أواخر الألف الثالث (ق.م) وساهموا في القضاء على الدولة الأكدية.

(٥) من أقوام آسية الصغرى، انطلقوا من الأناضول ليقوموا بدور ملحوظ في النصف الثاني للألف الثاني (ق.م)، في البقاع الشمالية لسورية وأحياناً في بلاد الرافدين.

(٦) موطنهم الأصلي في أواسط جبال زاغروس، احتلوا مدينة بابل وورثوا ممتلكاتها ودام حكمهم نحو أربعة قرون ونصف (١٥٩٥- ١١٦٠ق.م).

(٧) أسس الحوريون الدولة الميتانية التي كان لها دور بارز في شمال بلاد الرافدين وسورية في القرنين السادس عشر والخامس عشر (ق.م).

(٨) انظر ما جاء عنهم سابقاً.

(٩) أسسوا أول دولة فارسية في منتصف القرن السادس (ق.م) ليقضي عليها الإسكندر المقدوني عام (٣٣١ ق.م).

(١٠) في العصرين الهلنستي (السلوقي / البطلمي) والروماني/ الرومي.

(١١) يقول ابن جني في "الخصّائص": "العبرة في إثبات الحرف بالنطق لا بالخطّ، لوجود اللفظ قبل الخطّ".

(١٢) قرية جنوبي بصرى، عُثِرَ فيها على أنقاض بيزنطية ونبطية وعربية.

(١٣) هو جذيمة بن مالك، أحد أوائل ملوك الحيرة التنوخيين، ويُعرف بالأبرش، ينسبه الاخباريون العرب إلى العاربة الأولى.

(١٤) موقع في حوران، في حرّة الصفا، حيث اكتشف العالم الفرنسي (دُوسُّو) في مطلع هذا القرن نقش "امرئِ القيس) وهو بالقلم النبطي المتأخر القريب من الخط العربي الباكر.

(١٥) عندما نضيف (١٠٦) عام سقوط البتراء، عاصمة الأنباط، إلى ٢٢٣ (تاريخ النقش)، نحصل على تاريخ النقش بالميلادي، وهو ٣٢٩.



الدكتور محمد محفل في سطور:

- ولد في حلب عام ١٩٢٨. وتابع المرحلة الابتدائية والإعدادية في معهد "الإخوة المريميين Freres Les Maristes". وبعد إغلاق المعاهد الفرنسية في عام ١٩٤٥، تابع الدراسة الإعدادية والثانوية في مدرسة التجهيز الأولى في حلب (المأمون) وحصل على شهادة الكفاءة والبكالورية الموحدة ١٩٤٧/١٩٤٩.
- درس في المعهد العالي للمعلمين وكلية الآداب/ قسم التاريخ عام ١٩٤٩ ونال إجازته في التاريخ ودبلوم علم النفس وعلم التربية في حزيران ١٩٥٣. ودرّس في ثانويات حلب، ١٩٥٣/١٩٥٤.
- أوفدته وزارة المعارف السورية إلى جامعة باريس Sorbonne لتحضير الدراسات العليا وشهادة الدكتوراه في التاريخ القديم.
- منحته جامعة الدراسات الإسلامية، باكستان درجة الدكتوراه بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف عام ١٩٩٩، تقديراً لإنتاجه العلمي.



درهم الحجاج بن سوسف الثقفي

سيرة الطغيان والاستبداد في حياة الحجاج بن يوسف الثقفي من خلال حكايات ألف ليلة وليلة



د.محمد عبد الرحمن يونس

باحث وقاص وروائي وأستاذ جامعي

عضو محكم في عدّة مجلات عربية

الجمهورية العربية السورية





younesmoon@hotmail.com



الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

محمد عبد الرحمن يونس ، سيرة الطغيان والاستبداد في حياة الحجاج بن يوسف الثقفي من خلال حكايات ألف ليلة وليلة.- دورية كان التاريخية.- العدد السابع ؛ مارس ٢٠١٠. ص٤٦ – ٥٢ .(www.historicalkan.co.nr)



من الولاة الّذين قدّمتهم حكايات ألف ليلة وليلة تقديماً ساخراً الحجّاج بن يوسف الثّقفي (٤٠-٩٥هـ/٦٦٠-٧١٤م)، فهو ظالم غشوم، يختطف زوجات المسلمين ويقدّمهنّ هدايا لسيّده الخليفة عبد الملك بن مروان، كما تصوّره حكاية «نعم ونعمة »، إذ تكشف الحكاية عن امرأة جميلة اسمها « نعم »، وقد كانت زوجة «نعمة بن الرّبيع »، و لم يكن بالكوفة جارية أحسن ولا أحلى ولا أظرف منها، وقد كبرت وقرأت القرآن والعلوم، وعرفت أنواع اللّعب والآلات، وبرعت في المغنى وآلات الملاهي، حتى أنّها فاقت جميع أهل عصرها »[١] وكما يشيع خبر جميع النّساء الجميلات في مدن ألف ليلة وليلة فقد شاع خبر جمال هذه المرأة في مدينة الكوفة، فيسمع بها الحجّاج، ويقرّر أن يحتال عليها ويخطفها، ويقدّمها هديّة للخليفة الأمويّ عبد الملك بن مروان. و لأنّ لعجائز ألف ليلة و ليلة قدرات متميّزة على النصب والاحتيال، فإنّ الحجّاج يلجأ إلى إحداهنّ لمساعدته في حبك الحيلة، واختطاف « نعم ». يقول الرّاوي[٢] « ثمّ استدعى بعجوز قهرمانة وقال لها: امضي إلى دار الرّبيع واجتمعي بالجارية نعم، و تسبّبي في أخذها، لأنّه لا يوجد على وجه الأرض مثلها، فقبلت العجوز من الحجّاج ما قاله».

وبطبيعة الحال، فإنّ عمليّة اختطاف الجارية سيكون لها مكافأة ماليّة كبيرة يقدّمها الحجّاج إلى القهرمانة، وهو مستعدّ لتقديم هذه المكافأة، طالما أنّ خطف هذه الجارية سيحقّق له مكافأة أهمّ، وهي زيادة حظوته عند عبد الملك بن مروان، وبالتالي تغاضي هذا الأخير عن عبث الحجّاج بالمجتمع الإسلاميّ، وتنكيله بشرفاء هذا المجتمع، كما هو معروف تاريخيّاً، إذ أسرف الحجّاج في قتل النّاس، ولم يرحم شيوخهم وهم على حافّة الموت، بل أمر بضرب أعناقهم كمال فعل مع الشّيخ عمير بن صابئ[٣]. وقد أُحصِي من قتله الحجّاج بن يوسف «فوُجِد مائةً و عشرين ألفاً، ومات و في حبسه خمسون ألف رجل، وثلاثون ألف امرأة، (...) و كان يحبس النّساء و الرّجال في موضع واحد، ولم يكن للحبس ستر يستر النّاس من الشّمس في الصّيف ولا من المطر والبرد في الشّتاء »[٤]، مع العلم أنّ جميع هؤلاء القتلى والمساجين « لم يَجِب على أحد منهم قطع ولا قتل »[٥]. ويقول راوي[٦] الحكاية: « ثمّ إنّ العجوز توجّهت إلى الحجّاج. فقال لها: ما وراءك ؟ فقالت له: إنّي نظرت إلى الجّارية فرأيتها لم تلد النّساء أحسن منها في زمانها. فقال لها الحجّاج: إن فعلت ما أمرتك به يصل إليك منّي خير جزيل. فقالت له: أريد منك المهلة شهراً كاملاً. فقال لها: أمهلك شهراً ».

وتستطيع القهرمانة خلال هذا الشّهر أن تقدّم نفسها لـ « نعمة بن الرّبيع » وزوجته « نعم » وأسرته، على أنّها مثال للزّاهدة المتعبّدة، الفانية عمرها في الرّكوع والسّجود والدّعاء والصّوم. وعندما يتأكّد كل من في الدّار أنّهم أمام سيّدة زاهدة، تختلي العجوز بالجارية « نعم » وتقول لها[٧]: « يا سيّدتي والله إنّي حضرت الأماكن الطّاهرة ودعوت لك، وأتمنّى أن تكوني معي حتى تري المشايخ الواصلين ويدعون لك بما تختارين » . وتنطلي الحيلة عليها، وعلى أمّ زوجها، عندما كان زوجها خارج منزله، إذ تقول « نعم »[٨] لأمّ زوجها: «سألتكِ بالله أن تأذني لي في الخروج مع هذه المرأة الصّالحة لأتفرّج على أولياء الله في الأماكن الشّريفة، وأعود بسرعة وقبل مجيء سيّدي ». وأمام دهاء العجوز القهرمانة وورعها الزّائف، وتوق الجارية لزيارة الأماكن

الشّريفة ، اضطرّت الأم لأن تسمح لزوج ابنها بالخروج ، وما إن تخرج الزّوجة « نعم » من دارها حتى تسارع القهرمانة بالاحتيال عليها ، وأخذها إلى قصر الحجّاج بن يوسف بالكوفة ، القصر الذي تظنّه « نعم » ، للوهلة الأولى ، مكاناً طاهراً يجتمع فيه أهل الذّكر من أولياء الله الصّالحين: « ثمّ أخذت الجارية بالحيلة وتوجّهت بها إلى قصر الحجّاج ، وعرّفته بمجيئها بعد أن أدخلتها في مقصورة ، فأتى الحجّاج ونظر إليها ، فرآها أجمل أهل زمانها ولم ير مثلها ، فلمّا رأته نعم سترت وجهها ، فلم يفارقها حتى استدعى حاجبه وأركب معها خمسين فارساً ، وأمره أن يأخذ الجارية على نجيب سابق ، ويتوجّه بها إلى دمشق ، ويسلّمها إلى أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان ، وكتب له كتاباً»[٩].

إنّ للعجائز في ألف ليلة وليلة قدرة عجيبة على المكر والإحتيال ، إذ تشير حكايات اللّيالي إلى أنّ هذه العجائز اكتسبن في حياتهنّ ، ومن خلال تعاملهنّ مع رجال عصرهنّ ونسائهنّ ، خبرة كبيرة في اصطياد الجواري الجميلات ، وتقديمهنّ للرّجال العشّاق ، مقابل مكافأة مالية. وكان الرّواة جريئين عليهنّ ، فعلى سبيل المثال نجد أنّ أحد الرّواة يصف العجوز شواهي ذات الدّواهي في حكاية « عمر النعمان وولديه شركان وضوء المكان » بالعاهرة[١٠] ، و بـ « سيّدة العجائز الماكرة و مرجع الكهّان في الفتن الثّائرة »[١١]. وفي حكاية «علي الزيبق المصري ودليلة المحتالة ابنتها زينت النّصّابة » ، يصف الرّاوي العجوز دليلة المحتالة بأنّها أخبث من إبليس الذّي كان قد تعلّم المكر منها ، فقد كانت « صاحبة حيل وخداع ومناصف وكانت تتحيّل على الثّعبان حتى تطلعه من وكره! و كان إبليس يتعلّم منها المكر! »[١٢]. والعجوز في حكاية « نعم و نعمة » متقنّعة بثياب الزّهاد ، و «في تسبيح وابتهال وقلبها ملآن بالمكر و الاحتيال »[١٣].

ولا تخلو مدينة من مدن ألف ليلة وليلة من العجائز الماكرات والمحتالات ، إلاّ أنّه من الملاحظ أنّ أهمّ المدن الإسلاميّة في ألف ليلة وليلة ، والتي تجد فيها هذه العجائز مرتعاً خصباً لممارسة عمليّات النّصب والاحتيال ، هي بالترتيب: بغداد والقاهرة و دمشق ، وبخاصّة في عهدي الدّولتين الأمويّة والعبّاسيّة. ويمكن تفسير ظاهرة النّصب والاحتيال في هذه المدن ،بأنها كانت نتيجة لتفشّي ظاهرة الطّغيان والتسلّط .في هاتين الدّولتين اللّتين حكمتا هاته المدن .من جهة ، وما رافق هذه الظاهرة من ظلم الحكّام وفجورهم وابتعادهم عن هموم شعوبهم ومصائبها من جهة أخرى. ومن هنا كانت الحيلة ، في بنيتها العميقة ، حيلة ضدّ المظالم ، وضدّ المجتمع نفسه ، بجميع تشكيلاته الطّبقيّة سياسيّاً واجتماعيّاً. وتورّط في هذه الحيلة الفقراء والأغنياء ، النّساء و الرّجال ، رجال السلطة و عامّة الشعب. فالشخصيّة المستلبة المحرومة من لقمة عيشها تحتال لأجل هذه اللقمة ، و الأغنياء يحتالون لزيادة ثرواتهم ، و الملوك و السلاطين و الخلفاء يحتالون لزيادة جواريهم و أملاكهم ، و الوزراء يحتالون على ملوكهم و بناتهم الأميرات الجميلات ، و نساء السلطة المتخمات ثراءً و بطراً يحتلن لإشباع متطلباتهنّ الجنسيّة و المحرّمة ، و نساء التجار تحتال على أزواجهن للخروج من المنازل و الوصول إلى عشّاقهنّ من الغلمان الظرفاء ، والقهرمانة العجوز في حكاية « نعم و نعمة » تجد نفسها مندفعة للتورّط في الحيلة ، لأنّها تحقّق من خلالها امتلاك الثروة من جهة ، وتأمن شرّ السلطة السياسيّة و بطشها من جهة أخرى ، فهي لا تستطيع أن ترفض طلب والٍ ظالم كالحجّاج بن يوسف الثقفي.

و قد أدّى سعار التجديد الجنسيّ عند شخوص ألف ليلة و ليلة في المدن الإسلاميّة ، في أحيان كثيرة ، إلى ظهور نوع من العجائز المحتالات ، و العارفات بفنون الصبوة و العشق و سعار الجسد ، والمتخصّصات في خطف النساء ، إلاّ أنّ حيل العجائز في الليالي ليست قصديّة ، أو ليست موجودة عند هذه العجائز لأنّ لهنّ طاقة عجيبة على الشرّ و المكر ، وعلى تعليم إبليس فنون الحيلة كما يرى أحد الرّواة ، و كما أشير إلى ذلك سابقاً ، بل لأنّ المجتمع الذي عايشته هاته العجائز هو مجتمع التّباين الطّبقي ، ومجتمع الذّكور الذي تُحرم فيه النّساء من كثير من امتيازات الرّجال ، المجتمع الذّي يلد الرّجال ، « أي ما يمكن أن نقول عنه ، بأنّ الرّجل يلد الرّجل ، والذّكر داخل ابنه الذّكر ، واسم الدّم والمنيّ داخل الابن ، وحسب هذا النّظام كانت المرأة (...) الجهيض المنحرف و الثّانوي»[١٤] و من هنا فإنّ حيلة النساء بشكل عام في اللّيالي كانت نتيجة للبنى الاقتصاديّة والاجتماعيّة والسّياسيّة الفاسدة ، التي يشكّلها الحكّام الذّكور ، ورجال السّلطة الأقوياء ، والتي يُؤذى منها ، بالإضافة إلى النّساء ، الرّجال الفقراء الفاقدون لجميع وسائل القوّة والملكيّة. ويرى أحد الباحثين أنّ « ظاهرة العجوز [المحتالة] في اللّيالي تجسيد لمعاناة الجواري والحرائر على حدّ سواء بكل جوانبها المضطربة مما جعل سلوكها في اللّيالي امتداداً للذّات المحرومة فراحت تخطّط لتحقيق آمال تعينها على سحق الحرمان بسلوك كان يعتبره المجتمع السّائد مقبولاً بالإضافة إلى خضوعه للوقائع اليوميّة في ممارسات الحياة »[١٥].

وبالعودة إلى حكاية « نعم ونعمة » يُلاحظ أنّ الحجّاج لا يعمل على العبث بأمن مواطنيه في الكوفة ، وتفريقهم عن أزواجهم ، وتهجيرهم قسريّاً عن أوطانهم ، ونشر بذور الفساد ، وذلك بتشجيع مفاهيم الاحتيال و الاختطاف فحسب ، بل هو يكذب على الخليفة عبد الملك بن مروان ، ويدّعي أنّه اشترى له الجارية الجميلة « نعم » بعشرة آلاف دينار.

يقول الرّاوي[١٦]: « فتوجّه الحاجب و أخذ الجارية على هجين ، وسافر بها وهي باكية العين من أجل فراق سيّدها ، حتى وصلوا إلى دمشق ، و استأذن على أمير المؤمنين فأذن له ، فدخل الحاجب عليه وأخبره بخبر الجارية ، فأخلى لها مقصورة. ثم دخل الخليفة حريمه فرأى زوجته ، فقال لها: إنّ الحجّاج قد اشترى لي جارية من بنات ملوك الكوفة بعشرة آلاف دينار ، وأرسل إليّ هذا الكتاب وهي صحبة الكتاب».

إنّ سلوك الحجّاج في الحكاية ، و هو يخطف النّساء ، ويؤسّس لما يهدم القيم الإنسانيّة في المدينة الإسلاميّة ، من كذب واحتيال ، وتفريق بين المحبّين ، وتهجير قسري لهم ، ليس غريباً أو بعيداً عن مجمل مواقفه وتصرّفاته التّاريخيّة التي كانت معادية لجميع مفاهيم الحقّ والعدل ، والرّحمة بالرّعيّة. وهاهو يعترف بنفسه أنّ فيه كثيراً من العيوب التي تؤكّد معاداتها للمفاهيم الإنسانيّة التي يجب أن يتحلّى بها من يصبح والياً على المسلمين ، من خلال حواره الآتي مع الخليفة عبد الملك بن مروان: « وقال عبد الملك بن مروان للحجّاج: إنّه ليس من أحد إلاّ و هو يعرف عيب نفسه ، فصِف لي عيوبك.

قال: أعْفِني يا أمير المؤمنين.

قال: لست أفعل.

قال: أنا لجوج لدود حقود حسود.

قال: ما في إبليس شرٌّ من هذا" [١٧].

ويـدين الـرّاوي فـي حكايـة « نعـم ونعمـة » جـلاوزة الحجّـاج ، وصاحب شرطته ، إذ يصوّره متقاعساً عن كشف جرائم الاختطاف التي تحدث في الكوفة ، ومتواطئاً مع سيّده الحجّاج في التّغطية على خطف « نعم » جارية « نعمة » ، إذ بعد أن تُخطف الجارية يشكّ « نعمة » بـأنّ الـذي خطـف جاريتـه هـو صـاحب الشّـرطة ، فيتوجّـه إلـى داره ، ويتوعّـده بأنّـه سيشـكوه إلـى الحجّـاج إن لـم يرجع الجاريـة لـه. يقـول الرّاوي[١٨]: « ثمّ توجّه إلى صاحب الشّرطة فقال له: أتحتال عليّ وتأخذ جاريتي من داري فلا بدّ لي أن أسافر وأشتكيك إلى أمير المؤمنين. فقال صاحب الشّرطة: ومن أخذها؟ فقال: عجوز صفتها كذا وكذا ، وعليها ملبوس من الصّوف وبيدها سُبْحة عدد حبّاتها ألوف. فقال له صاحب الشّرطة: أوقفني على العجوز وأنا أخلّص لك جاريتك. فقال: ومن يعرف العجوز؟ فقال له صاحب الشّرطة: ما يعلم الغيب إلاّ الله سبحانه وتعالى. وقد علم صاحب الشّرطة أنّها محتالة الحجّاج ، فقال له نعمة: ما أعرف حاجتي إلاّ منك وبيني وبينك الحجّاج. فقال له: امضِ إلى من شئت. ». إلاّ أنّ خيبة « نعمة بن الرّبيع » كانت شديدة عندما استمع إلى المسرحيّة الهزليّة التي افتعلها الحجّاج مع صاحب شرطته ، طالباً منه أن يبحث عـن العجـوز المحتالـة ، وعـن الجاريـة « نعـم » ، ويعيدها إلى صاحبها: « فقال [الحجّاج]: هاتوا صاحب الشّرطة فنأمره أن يفتّش على العجوز. فلمّا حضر صاحب الشّرطة قال له: أريد منك أن تفتّش على جارية نعمة بن الرّبيع. فقال له صاحب الشّرطة: لا يعلم الغيب إلاّ الله تعالى. فقال له الحجّاج: لا بدّ أن تركب الخيل وتبصر الجارية في الطّرقات وتنظر في البلدان (...) والطّرقات وتفتّش على الجارية. ثمّ التفت إلى نعمة وقال له: إن لم ترجع جاريتك دفعت لك عشر جوارٍ من دار صاحب الشّرطة »[١٩].

و عندما سمع « نعمة » ما قاله الحجّاج ، خرج يائساً وذهب إلى داره ، فشاهده والده الرّبيع بن حاتم الذي كان من أكابر أهل الكوفة ووجهائها[٢٠] ، وخبيراً عارفاً بأخلاق الحجّاج وتجاوزاته ، وتواطؤ صاحب شرطته ، وتغطيته لهذه التّجاوزات ، وتأكّد أنّ الذي خطف زوج ابنه هو الحجّاج بن يوسف الثّقفي. يقول الرّاوي[٢١]: « وخرج نعمة مغموماً وقد يئس من الحياة ، وكان قد بلغ من العمر أربع عشرة سنة ، ولا نبات بعارضيه ، فجعل يبكي وينتحب ، وانعزل في داره. ولم يزل يبكي إلى الصّباح ، فأقبل والده عليه وقال: يا ولدي إنّ الحجّاج قد احتال على الجّارية وأخذها ، و من ساعة إلى ساعة يأتي الله بالفرج من عنده ، فتزايدت الهموم على نعمة وصار لا يعلم ما يقول ولا يعرف من يدخل عليه. وأقام ضعيفاً ثلاثة أشهر حتّى تغيّرت أحواله ويئس منه أبواه ، ودخلت عليه الأطباء فقالوا: ما له دواء إلاّ الجارية ».

وما إن يصل « نعمة بن الرّبيع » إلى دمشق ، لأجل البحث عن جاريته ، حتى يكشف السّرد الحكائي عن وجود جاريته « نعم » في قصر عبد الملك بن مروان. وهنالك في قصر الخليفة تنكشف الحقيقة ، وتؤكّد أخت الخليفة أنّ الحجّاج كان كاذباً في ما ادّعاه: « فقالت أخت الخليفة: يا أمير المؤمنين إنّ هذه الواقفة هي نعم المسروقة. سرقها الحجّاج بن يوسف الثّقفي وأوصلها لك ، وكذب فيما ادّعاه في كتابه من أنّـه اشتراها بعشـرة آلاف دينـار ، وهـذا الواقـف هـو نعمـة بـن الرّبيـع سيّدها ، وأنا أسألك بحرمة آبائك الطّاهرين أن تعفو عنهما وتهبهما لبعضهما ، لتغنم أجرهما ، فإنّهما في قبضتك وقد أكلا من طعامك وشربا من شرابك ، وأنا الشّافعة فيهما المستوهبة دمهما »[٢٢].

و تؤكّد الحكاية أنّ الخليفة عبد الملك بـن مـروان عفـا عنهمـا ، ووهبهـا لبعضـهما. وقـد يتسـاءل متلقّـي الحكايـة: لِـمَ تسـتحلف أخـت الخليفة .التي لا يذكر الرّاوي اسماً لها .أخاها أن يعفو عنهما؟ وما هي الجريمة التي ارتكباها حتى يعفو عنهما؟ و ما جدوى هذا العفو مادام لا يوجـد هنـاك أيـة جريمـة؟. فبحـث « نعمـة » عـن زوجتـه هـو بحـث مشروع ، ولم يكن متجاوزاً لهيبة الخليفة وسلطاته ، مادامت الجارية الأسيرة في قصره هي زوجة رجل من رعاياه كان قد ظلمه الحجّاج والي هذا الخليفة. ولأنّ الرّاوي في هذه الحكاية مؤدلج ضدّ الوالي الظّالم الحجّاج ، و متعاطف مع سيّده عبد الملك بن مروان في آن ، فقد رأى ضرورة أن يتحلّى أمير المؤمنين بدمشق ، بالحكمة والعدل ، اللّذين يدفعانه للعفو عن « نعمة » و زوجته « نعم ». وقد اضطرّ أن يقول على لسان الخليفة: « لا بأس عليكما فقد وهبتكما لبعضكما »[٢٣]. وقد غاب عن إيديولوجية هذا الرّاوي أنّ « نعمة » و « نعم » ليسا مجرمين بحق سلطة عبد الملك بـن مروان وسياسته ، وأنّ هذا العفو في المحصّلة الأخيرة ليس كرماً من الخليفة ، ولا مأثرة من المآثر الّتي يجب أن تُذكَر له ، مادام المعفو عنهما مظلومين و مهجّرين من قبل واليه المحتال الحجّاج. ويمكـن القـول: إنّ أي رجـل عـادي سـويّ جنسـيّاً ، ومسـتقيم أخلاقيّاً ، لو وُضِع موضع الخليفة عبد الملك بن مروان لكان قد تصرّف مثله ، وأرجع « نعم » لسيّدها « نعمة ».

و من الملاحظ ، أنّه على الرّغم من أنّ عبد الملك بن مروان تأكّد أنّ واليه الحجّاج قد اعتدى على حرمة المرأة « نعم » وكرامتها ، وسلبها حرّيتها بـالخطف ، وحوّلهـا إلـى جاريـة مسـتلبة ، وهجّرهـا قسـريّاً مـن مدينتها الكوفة ، وحرمها من زوجها « نعمة ». وسبب تعاسة لهذا الزّوج كادت تفتك به ، واجترأ وكذب على الخليفة .على الرّغم من أنّه يمثّل أعلى رمز سياسيّ سلطويّ ، ودينيّ في الدّولة الإسلاميّة قاطبة ، في عهد بني أميّة .وعلى الرّغم من كل ذلك ، فإنّ الحكاية تنتهي من دون أن تشير أية إشارة إلى أنّ الخليفة عاقب واليه الحجّاج على جريمته أو أدانــه ، أو حتّــى اســتدعاه ، وســأله: لمـاذا ينتهـك حرمـات منـازل المسلمين ، ويعتدي على حرّيات المواطنين في الكوفة؟. ولقد غاب عن الرّاوي المتعاطف مع نظام السّلطة الإسلاميّة المركزيّة بدمشق ، والّتي يمثّلها عبـد الملـك بـن مـروان ، أنّ انفراج الحكاية على نهاية سعيدة ، ينعم بها أبطال الحكاية: عبد الملك بن مروان ، و « نعمة » و« نعم » ، والطبيب العجمي الذي سافر مع « نعمة » من الكوفة إلى دمشـق ، حيـث « أقاموا في أطيـب عيـش إلـى أن أتـاهم هـادم اللّذات ومفرّق الجماعات »[24] ، ليس شرطاً أن يشكّل حالة سعيدة ، أو أدنى مسـتوى مـن مسـتويات العيـش الطّيـب عنـد مـواطني الكوفـة الّـذين يتعرّضـون لمزيد من ظلم الحجّاج وانتهاكاته لحرمات منازلهم ، طالما أنّ الخليفة تجاوز عن جريمة الحجّاج ولم يعاقبه عليها ، وطالما أنّه ما دام قائماً على رأس السّلطة السّياسيّة والدّينيّة في الكوفة.

ويشير المؤرّخون ، إلى أنّ الحجّاج بقي والياً للخليفة عبد الملك بن مروان ، طوال استلام هذا الأخير لمنصب خلافة المسلمين في دمشق الأمويّة ، ولم يعزله عن العراق أو يسجنه أو يعاقبه العقاب الرّادع الّذي يجعله يكفّ عن أذى المسلمين و سجنهم وسفك دمائهم ، على الرّغم مـن معرفتـه الأكيـدة بمـا سـبّبه واليـه الحجّـاج للمسـلمين مـن أذى ومصـائب ، وتقتيـل وتنكيـل ، لأنّـه هـو الّـذي سـلّطه علـى النّـاس[٢٥] ، وأطلق يده فيهم ، وسمح له برمي الكعبة بالمنجنيق[٢٦]. وربّما كان قد آلمه أسلوب القتل والتّنكيل الّذي انتهجه الحجّاج ، لأنّه عندما بلغه أنّ

الحجّاج قتل الشّاعر عمران بن عصام العنزي[٢٧] وابن الأشعث[٢٨]، استنكر قائلاً: «قطع الله يد الحجّاج»[٢٩]. ومات عبد الملك بن مروان سنة ٨٦هـ/٧٠٥م، واستلم ابنه الوليد بن عبد الملك مقاليد الحكم، وظلّ الحجّاج والياً في عهده، منتهجاً السّياسة التي انتهجها في عهد أبيه عبد الملك، من سجن وترهيب وقتل، إلى أن مات سنة خمس وتسعين هجرية، في مدينة واسط العراقيّة[٣٠]. وبعد موته، يتأمّل الخليفة الأمويّ سليمان بن عبد الملك (٩٦ . ٩٩هـ/ ٧١٥ .٧١٧م)، ما جرى للّذين ظلمهم الحجّاج، ويسأل كاتبه يزيد بن أبي مسلم بعد أن «ازدراه ونبت عينه عنه»[٣١]، عن مصيره قائلاً: «أتظنّ الحجّاج استقرّ في قعر جهنّم أم هو يهوي فيها»[٣٢]، ويجيبه الكاتب قائلاً: «يا أمير المؤمنين، إنّ الحجّاج يأتي يوم القيامة بين أخيك وأبيك، فضعه من النّار حيث شئت»[٣٣].

إنّ الحجّاج بن يوسف الثّقفي في حكاية «نعم ونعمة» يظلم «نعمة» ويخطف جاريته، وصاحب شرطته يتغاضى عن هذا الظّلم، والخليفة عبد الملك بن مروان يتغاضى عن ظلمهما معاً. وهكذا تتسلسل حلقات المظالم، لتتشابك فيما بينها، وتشكّل حلقة واحدة متماسكة، يستحيل على الأفراد البسطاء في مدن ألف ليلة وليلة الأمويّة أو العبّاسيّة، أو الأسطوريّة، أن يخترقوها، أو يهربوا من قبضتها. وتذكّرنا هذه الحلقة من المظالم بهذه السّلسلة من الخيانات التي تتحكّم في بنية النّظام الأمويّ، من قاعدته حتى رأسه، وتنخره وتملؤه شرّاً وفساداً، والتي يذكرها ابن عبد ربّه الأندلسيّ[٣٤] قائلاً: «اطّلع مروان بن الحكم[٣٥] على ضيعة له بالغوطة فأنكر منها شيئاً، فقال لوكيله: ويحك! إنّي لأظنّك تخونني.

قال: أفتظنّ ذلك ولا تستَيقِنُه؟.

قال: و تفعله؟.

قال: نعم، والله إنّي لأخونك، و إنّك لتخون أمير المؤمنين، و إنّ أمير المؤمنين ليخون الله، فلعن الله شرّ الثلاثة».

و يتفق رواة ألف ليلة و ليلة، في الحكايات التي ذكرت الحجّاج بن يوسف الثقفي، على أنّه أهمّ ممثلي الولاة الظلمة و الاستبداديين الذين ذكرتهم الليالي، و رسمت ملامحهم، تأسيساً على الأدبيّات التاريخيّة التي ساعدت رواة الليالي على تشكيل حكاياتهم، أو نقلها بتحويرات طفيفة جدّاً. ففي حكاية «رجل من الحجيج مع المرأة العجوز» ينقل الراوي بعض ما قرأه من آراء الفقهاء في ضرورة وجود السلطان في الأمّة، حتّى و لو كان هذا السلطان جائراً، و يقول[٣٦]: «و في الأمثال: جور السلطان مائة سنة و لا جور الرعيّة بعضهم على بعض سنة واحدة، و إذا جارت الرعيّة، سلّط الله عليهم سلطاناً جائراً، وملكاً قاهراً».

ولكي يؤكّد الراوي أنّ الحجّاج بن يوسف الثقفي كان جائراً في سياسته على مواطنيه في العراق، فإنّه يُثبّت الرأي الفقهي السابق بوصفه مدخلاً، يستطيع من خلاله أن يُثبّت إيديولوجيته المعادية للحجاج، هذه الإيديولوجيّة التي تتبنّى في آن النظرية الفقهيّة السابقة التي دعا إليها بعض الفقهاء[٣٧]. و من خلال المدخل الفقهيّ السابق يثبت راوي الحكاية آراء الحجّاج بن يوسف التي يعتمدها منهجاً له في رسم سياسته الجائرة، و من ثمّ ليشير إلى استنكار الناس لهذه السياسة البعيدة عن تقوى الله و مرضاته: «ورد في الأخبار أنّ الحجّاج بن يوسف رُفِعت إليه في بعض الأيام قصّة مكتوب فيها: اتقّ الله و لا تجر على عباد الله كلّ الجور. فلمّا قرأ القصّة رقي المنبر و كان فصيحاً فقال: أيّها الناس إنّ الله تعالى سلّطني عليكم بأعمالكم فإن أنا متّ فأنتم لا تخلصون من الجور مع هذه الأعمال السيّئة لأنّ الله تعالى خلق أمثالي خلقاً كثيراً و إذا لم أكن أنا كان من هو أكثر منّي شرّاً وأعظم جوراً و أشدّ سطوةً كما قال الشاعر في معنى ذلك:

و ما من يد إلاّ يد الله فوقها *** ولا ظالم إلاّ سيبلى بأظلم »[٣٨].

و إذا كان الحجّاج يُسوّغ لنفسه جوره وساديته، و تنكيله بعباد الله في المدن الإسلاميّة التي يحكم أمرها، لأنّ لهؤلاء العباد مواقف رافضة و معادية لسياسته الدمويّة، فإنّه في نهاية المطاف لا يمثّل إلاّ وجه المستبدّ الظالم، الذي يقف وراءه نظام سياسيّ اكثر استبداداً و ظلماً منه، ليعزّز بطشه، و يُسوّغ له سياسته الساديّة المعادية لأفراد شعبه، فـ «الحكومة المستبدّة تكون طبعاً مستبدّة في كلّ فروعها من المستبدّ الأعظم إلى الشرطيّ إلى الفرّاش، إلى كنّاس الشوارع؛ و لا يكون كلّ صنفٍ إلاّ من أسفل أهل طبقته أخلاقاً، لأنّ الأسافل لا يهمّهم طبعاً الكرامة و حسن السمعة، إنّما غاية مسعاهم ان يبرهنوا لمخدومهم بأنّهم على شاكلته (...) و لهذا لا بدّ أن يكون الوزير الأعظم للمستبدّ هو اللئيم الأعظم في الأمّة، ثمّ من دونه دونه لؤماً وهكذا تكون مراتب الوزراء والأعوان حسب مراتبهم في التشريفات والقربى منه»[٣٩].

وتاريخياً تشير المصادر إلى أنّ السياسة التي كان ينتهجها الحجّاج كانت تتأسّس على خطاب استبدادي قامع، يرتكز في بنيته الأساسيّة على تهديد أهل العراق والتنكيل بهم، والسخرية منهم، حتى يستطيع إذلالهم وتسخيرهم، وليّ هاماتهم أمام سطوة النظام السيّاسيّ الذي يمثّله، فمنذ أن وصل الكوفة دخل المسجد الجامع فيها، واعتلى المنبر وخطب:

«والله إنّي لأرى رؤوساً أينعت وقد حان قطافها وإنّي لصاحبها، وإنّي لأرى الدماء ترقرق بين العمائم واللّحى، والله يا أهل العراق إنّ أمير المؤمنين نثر كنانته بين يديه، فعجم عيدانها، فوجدني أمرّها عوداً وأصلبها مكسراً فرماكم بي، لأنّكم طالما أثرتم الفتنة، واضطجعتم في مراقد الضّلال، والله لأنكّلنّ بكم في البلاد ولأجعلنّكم مثلاً في كل واد، ولأضربنّكم ضرب غرائب الإبل، وإنّي يا أهل العراق لا أعد إلا وفيت، ولا أعزم إلاّ أمضيت (...) فاستوثقوا واستقيموا واعملوا ولا تميلوا وتابعوا وبايعوا، واجتمعوا، واستمعوا، فليس منّي الإهدار والإكثار وإنّما هو هذا السّيف»[٤٠].

ولقد كان الحجّاج، في ما بعد، وفيّاً بوعده، إذ أعمل السّيف في أهل العراق وذبح رجالهم وشيوخهم، وسجن نساءهم واستأصل أموالهم[٤١]. وهاهو يعترف أمام خالد بن يزيد بن معاوية[٤٢] ذاكراً عدد الذين قتلهم كما يروي أبو الفرج الأصفهاني[٤٣]: «قدم الحجّاج على عبد الملك [بن مروان] فمرّ بخالد بن يزيد بن معاوية ومعه بعض أهل الشّام، فقال الشّامي لخالد: من هذا؟ فقال خالد كالمستهزئ: هذا عمرو بن العاص، فعدل إليه الحجّاج فقال: إنّي والله ما أنا بعمرو بن العاص، ولا ولدت عمرواً ولا ولدني ولكنّي ابن الغطاريف[٤٤] والعقائل[٤٥]، من قريش، ولقد ضربت بسيفي أكثر من مائة ألف كلّهم يشهد أنّك و أباك من أهل النّار، ثمّ لم أجد لذلك عندك أجراً ولا شكراً».

ويقدّم أحد الرّواة الحجّاج في حكاية «الحجّاج بن يوسف الثّقفي مع هند بنت النّعمان» تقديماً ساخراً. إذ يجعل زوجته هند بنت النعمان تجترئ عليه وتصفه بالكلب وتبدي فرحها الشّديد بتطليقه لها،

فعندما أراد الحجّاج طلاقها: « بعث إليها عبد الله بن طاهر يطلّقها ، فدخل عبد الله بن طاهر عليها ، وقال لها: يقول لك الحجّاج أبو محمّد إنّ لك عليه من باقي الصَّدَاق مائتي ألف درهم ، وهي هذه حضرت معي وقد وكّلني في الطّلاق فقالت: اعلم يا ابن طاهر أنّا كنّا معه والله ما فرحت به يوماً قط ، وإن تفرّقنا والله لا أندم عليه أبداً ، وهذه المائتا ألف درهم لك بشارة خلاصي من كلب بني ثقيف »[٤٦]. ومن شدّة احتقارها له فإنّها عندما تتأمّل نفسها في المرآة ترى أنّها مهرة عربيّة وأنّ زوجها الحجّاج بغل لا يستحقّها ، وتعتقد أنّ سلالتها الصافية النقيّة هي القادرة على إنجاب الأولاد المتميّزين عرقاً وأصالة ، وفي حال أنّ هذه السّلالة عجزت عن إنجاب هؤلاء الأولاد فإنّ السّبب الرئيس في ذلك يعود إلى خسّة الحجّاج ، ودونيّة منزلته ، وسلالته غير القادرة على إنجاب المتفوّقين بيولوجيّاً وعرقيّاً ، تقول[٤٧]:

« و ما هند إلاّ مهرة عربية ** سلالة أفراس تخلّلها بغل
فإن ولدت فحلاً فللّه درّها ** وإن ولدت بغلاً فجاء به البغل"

وعندما يسمع الخليفة الأمويّ عبد الملك بن مروان بحسنها وجمالها ، يرسل إليها راغباً الزّواج بها ، فتكتب إليه محتقرةً زوجها السّابق .الحجّاج : « الثّناء على الله والصّلاة على نبيّه محمّد صلّى الله عليه و سلّم ، أمّا بعد ، فاعلم يا أمير المؤمنين أنّ الكلب ولغ في الإناء»[٤٨]. و يرسل إليها مؤكّداً رأيها في الحجّاج و محتقراً له ، من خلال استناده إلى حديث من أحاديث رسول الله (ص). يقول الرّاوي[٤٩]: «فلمّا قرأ كتابها أمير المؤمنين ضحك من قولها ، وكتب لها: قوله صلّى الله عليه و سلّم « إذا ولغ الكلب في إناء أحدكم فليغسله سبعاً إحداهنّ بالتراب » وقال اغسلي القذى عن محلّ الاستعمال ».

و من ملامح احتقار الخليفة عبد الملك بن مروان لعامله الحجّاج أنّه يرضى بالشرط الذّي اشترطته هند على الخليفة حتّى تقبله زوجاً ، فقد اشترطت عليه ما يلي: « بعد الثّناء على الله تعالى يا أمير المؤمنين إنّي لا أجري العقد إلاّ بشرط فإن قلت ما الشّرط ، أقول: أن يقود الحجّاج محملي إلى بلدك التي أنت فيها ، ويكون حافياً بملبوسه الذّي هو لابسه »[٥٠]. ويوعز للحجّاج أن يقود محملها من بلدها معرّة النعمان إلى مدينة دمشق مقرّ الخلافة ، فيمتثل الحجّاج للأمر[٥١]، ويسافر من العراق إلى بلدها معرّة النعمان[٥٢] ليقود محملها إلى دمشق حافياً ذليلاً. وبقدر ما يبدو شرط هذه المرأة سخيفاً و متسلّطاً وفاقداً لأبسط مفاهيم القيم الإنسانيّة والجماليّة ، في علاقات الزّواج في المدينة الإسلاميّة ، يبدو قبول الخليفة عبد الملك بن مروان بهذا الشّرط احتقاراً ومهانة لعامله الحجّاج ، وبخاصة عندما يمشي حافياً أمام محمل زوجته السّابقة ، وهي تتشفّى منه محتقرةً. يقول الرّاوي[٥٣]: «فلمّا ركبت المحمل وركب حولها جواريها وخدمها ترجّل الحجّاج و هو حافٍ وأخذ بزمام البعير يقوده وسار بها! فصارت تسخر منه وتهزأ به وتضحك عليه مع بلاّنتها و جواريها ». هذا إذا عرفنا أنّ المسافة التي يجب على الحجّاج أن يقطعها حافياً ، و هي ما بين معرّة النعمان ودمشق ، تقدّر بحوالي أربعمائة كيلومتر.

وليس غريباً أن يقبل عبد الملك بن مروان بشرط هذه المرأة حتّى ترضى به زوجاً بعد أن سلب منه كرسيّ السّلطة حبّه للعلم والمعرفة ، والقيم الأخلاقيّة الإنسانيّة التي دعا إليها النّص القرآني ، إذ يُروى عن هذا الخليفة أنّه كان « قبل الخلافة أحد فقهاء المدينة ، وكان يُسمّى حمامة المسجد ، لمداومته على قراءة القرآن. فلمّا مات أبوه وبُشّر بالخلافة أطبق المصحف وقال: هذا فراق بيني وبينك. وتصدّى لأمور الدّنيا. وقيل إنّه قال يوماً لسعيد بن المسيّب: يا سعيد قد صرت أفعل الخير ، فلا أسرّ به وأصنع الشّر فلا أُساء به. فقال له سعيد ابن المسيّب: الآن تكامل فيك موت القلب »[٥٤].

إنّ هذا الشّرط الغرائبيّ الذي اشترطته هند على الخليفة ، وقبوله به لا يعني إلاّ شذوذاً وانحرافاً في التفكير والسّلوك ، يسعى صاحبه إلى تحقيق رغبة استبداديّة ساديّة من رغبات الخلفاء و نساء السّلطة في مدن ألف ليلة وليلة ، إذ تغيب ظاهرة الحلم والعفو عند هؤلاء ليحلّ محلّها سلوك مستبّد يُرضي طموح ذات سلطويّة مريضة ، لا ترى في شعبها إلاّ قطيعاً مهمّته أن يظلّ منقاداً لها ، و « كما تقضي الطّبيعة بأن يقود الرّاعي قطيعه ، و يتصرّف به ، وبأن يستجيب القطيع لراعيه ويتبعه ، تقضي بأن يقود الحاكم شعبه ، أي رعيّته ، ويتصرّف به ، وبأن يطيع الشّعب حاكمه ، أي راعيه ، ويتبعه (...) ففي النهاية لا يبحث الرّاعي إلاّ عن مصلحته ولذّته ، ومصير القطيع لا يتعدّى تغذية صاحبه»[٥٥].

إنّ الحجّاج في نهاية المطاف مجبرٌ على أن يلبّي مطالب الخليفة عبد الملك بن مروان ، مهما كانت قاسية عليه ، و مهينة له ، لأنّ تلبيته لهذه الأوامر هي الكفيلة ببقائه في منصبه السّلطويّ المتميّز. و إذا كانت سيرة الحجّاج التاريخيّة وصمة في جبين الخلافة الأمويّة ، وصفحات هذه السّيرة في ليالي ألف ليلة وليلة سوداء ملطّخة بسرقة نساء المسلمين ، والتّحايل عليهنّ ، والاعتداء على حرّياتهنّ الشّخصيّة ، كما أشير إلى ذلك[٥٦]. فإنّ هذه السيرة .ووفق المنطق الإنساني و العقلاني .لا تُسوّغ للخليفة عبد الملك بن مروان إذلاله واحتقاره لواليه الحجّاج ، وإجباره على أن يمشي حافياً من معرّة النعمان إلى دمشق ، إرضاءً لرغبة امرأة جميلة ، يشتهيها ، لمجرّد أنّه سمع بجمالها الأخّاذ . فالحجّاج طلّق هند بنت النّعمان ، مثلما يطلّق أيّ رجل امرأته و أعطاها مهرها ، استناداً إلى نصوص تجيز له ذلك ، مستمدّة من تشريعات النّكاح الإسلامي .بناؤه وهدمه .و لا تشير الحكاية بأيّة إشارة إلى أنّ الحجّاج عندما طلّق زوجته أهانها أو احتقرها ، ومع ذلك أهانه سيّده عبد الملك بن مروان شرّ إهانة ، إرضاءً لرغبة هذه المرأة المستبدّة.

ومن مظاهر احتقار هذه المرأة لزوجها الحجّاج ، كما يقول الرّاوي[٥٧]: إنّها « لم تزل تضحك وتلعب إلى أن قربت من بلد الخليفة فلمّا وصلت إلى البلد ، رمت من يدها ديناراً على الأرض وقالت له: يا جمّال إنّه سقط منّا درهم! فنظر الحجّاج إلى الأرض فلم ير إلاّ ديناراً ، فقال لها: هذا دينار ، فقالت له: بل هو درهم ، فقال لها: بل هو دينار ، فقالت: الحمد لله الّذي عوّضنا بالدّرهم ديناراً ، فناولني إيّاه فخجل الحجّاج من ذلك ». ويمكن القول ، تأسيساً على سلوك عبد الملك بن مروان مع واليه الحجّاج: إنّه لا أمان لأيّ رجل في مدن ألف ليلة وليلة ، مهما كان عالي القدر ، في ما إذا كان متزوّجاً من امرأة جميلة ، سمع بها الخليفة واشتهاها ، على الرّغم من طلاق هذا الرجل لهذه المرأة في ما بعد. وعلى سبيل المثال: لقد عبّرت إحدى جواري ألف ليلة وليلة في بغداد عن خوفها على حياة حسن البصريّ ، في ما إذا سمع الخليفة هرون الرشيد بجمال زوجته منار السنا وسحرها. و حذّرت سيّدتها زبيدة من أن يسمع الخليفة بجمال هذه الزوجة ، قائلةً[٥٨]: «وحقّ نعمتك يا سيّدي إن عرف بها أمير المؤمنين قتل زوجها و أخذها منه ، لأنّه لا يوجد مثلها واحدة من النساء و قد سألت عن زوجها ، فقالوا إنّ زوجها رجل تاجر اسمه حسن البصري (...) و أنا أخاف يا

سيّدي أن يسمع بها أمير المؤمنين فيخالف الشرع و يقتل زوجها ويتزوّج بها! ».

و إذا كان الخليفة عبد الملك بن مروان في حكاية « الحجّاج بن يوسف الثقفي مع هند بنت النعمان » قد أهان أهمّ رموز سلطته – واليه الحجاج .إرضاءً لرغبة طليقته ، فكيف تكون حال الرجل العادي في دولة الخلفاء ، فيما إذا رغبت طليقته الجميلة في إذلاله ، و بخاصّه إذا كانت هذه الطليقة الجميلة عشيقة لأحد الخلفاء أو الأمراء ؟. بلا شكّ يمكن أن يُغتال ، أو يُسجن أو يُنفى ، فيما إذا رغبت هذه الطليقة الانتقام منه ، لأنّ الرعيّة في دول خلفاء و ملوك ألف ليلة و ليلة مجبرة على أن تكون مملوكة لهؤلاء الخلفاء و الملوك ، و عاجزة عن أن تقول لهم: لا ، فيما إذا اعتدوا عليها و على أملاكها ، فـ « العلاقة بين الحاكم والمحكوم (...) ليست أكثر من علاقة بين مالك و مملوك ، فالحاكم يملك رعيّته و الرعيّة ملك لحاكمها ، و الحكم مُلك ، أو نوع من أنواع الملك »[٥٩].

و إذا كان الخليفة عبد الملك بن مروان قد عاقب واليه الحجّاج هذه العقوبة المهينة والمشينة ، في الحكاية السابقة ، على الرغم من عدم خطئه ، فإنّه في حكاية « نعم و نعمة » لم يعاقبه على الرغم من خطئه الفادح باحتياله على « نعم » و سرقتها ، و السفر بها إلى دمشق ، و تقديمها له هدية ، وكذبه عليه. و هنا يبدو موقف الخليفة طبيعيّاً ، لأنّ الحجّاج وظّف انتهاكاته للحرمات في حكاية « نعم ونعمة» من أجل إرضاء الخليفة عبد الملك بن مروان ، فالخليفة مسرور منه لأنّه أرسل إليه تلك المرأة الحسناء « نعم ». أمّا في حكاية « الحجّاج مع هند بنت النعمان » فإن مصلحة الخليفة تقتضي أن يذلّ واليه الحجاج لكي ترضى به الحسناء الأخرى ـ هند بنت النعمان ـ زوجاً لها. إنّ الآليّة الذهنيّة و السلوكيّة التي ينطلق منها الخلفاء .في ألف ليلة و ليلة .في قراراتهم و طبيعة أحكامهم تهدف- بالدرجة الأولى- إلى تحقيق مصالحهم ، و طموحاتهم ، و غاياتهم ، وملذّاتهم[٦٠].

و يبدو أنّ الخليفة عبد الملك بن مروان في النصوص التاريخيّة ، كان يعرف أنّ واليه الحجّاج ظالم و سفّاك ، و كان يحتقره على الرغم من أنّه يده الطولى التي كانت تفتك بجميع معارضي نظام حكمه ، و توجّهاته السياسيّة. و لأنّه كان اليد الفاتكة بخصومه ، فقد أبقاه والياً على العراق إلى حين وفاته .وفاة عبد الملك بن مروان ـ و ها هو يكتب إليه محذّراً من استفحال ظلمه و تجاوزاته ، و استيلائه على أموال الناس ، و إسرافه في عقوبتهم ، و سفكه لدمائهم: « أمّا بعد ، فقد بلغ أمير المؤمنين سَرَفُك في الدماء ، و تبذيرك في الأموال ، و لا يحتمل أمير المؤمنين هاتين الخصلتين لأحد من الناس ، و قد حكم عليك أمير المؤمنين في الدماء: في الخطأ الديّة ، و في العَمْد القوَدُ[٦١] ، و في الأموال ردّها إلى مواضعها ، (...) و سيأتيك من أمير المؤمنين أمران: لينٌ و شدّة فلا يؤنسنّك إلاّ الطاعة ، و لا يوحشنّك إلاّ المعصية ، و ظُنّ بأمير المؤمنين كلّ شيء إلاّ احتمالك على الخطأ ، و إذا أعطاك الظفر على قوم فلا تقتلنّ جانحاً و لا أسيراً ، و كتب في أسفل كتابه:

"إذا أنت لم تترك أموراً كرهتها (...) و تطلب رضائي بالذي أنا طالبه
فلا لا تلمني و الحوادث جَمّة فإنّك مَجزيّ بما أنت كاسبه"[٦٢].

و على الرغم من معرفة عبد الملك بن مروان بسلوك واليه الحجّاج الدمويّ ، فإنّه كان يرفض أن يُذَمّ أمامه ، بل كان يدافع عنه و يوبّخ من يذكره بسوء. و يُروى أنّ إبراهيم بن محمد بن طلحة الذي كان من خاصّة الحجّاج ، و ذا منزلة عظيمة عنده ، قدم إلى عبد الملك بن مروان ، و طلب منه أن يستمع إلى نصيحته التي لا يجد بُدّاً من ذكرها ، فسمح له عبد الملك ابن مروان قائلاً: « يا بن طلحة ، قل نصيحتك. فقال: تالله يا أمير المؤمنين ، لقد عَمَدت إلى الحجّاج في تغطرسه وتَعجْرُفه و بعده من الحقّ و قربه من الباطل ، فولّيته الحرمين[٦٣] ، وهما ما هما و بهما ما بهما من المهاجرين و الأنصار و الموالي الأخيار يَطؤهم بطغَام[٦٤] أهل الشام ، و رَعَاع لا رويّة لهم[٦٥] في إقامة حقّ و لا في إزاحة باطل ، و يسومهم الخَسْف[٦٦] و يحكم فيهم بغير السنّة ، بعد الذي كان من سَفْك دمائهم ، وما انتُهك من حُرَمِهم (...) ، فقال له عبد الملك كذبْتَ (...) و ظنّ بك الحجّاج ما لم يجده فيك ، و قد يُظنّ الخير بغير أهله ، قمْ فأنت الكاذب... »[٦٧].

و يبدو أنّ سيرة الحجّاج الدمويّة كانت محلّ استهجان و ذمّ عند معظم الفقهاء والمؤرخين الإسلاميّين. و يُروى أنّه « قيل للشعبيّ[٦٨]: أكان الحجّاج مؤمناً ؟ قال: نعم بالطاغوت. و قال: لو جاءت كلّ أمّة بخبيثها ، و فاسقها ، و جئنا بالحجّاج وحده لزدناه عليهم و الله أعلم »[٦٩]. وها هو الدميريّ يذمّ الحجّاج قائلاً[٧٠]: « اللعين الحجّاج أخزاه الله و قبّحه».

و ليست ملامح الحجّاج في ألف ليلة و ليلة بعيدة في الغرابة والتخيّل ، بل يُمكن القول: إنّها قريبة إلى حدّ ما من ملامحه التاريخيّة ، كما أرّخت لها المصادر الكثيرة ، و هي في هذا لا تختلف عن ملامح الخلفاء الأمويّين و العبّاسيّين من حيث نقاط الالتقاء الكثيرة بين ملامحهم التاريخيّة ، و ملامحهم في نصوص ألف ليلة وليلة الحكائيّة.

الهوامش

(١) مؤلف مجهول: ألف ليلة و ليلة ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، د. ت ، ٣٢٤/٢.

(٢) م ن ، ٣٢٥/٢.

(٣) الأبشيهي ، شهاب الدين محمد بن أحمد (ت ٨٥٠/١٤٤٦م): المستطرف في كلّ فن مستظرف ، تحقيق المكتب العالمي للبحوث ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، طبعة ١٩٨٩م ، ٨٢/١.

(٤) المسعودي ، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي (ت ٣٤٦هـ/٩٥٧م): مروج الذهب و معادن الجوهر ، تحقيق: عبد الأمير مهنّا ، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤١١هـ/١٩٩١م ، ١٨٧/٣.

(٥) الأبشيهي: المستطرف في كل فن مستظرف ، ٨٣/١.

(٦) ألف ليلة وليلة ، ٣٣٦/٢.

(٧) م ن ، ٣٢٧/٢.

(٨) م ن ، ٣٢٧/٢.

(٩) م ن ، ٣٢٧/٢.

(١٠) ألف ليلة وليلة ، ٣٥١/١.

(١١) م ن ، ٣٥٧/١.

(١٢) م ن ، ١١٢/٤.

(١٣) م ن ، ٣٢٥/٢.

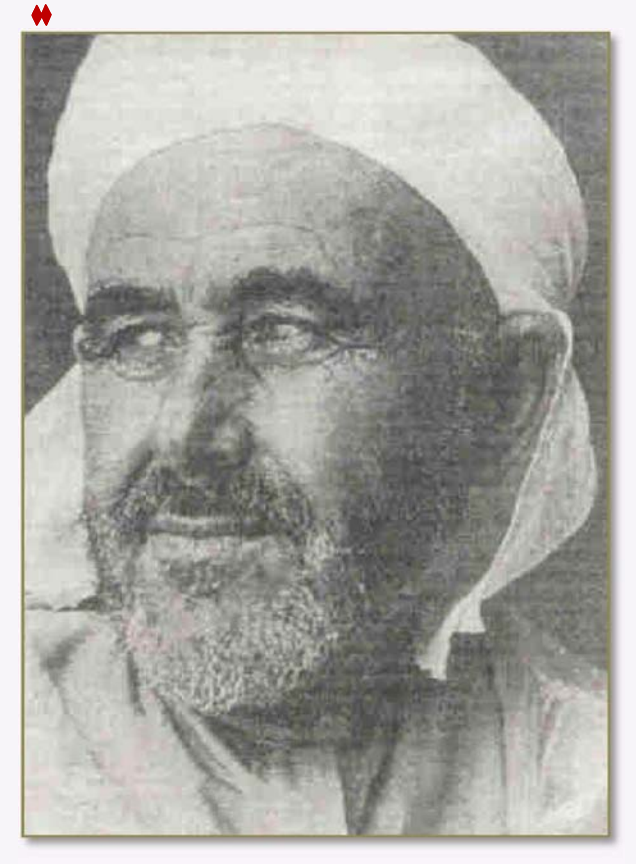
(١٤) الخطيبي ، د. عبد الكبير: في الكتابة والتجربة ، ترجمة د.محمد برّادة ، دار العودة ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٨٠م ، ص ١١٧.

(١٥) الملاّح ، عبد الغني: رحلة في ألف ليلة و ليلة ، المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٨١م ، ص٤٨-٤٩.

(١٦) ألف ليلة وليلة ، ٣٢٩/٢-٣٣٠.

(١٧) ابن عبد ربه، أبو عمر أحمد بن محمد الأندلسي (ت٣٢٨هـ/٩٤٠م): العقد الفريد، شرح كرم البستاني، دار المسيرة، بيروت، الطبعة الثانية ١٩٨١م، ٢١٠/٦.
(١٨) ألف ليلة وليلة، ٣٢٩/٢-٣٣٠.
(١٩) ألف ليلة وليلة، ٣٣٠/٢.
(٢٠) م ن، ٣٣٠/٢.
(٢١) م ن، ٣٣٠/٢.
(٢٢) م ن، ٣٤١/٢.
(٢٣) ألف ليلة وليلة، ٣٤١/٢.
(٢٤) م ن، ٣٤٢/٢.
(٢٥) ابن طباطبا، محمد بن علي (ت٧٠٩هـ/١٣٠٩م): الفخري في الآداب السلطانيّة و الدول الإسلاميّة، دون محقّق، دار صادر، بيروت، د. ت، ص١٢٢.
(٢٦) م ن، ص١٢٣.
(٢٧) عمران بن عصام العنزي: (... نحو ٨٥هـ/ ... نحو ٧٠٤م): خطيب شاعر، من الشّجعان. اشتهر في أيام عبد الملك ابن مروان. وخاطبه بأبيات يثني بها على الحجّاج. ونشبت فتنة ابن الأشعث، فاتّهمه الحجّاج بالانحياز إليه وطلبه حتى قتله.
(٢٨) ابن الأشعث: (عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بن قيس الكندي، ... . ٨٥هـ/ ... . ٧٠٤م): أمير، من القادة الشّجعان، وهو صاحب الوقائع مع الحجّاج الثّقفي، فقد كان قائداً من قادته، ثمّ عارضه ومعه مجموعة من أصحابه، واتّفقوا على نبذ طاعته، ثم بايعه أصحابه على خلع الحجّاج وإخراجه من أرض العراق، و على خلع عبد الملك بن مروان أيضاً. نشبت بينه وبين جيوش الحجّاج و عبد الملك بن مروان معارك انتصر فيها، وتمّ له ملك سجستان وكرمان والبصرة وفارس (إلاّ خرسان) . لكنّه انهزم في النّهاية وقُتل، وأرسل برأسه إلى الحجّاج فأرسله هذا إلى عبد الملك بن مروان بالشام.
- الزركلي، خير الدين: الأعلام، ٣٢٣/٣. ٣٢٤.
(٢٩) الأصفهاني: الأغاني، ٢٧٥/١٧.
(٣٠) المسعودي: مروج الذّهب ومعادن الجوهر، ١٨٧/٣.
(٣١) الحُصْري، أبو إسحاق إبراهيم بن علي (ت ٤٥٣هـ/١٠٦١م): زهر الآداب و ثمر الألباب، اختار النصوص و قدّم لها: قاسم محمد وهب، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، طبعة ١٩٩٦م، ٤١٢/٣.
(٣٢) العقد الفريد، ٩٠/٥.
(٣٣) م ن، ٩٠/٥.
(٣٤) العقد الفريد، ٥١/١.
(٣٥) مروان بن الحكم: (ابن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس، (٢-٦٥هـ/٦٢٣. ٦٨٥م): هو الخليفة الأمويّ الرّابع بعد معاوية بن أبي سفيان، ويزيد بن معاوية، ومعاوية بن يزيد، استلم الخلافة سنة ٦٤هـ/٦٨٤م، دافع عن الخليفة عثمان بن عفّان، واشترك في معركة الجّمل، ضبط المقاييس والموازين. مات بالطاعون في دمشق. أنظر: العلايلي، عبد الله ؛ و آخرون: المنجد في الأعلام، دار المشرق، بيروت، الطبعة العاشرة ١٩٨٠م، ص٦٥٦.
(٣٦) ألف ليلة و ليلة، ٢٢٧/٣.
(٣٧) والتي ربّما تتبنّى بعض النصوص الغائبة الأخرى التي تلتقي من قريب أو من بعيد بهذه النظرية. و قد يكون منها قول الحكماء: "إمام غشوم خير من فتنة تدوم". [العقد الفريد، ١٤/١.]. و: "إذا أراد الله بقوم خيراً استعمل عليهم الحلماء (...) و إذا أراد الله بقوم بلاءً استعمل عليهم السفهاء.". أنظر: أبو يوسف، يعقوب بن إبراهيم (ت١٨٢هـ/٧٩٨م): كتاب الخراج، دار المعرفة، بيروت/مؤسسة نشر منابع الثقافة الإسلاميّة، قم (إيران)، طبعة ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، ص ٩.٨.
(٣٨) ألف ليلة و ليلة، ٢٢٧/٣. ٢٢٨.
(٣٩) الكواكبيّ، عبد الرحمن: طبائع الاستبداد، دار الشرق العربي، بيروت/حلب، الطبعة الثالثة ١٤١١هـ/١٩٩١م، ص٦٤-٦٥.
(٤٠) الأبشيهي، شهاب الدين محمد بن أحمد (ت ٨٥٠/١٤٤٦م): المستطرف في كلّ فنٍ مستظرف، تحقيق المكتب العالمي للبحوث، دار مكتبة الحياة، بيروت، طبعة ١٩٨٩م، ٨١/١.
(٤١) م ن، ٢٠٧/١.
(٤٢) خالد بن يزيد بن معاوية: (ابن أبي سفيان، ... ٩٠هـ/... ٧٠٨م): حكيم قريش وعالمها في عصره. اشتغل بالكيمياء والطبّ والنجوم، فأتقنها وألّف فيها رسائل. وشكّ ابن الأثير في بعض نواحي علمه، فقال: "يُقال: إنّه أصاب علم الكيمياء ولا يصحّ ذلك لأحد". نقل الكتب من اللسان اليوناني و القبطي إلى العربي. وهو خطيب شاعر، و فصيح جامع، جيّد الرأي، كثير الأدب، وهو أوّ من ترجم كتب النجوم والطبّ و الكيمياء. تُوفّيَ في دمشق. راجع:
الزركلي، خير الدين: الأعلام، ٣٠٠/٢. ٣٠١.
(٤٣) الأغاني، ٣٤٤/١٧ – ٣٤٥.
(٤٤) الغطاريف: مفردها غِطْريف: الشاب الظّريف، السّخي، السّيد، المحسن.
(٤٥) العقائل: مفردها عقيلة: المرأة الكريمة، السّيدة في قومها.
(٤٦) ألف ليلة وليلة، ٩٢/٤.
(٤٧) ألف ليلة وليلة، ٩٢/٤.
(٤٨) م ن، ٩٣/٤.
(٤٩) م ن، ٩٣/٤.
(٥٠) م ن، ٩٣/٤.
(٥١) م ن، ٩٣/٤.
(٥٢) مع ملاحظة أنّ راوي الحكاية في ألف ليلة وليلة لا يذكر اسم بلد عبد الملك بن مروان ولا اسم بلد هند بنت النّعمان، في حين أنّ الأبشيهي يذكر. راجع: المستطرف في كل فن مستظرف، ٨٤/١.
(٥٣) ألف ليلة وليلة، ٩٣/٤.
(٥٤) ابن طباطبا: الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلاميّة، ص١٢٢.
(٥٥) نصّار، د. ناصيف: منطق السّلطة – مدخل إلى فلسفة الأمر، دار أمواج، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٥م، ص ٣٧.
(٥٦) وذلك أثناء دراسة ملامحه في حكاية "نعمة ونعم" في الصّفحات السّابقة.
(٥٧) ألف ليلة وليلة ٩٤/٤.
(٥٨) م ن، ٢٩٥/٤.
(٥٩) نصّار، د. ناصيف: منطق السّلطة – مدخل إلى فلسفة الأمر، ص ٣٧.
(٦٠) ويلاحظ أنّ الحاكم في معظم حكايات ألف ليلة وليلة لا يرى في جميع ولاته ووزرائه إلاّ خدمً أذلاء مطيعين لكل ما يصدر عنه من أوامر استبدادية.
(٦١) القَوَد: القصاص، و قتل القاتل بدل القتيل. أنظر:
المنجد في اللغة، مادة: قود، ص ٦٦٠.
(٦٣) الحَرَمان: مكّة و المدينة.
(٦٤) الطَغَام: أوغاد الناس.
(٦٥) الرَوِيّة: التفكّر و النظر في الأمر.
م ن، مادة: روى، ص ٢٨٩.
(٦٦) سامه الخسْف: أي أهانه و كلّفه المشقّة.
المنجد في اللغة، مادة: خسف، ص ١٧٩.
(٦٧) ابن عبد ربّه الأندلسي: العقد الفريد، ١٢٤/٤. ١٢٥.
(٦٨) الشعبي: (عامر بن شراحيل الشعبي الحميري، ١٩-١٠٣هـ/٦٤٠-٧٢١م): راوية، يُضرب المثل بحفظه. وُلِد ونشأ ومات بالكوفة. اتّصل بعبد الملك بن مروان، فكان نديمه وسميره ورسوله إلى ملك الروم. وسُئِل عمّا بلغ إليه حفظه، فقال: ما كتبت سوداء في بيضاء، ولا حدّثني رجل بحديث إلاّ حفظته. وهو من رجال الحديث الثقاة، استقضاه عمر بن عبد العزيز، وكان فقيهاً شاعراً. أنظر:
الزركلي، خير الدين: الأعلام، ٢٥١/٣.
(٦٩) الأبشيهي: المستطرف في كل فن مستظرف، ٨٣/١.
(٧٠) الدّميري، كمال الدين محمد بن موسى (ت٨٠٨هـ/١٤٠٦م): حياة الحيوان الكبرى، دون محقّق، دار الألباب، بيروت/دمشق، د. ت، ٨١/١.

مذكرات الأمير الخطابي





حسن البدوي
كاتب وباحث في التاريخ الحديث والمعاصر
باحث مصري مقيم في دولة قطر
hassan_elbadawy@hotmail.com

عكف الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي خلال سنواته الأخيرة على تدوين ملحمة الريف الجهادية ، التي خاضها هو ورفاقه من أجل حرية وكرامة بلادهم ، فترك لنا إرثاً ضخماً من المعلومات التي أرخت لفترة خطا فيها شعب شمال إفريقيا آخر الخطوات نحو استقلاله التام والناجز ، ترك لنا الأمير الخطابي مذكراته شهادة على العصر الذهبي لكفاح شمال إفريقيا ، ونحمد الله على أن جعل لنا السبق في الإطلاع ودراسة تلك المذكرات التي طالما أشغلت الكثيرين ، ترى ماذا قالوا عن تلك المذكرات وما هي قيمتها الحقيقية ؟

كتب الصحفي المصري محمد دياب في مقال له بجريدة الجمهورية: في آخر مرة التقيت فيها بالبطل المغربي الأمير الخطابي رأيت البسمة ترتسم على وجهه ، وكان راضياً كل الرضا ، ويومها فاجئني بنبأ مُثير وقال لي:-

- لقد انتهيت.
- من ماذا ؟
- انتهيت اليوم من كتابة مذكراتي.
- فعرفت سر ابتسامته ، لقد بدأ الأمير يكتب مذكراته في السنوات الأخيرة وكان يُكرس كل وقته لكتابتها ، وكنت أتتبع جهوده لإتمام هذا العمل الكبير ، وكان يُخبرني بالعروض التي تنهال عليه من كبريات الصحف العالمية لشراء حق نشر تلك المذكرات ، إن مذكرات الخطابي وثيقة تاريخية هامة سيتغير أمام حقائقها تاريخ المغرب العربي كله ، إنها سجل حافل لذكريات أربعين عام من الحرب والسلام ، وفي هذا اللقاء حدثني الزعيم الكبير عن كثير من المعارك والأحداث التي تضمنتها مذكراته ، فسألته:
- ما دامت المذكرات قد تمت ، فلماذا لا تعهد بها إلى الصحف ودور النشر ؟
- صمت الأمير قليلاً ، ثم قال:
- إنني رجل فقير ومحتاج لثمن جهدي في كتابة المذكرات ، ولكن هل هذا كل شيء ؟
- لكن تاريخك ليس ملكاً لك ، إنه ملك لكل العرب !
- قال الأمير في حياء وتواضع: لكنني لا أثق في الصحف التي تقدمت بعروضها المغرية ، إن تلك الصحف تتكلم باسم الاستعماريين ، وأنا قضيت عمري في محاربة الاستعمار ، وأخشى أن يُحرفوها ، إنني أعرفهم جيداً لقد زيفوا كثير من الحقائق عندما كتبوا عن حرب الريف.
- أليست الصحافة العربية أولى بمذكرات بطل مثلك ؟ صمت الأمير ولم يرد على سؤالي ، وقد ارتسمت على وجهه وأنا استأذنه في الانصراف مسحة من الألم ، عرفت سرها فيما بعد ، إذ أن أشهر صحف العالم سعت إليه تعرض نفسها ، لكن صحيفة عربية واحدة لم تسع إليه ، ولم يكن الأمير الخطابي بالرجل الذي يعرض نفسه[1].

---

١ - محمد دياب: صفحة من مذكرات الأمير عبد الكريم الخطابي - جريدة الجمهورية "المصرية" بتاريخ ١٩٦٣/٣/١٩م ، ونشر تحت نفس العنوان في مقال نشر بمجلة صباح الخير "المصرية" في عددها الصادر يوم ١٩٦٣/٦/٦م ، وورد بكتاب محمد سلام أمزيان: الأمير عبد الكريم الخطابي - الجزء الخامس - ص٢٩٣ وما بعدها.

الاستشهاد المرجعي بالمقال:
حسن البدوي ، مذكرات الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي.- دورية كان التاريخية.- العدد السابع ؛ مارس ٢٠١٠. ص ٥٣ – ٥٦.

(www.historicalkan.co.nr)



كان الأمير الخطابي عندما يُسئل عن المذكرات يقول "إن مذكراتي جاهزة وعدد صفحاتها ٣٠٠٠، وفيها كل شيء، لكني لن أنشرها الآن"[٢]، كتب الصحفي جمال سليم بجريدة الجمهورية عن الأمير قائلاً: "كنت أسأله عن مذكراته - مذكراته عن حرب الريف وعن المنفى - فكان يقول لي أنه نشر بعضها، وكنت أثق أن بعضها الذي نشره لا يُمثل إلا المقدمات، فحرب الريف هي الحرب الوحيدة التي لم تحظ بدراسة مُنصفة من الباحثين والمؤرخين سواء العرب أو الأجانب، لذا كان لابد من إلقاء الضوء عليها وبعث البطولات التي خاض غمارها، وإعادة الروح إلى فترة من أخصب فترات التاريخ العربي، وكان يقول لي إن بقية المذكرات لن تنشر الآن، وإن البعض الذي أحبسه عندي مُجرد إشارات ضوئية قد تكشف كثير من الدُمى اللاعبة على مسرح السياسة.

كنت أسأله دائماً عن معارك حرب الريف فيقول: "أتريد أن أتحدث عن أعمالي ؟ أتريد أن أقول لك إننا كنا نستشهد في كل معركة ؟ نعم لقد كنا نواجه الموت في كل معركة، وكنا نخرج من كل معركة بعمر جديد"[٣].

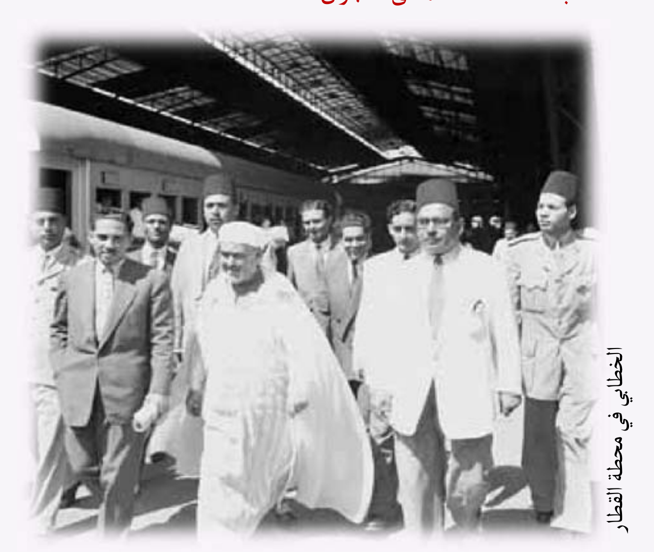
قبل وفاة الأمير الخطابي بأيام اتصلت به شركة أمريكية تعرض عليه أن يبيعها قصة حياته ومعركته، لكن الأمير رفض مُعتذراً بأن الوقت لم يحن بعد لنشر مذكراته، التي ظل يُنقحها حتى سقط القلم من يده[٤].

على أي حال فقد أتيح للكاتب الإطلاع على ما خطه الأمير الخطابي في المذكرات مُسجلاً رحلة كفاحه بالريف، التي حارب خلالها كل من أسبانيا وفرنسا، حتى كان ما كان من أمر نفيه عام ١٩٢٦م إلى جزيرة رينيون، التي بقى بها لأكثر من عقدين من الزمان، حتى غادرها ونزول بمصر عام ١٩٤٧م، أما المذكرات فقد جاءت في ثلاثة كتب على النحو التي:-

الكتاب الأول: "مأساة مُراكُش" جزء واحد.

الكتاب الثاني: "الشعب يواجه الاستعمار الأسباني" جزء واحد.

الكتاب الثالث: "المنفى" جزآن.



الخطابي في محطة القطار

٢ - رأيت الأسد في فراشه: مقال نشر بجريدة الأخبار "المصرية" في عددها الصادر يوم ١٩٥٩/١/٢٤م.

٣ - جمال سليم: جريدة الجمهورية "المصرية" - بتاريخ ١٩٦٣/٢/٨م.

٤ - من مقال الصحفي حمدي فؤاد منشور بجريدة الأهرام "المصرية" في عددها الصادر يوم ١٩٦٣/٢/٨م.

كان الأمير الخطابي قد شرع في كتابة المذكرات عقب وصوله إلى مصر بعد أن ألح عليه الكثيرين بضرورة تسجيل تلك الملحمة المغربية الكبرى، لتكون مرجعاً لشباب الأمة، فكان على الأمير الخطابي قبل أن يشرع في كتابة مذكراته أن يستجمع كل ملكاته لتذكر الأحداث التي جرت بالريف قبل أكثر من أربعين عاماً، كما كان عليه الاستعانة ببعض من عايشوا تلك الأحداث وشاركوا فيها، ولم يكن ليساعد الأمير في تلك المسألة سوى أفراد أسرته النبلاء، الذين لم يكونوا سوى بعض جنوده ورجاله خلال الحرب الريفية، وكان على رأس هؤلاء شقيقه أمحمد الخطابي الذي كان قد تولى قيادة الجبهة الغربية والجنوبية خلال حرب الريف، كذلك كان عمه عبد السلام الذي كان أمين سر الحكومة الريفية وحافظ مستنداتها وماليتها، كذلك كان محمد أمغار بن زيان كبير يورانه وممثله في المفاوضات التي جرت مع الأسبان إبان الحرب الريفية، ولم يكن هؤلاء الذين ذكرناهم على قيد الحياة وقت كتابة الأمير لمذكراته وفقط، بل كانوا يعيشون معه في القاهرة أيضاً.

لما كانت كتابة مثل تلك المذكرات بحاجة إلى من يقوم بنسخها على الآلة الكاتبة - وسيلة الكتابة آنذاك - لذا استعان الأمير الخطابي بعدة أشخاص تناوبوا على القيام بهذا العمل خلال عدة سنوات، وهم (علي الحمامي) من الجزائر، و(محمد عبد الوارث الصوفي)[٥] من مصر، و(محمد سلام أمزيان) من المغرب، إضافة إلى (محمود الكبير) من مصر، وذكر هذا الأخير في كتابه "بطل الجناح الأيسر" أنه هو الذي أشار على الأمير الخطابي بكتابة المذكرات وأنه اشترك في كتابتها.

لما كانت المذكرات قد تناوب على كتابتها عدة أشخاص كما ذكرنا، لذا نجد فروقاً في صياغتها وكتابتها، هذا كون الأمير الخطابي كان يسرد لهم الأحداث والوقائع شفاهة ليكتبوها، ثم يقوم هو بمراجعتها وتصويب ما يجده بها من أخطاء في الكتابة أو في سير الأحداث؛ وعلى هذا فقد توفرت لدينا عدة نسخ لمذكرات الأمير الخطابي، ففي الوقت الذي نجد فيه إحدى النسخ التي كتبها المرحوم علي الحمامي مثلاً تسجل فترة طويلة تضم أحداث الريف والمنفى معاً، نجد أن محمد أمزيان قد دون أحداث المنفى فقط في جزأين كاملين.

حقيقة فإن توفر عدة نسخ من المذكرات على هذا النحو جعلنا نلم بتفاصيل الأحداث، إذ جاءت المعلومات مُكملة لبعضها البعض مطمئنة لنا على صحتها، خاصة وأن الأمير الخطابي كان قد اطلع عليها جميعاً وصوبها بنفسه كما ذكرنا، وقد رأى الكاتب بنفسه تصويبات الأمير الخطابي بخط يده وبالقلم "الرصاص" والتي لا تكاد تخلو منها إحدى صفحات المذكرات.

جدير بالذكر أن المذكرات لم تكن النتاج الوحيد لتاريخ الأمير الخطابي الجهادي، فقد شاركتها في ذلك عشرات الوثائق والمستندات التي ألحقناها بهذا الكتاب، إضافة إلى ما كتبه الأمير الخطابي من آراء فيما يجري في العالم من أحداث، فعلى سبيل المثال عثر الكاتب ضمن أوراق الأمير الخطابي على كتاب تربو صفحاته عن مئة صفحة نسخت بالآلة الكاتبة، أورد فيه الأمير رأيه في القومية العربية، وأوضح فيه موقفه من القائد المصري جمال عبد الناصر، أما المذكرات فقد جاءت مُفصلة على النحو التالي:

٥ - أخبر الأستاذ/ سعيد الخطابي نجل الأمير الخطابي الكاتب في أحد اللقاءات بأن عبد الوارث الصوفي كان واحداً ممن شاركوا في كتابة مذكرات الأمير الخطابي.



الكتاب الأول: "مأساة مُراكُش" جزء واحد

استعرض الأمير الخطابي في هذا الكتاب أحوال المغرب شعباً وفكراً وموارداً، في الفترة التي سبقت الاستعمار الأوربي لأراضيه، مروراً بما أصاب سلاطينه من فتور وضعف أدى إلى تفشي الانحلال وخروج البعض عن طاعة أولي الأمر؛ مما دفع الناس إلى الاعتقاد في مشايخ الطرق الصوفية وجعلهم فريسة للمشعوذين والدجالين، ويستمر الأمير في رصد حال المغرب وما آل إليه من تردٍّ شمل معظم مناحي الحياة، حتى صار مطمعاً لمغامري أوروبا واستعمارييها، مروراً بالمراحل الأولى لنزول الأوربيين بشمال إفريقيا وما صاحب ذلك من مقاومة من جانب المغاربة، قادها زعماء أمثال سيدي محمد أمزيان، سيدي أحمد الريسوني، إضافة إلى ظهور مُدعي العرش بو حمارة، وكيف تصدى له المُجاهد عبد الكريم الخطابي والد الأمير محمد عبد الكريم الخطابي حتى قضى عليه.

الكتاب الثاني:
"الشعب يواجه الاستعمار الأسباني" جزء واحد

يعرض فيه الأمير الخطابي لسياسة أسبانيا في المنطقة التي احتلتها بشمال المغرب، إضافة للدور الذي لعبه الألمان في تلك المنطقة لاستغلال ما بها من ثروات معدنية، الأمر الذي دفع والد الأمير الخطابي رحمه الله إلى التعامل مع كلا الجانبين، على حذر بُغية الوقوف على حقيقة نواياهم تجاه الريف، فلما رأى والده سوء النية وقد غلب على تصرفات الأسبان وأعوانهم من المتواطئين المغاربة، ثار في وجههم وأعلنها حرباً ضد الاحتلال الأسباني، الأمر الذي كان سبباً في اعتقال الأسبان لابنه الأكبر — الأمير محمد عبد الكريم الخطابي - بُغية إضعافه، إلا أن تلك التصرفات لم تثنِ الأب عن مواصلة كفاحه حتى سقط نتيجة لخيانة أحد المتواطئين مع الأسبان عام ١٩٢٠م.

ثم يعرض الأمير لكيفية توليه القيادة خلفاً لوالده، ولتأسيسه الحكومة الريفية وإرسائه لقواعدها، التي اشتملت على جميع شئون الدولة المُنظمة، وتكوينه لجيش مُنظم استطاع خاض مئات المعارك، وحقق أعظم الانتصارات، كما يعرض الأمير لكيفية توسع الحكومة الريفية لتشمل منطقة الجبل وغمارة؛ الأمر الذي دفع الأسبان إلى التحالف مع الفرنسيين، الذين رأوا في توسع الحكومة الريفية تهديداً لنفوذهم في المنطقة، ويعرض الأمير لما تبع ذلك من توالي ضربات الحليفين الموجهة على مُجاهدي الريف، انتهاءً بإقدام الأمير الخطابي على افتداء من تبقى منهم بتسليم نفسه للقوات الفرنسية، شريطة عدم الإساءة إليه أو إلى الريفيين، ويختتم الأمير الخطابي هذا الكتاب بما دار بين الأسبان وحلفائهم الفرنسيين من مشاورات أفضت إلى نفيه هو وأسرته وبعض قادته ورفاقه إلى جزيرة رينيون عام ١٩٢٦م.



رفقة مريم وعائشة الخطابي في المغرب

الكتاب الثالث: "المنفى" جزآن

في هذا الكتاب يعرض الأمير لفترة تجاوزت العشرين عاماً قضاها في المنفى هو وأسرته، أنجبت خلالها الأسرة معظم أبناءها، مروراً بمراحل نموهم المختلفة، إضافة إلى كيفية تعامل أفراد الأسرة مع سكان الجزيرة، وكيف كانت السنوات الأولى من المنفى أشبه بالسجن، إذ كان الحراس يتناوبون مُراقبة الأمير وأسرته ليل نهار، ثم يعرض للمتغيرات العالمية التي دفعت بالألمان إلى محاولة تهريبه من الجزيرة، ورفضه لتلك المحاولة، التي لم يرى فيها الخطابي أي مصلحة له ولا لبلاده.

يعرض الأمير أيضاً لتخفيف السلطات لقيود أسرته مما أتاح لها ممارسة بعض النشاطات التجارية لتغطية نفقاتها المتزايدة نتيجة تزايد عدد أفرادها إلى أربعين نفساً، كما يعرض الأمير لفضوله السياسي، ومتابعته للأحداث العالمية آنذاك، فضلاً عن إبداءه الرأي في بعض الحكام مثل مصطفى كمال أتاتورك، والمهاتما غاندي وغيرهم، ثم يعرض للمحاولة الإيطالية لتهريبه من الجزيرة، ورفضه لها، ثم لمحاولة أخرى فاشلة من قبل أحد الشيوعيين، ثم لوفاة والدته وما تبع ذلك من حزن ألم بالأسرة، وكيف كان وقوف أحد أصدقائه الهنود بالجزيرة إلى جواره مادياً ومعنوياً سبباً في أن أصبح الأمير الخطابي وأسرته من أثرياء الجزيرة.

ثم يعرض الأمير لاقتحام الإنجليز للجزيرة وما تبع ذلك من تهديد لحياة الأسرة من قبل حاكمها الفرنسي، الذي خشي أن يقع الأمير أسيراً في يد الإنجليز فيُستعمل كورقة ضغط على فرنسا، يعرض الأمير الخطابي أيضاً لمحاولاته المتكررة للخروج من الجزيرة وكيف باءت جميعها بالفشل، وكيف كان ضغط الوطنيين العرب على فرنسا للإفراج عن الوطنيين المنفيين سبباً في موافقتها على نقله إلى أراضيها.

وأخيراً يعرض الأمير لمغادرة الأسرة الخطابية للجزيرة على متن الباخرة كاتمبا، مروراً بالعديد من الموانئ، وصولاً إلى عدن التي كان نزوله بها سبباً في سعي بعض الوطنيين المغاربة المقيمين في القاهرة لدى الحكومة المصرية من أجل تغيير وجهة الأمير الخطابي لينزل بمصر بدلاً عن فرنسا، وكيف استطاع هؤلاء المغاربة عرض الأمر على الأمير الذي وافق على النزول بمصر مواصلاً جهاده من جديد.

بانتهاء الأمير الخطابي من سرد قصة النزول بميناء بور سعيد واستقبال محافظ بورسعيد والصحفيين ورجال الدولة له ينتهي الجزء الثاني من الكتاب الثالث من مذكرات الأمير الخطابي، التي تجاوزت حسب أصغر نسخها الألف صفحة تقريباً، بعد إطلاعنا على هذا العرض الطيب والتسجيل الأمين للأحداث من جانب الأمير الخطابي تلاحظ الأتي:

- لم يستأثر الأمير الخطابي عند كتابة المذكرات بدور القائد الأوحد ذو اليد العليا في كتابتها، فقد أشرك معه من عايشوا الأحداث بالفعل، وكان عندما يمر بحادثة أو موقعة معينة من الحرب الريفية لم يشهدها بنفسه لوقوعها في جبهة تابعة لأحد قادته كان يقول: "وهنا نترك المجال لفلان - ويذكر الشخص- لسرد ما حدث"، وهذا ما وجدناه في الكتاب الثاني عندما ترك الحديث لشقيقه أمحمد ليتحدث عن الأحداث والمعارك في الجبهة الغربية التي كان يترأسها بنفسه.



- لم يُشر الأمير الخطابي في آلاف السطور إلى ما يدل على نسبته لأي عمل من شأنه إظهاره بدور البطل أو القائد المُميز نهائياً ، إنما كان يقول: "فعل رجالنا - نجح مُجاهدونا - استطاع أبطال الريف" وما إلى ذلك من المعاني التي تنسب أي جهد محمود إلى غيره من المُجاهدين.
- نكران الأمير الخطابي لذاته في كل ما كتب عن حرب الريف ، بحيث جعل من شخصيته شخصية ثانوية في تلك الملحمة الجهادية الكبيرة ، ناهيك عن عدم استنكافه ذكر ما صدر عنه من أخطاء ، فنجده يُقر في غير موضع بتصرف ما ربما كان عليه ألا يفعله على هذا النحو.
- لم يكتفي الأمير الخطابي بما في مذكراته من ذكر للأحداث والأعمال الهامة التي قام بها رجال الريف ؛ بل كان يُسمي عند كل حادثة من قاموا بها من المُجاهدين وإلى أي قبيلة ينتمون ، لذا فقد حفلت المذكرات بأسماء عشرات الشخصيات والأبطال الذين رحلوا عن عالمنا في صمت دون أن ندري عنهم شيئاً ، ولولا خشية الكاتب من الإطالة لأدرج تفصيلاً بأسماء وقبائل هؤلاء المُجاهدين تخليداً لذكراهم.
- لم يكن الأمير الخطابي بما عُرف به من إنصاف وعدل بحكم اشتغاله بالقضاء ليغبن أي شخص حقه ، فكما أنصف ذوي النباهة والوطنية نجده يحمل على الذين صدرت عنهم مواقف تتعارض مع ما كان يجب عليهم تجاه وطنهم وأنفسهم ، لذا نجده يذكر مُسمياً من خانوا بلادهم وكيف خانوها ، وكيف كانت نهاية بعضهم مأساوية تناسبت مع جرمهم في حق أنفسهم وأهليهم ، ليس هذا فقط بل كان عندما يمر على من اختلطت بداخلهم الوطنية بالضعف الإنساني من حب للمال والشهوات ، نجده لا يُرجح كفة من تصرفاتهم على كفة ، ويذكر ما صدر عنهم من خير أو شر قائلاً: "وسنترك الحكم عليهم للناس والتاريخ" وهذا ما وجدناه عندما جاء ذكر عبد المالك نجل المُجاهد الكبير عبد القادر الجزائري.
- جاءت مذكرات الأمير الخطابي متوافقة مع ما علمناه من سير الأحداث في تلك الفترة ، اللهم لو أردنا ترجيح كفة المذكرات على ما عداها من مؤلفات ، لصدورها عن من عايشوها وشكلوا أحداثها ، إضافة إلى نزاهتهم وبراءة ساحتهم من أن يكونوا ذوي مصلحة في تغيير حقيقة الأحداث ، فبالرغم من طول الفترة بين الحرب الريفية في عشرينات القرن الماضي وبين أوائل الستينات وقت أن كتابة الأمير الخطابي لها ، إلا أننا نلاحظ دقة سرد الأحداث وذكر تواريخها مُعرفة بالتاريخين الميلادي والهجري ، أو بالفصول الأربعة أو بمواسم الأمطار والجفاف ، بشكل دقيق ، حتى أن الكاتب استخدم أحد البرامج الكمبيوترية الحديثة للتحقق مما ذكره الأمير من أيام وتواريخ ، فوجد أن مُعظمها إن لم نقل كلها قد جاءت دقيقة مُحددة ، الأمر الذي توافق مع ما كان يذكره الأمير من أسف لعدم إسعاف الذاكرة له أحياناً عند مروره بحادثة ما فلا يتذكر تاريخها ، الأمر الذي أعطانا مزيد من الثقة فيما كتبه الأمير وفيما تمتع به من قوة للذاكرة ، التي ذكرتنا بما كان عليه العرب القدماء ، الذين حفظوا آلاف الأبيات الشعرية رغم عدم معرفتهم للقراءة ولا الكتابة.
- كان الأمير الخطابي أميناً في مذكراته حتى عند تحدثه عن خصومه ، ولم يكن ليجد غضاضة في ذكر الأعمال الجادة من خصومه ، فنجده في غير موضع يقول: "إن فلاناً قد صدر عنه كذا وكذا إلا أن الأمانة تحضنا على أن نذكر ما قام به يوم كذا ساعة كذا".
- أما ما يدعو للدهشة والإعجاب فهو ما ذكره الأمير الخطابي عن معاملة الفرنسيين له بالمنفى إذ يقول: "أما عن معاملة الفرنسيين لنا في جزيرة رينيون ، فنقول وبلا تردد أنها كانت حسنة ، فلم نر منهم رسميين كانوا أم غير رسميين إلا كل احترام وعطف ، مما جعلنا نشتد مقتاً وكرهاً لهذا الاستعمار البغيض الذي أفسد العلاقات بين بني البشر ، وجعل قلوب المغلوبين تضمر الحقد والعداوة لمستعمريهم.

لقد عاشرنا سبعة حكام للجزيرة تعاقبوا عليها وأداروا شئونها طيلة واحد وعشرون عاماً ، وكان هؤلاء الحكام بلا استثناء من الرجال الأفاضل الذين جُبلوا على دماثة الأخلاق ، وكانت لنا مع ثلاثة منهم علاقات ود قوية ، بالرغم مما كان بيننا من اختلافات جاءت عن طريق الغرائز الاعتدائية التي يجدها الإنسان في تلك الكلمة المقيتة – الاستعمار - كما كانت لنا علاقات حسنة واحترام متبادل مع رؤساء الشرطة المحلية الذين كلفوا بمراقبتنا طوال تلك السنوات ، ولنا أن نقول إجمالاً أن الصلات التي ربطت بيننا وبينهم كانت جيدة ، ونحن نقر لهم بهذا رغم بغضنا لأراء ساستهم الاستعمارية ، وقد أبدينا لهم جميل شكرنا عن مغادرتنا الجزيرة ، كما نعود ونسجل شكرنا لهم على صفحات هذا الكتاب"[٦].

يختتم الأمير مذكراته بكلمة شكر لمصر وملكها فاروق ، ويقول بالحرف الواحد " نزلنا إلى أرض مصر آمنين مُستقبلين وجوهاً مستبشرة وقلوباً متلهفة ، مُتمتعين بعطف الفاروق العظيم ذي القلب الكبير والحمى الكريم ، الذي يأوي إليه أحرار العرب ، حفظ الله مصر وحفظ ملكها ، وجمع به كلمة العرب وشمل المُسلمين".

وختاماً فإن تاريخ الأمير الخطابي حافل بالأحداث ، وإنا نأمل أن يكون الكشف عن ما في المذكرات من أسرار وحقائق ، باباً ينفذ منه الباحثون للكشف عن مزيد من بطولات الملحمة الجهادية المغربية.


الخطابي ومحمد الخامس

٦ - مذكرات الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي: المنفى - الجزء الأول - ص٢٩٣ (بتصرف).





منهجية ابن خلدون التاريخية





خاليد فؤاد طحطح

باحث وكاتب وأستاذ الاجتماعيات

طنجة – المملكة المغربية

Tahtah_75@hotmail.com

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

خالد فؤاد طحطح ، منهجية ابن خلدون التاريخية.-دورية كان التاريخية.- العدد السابع ؛ مارس ٢٠١٠.

ص ٥٧ – ٦١. (www.historicalkan.co.nr)

لماذا إختيار شخصية ابن خلدون بالضبط؟

لأنه من أشهر علماء التاريخ العرب. ولأنه إستأثر باهتمام الباحثين شرقا وغربا.

لماذا ابن خلدون إذن؟

لأنه العبقرية التي أهدانا إيّاها القرن الرابع عشر الميلادي، وأهملتها القرون التالية.

وكان لا بدّ من انتظار القرن الثامن عشر ليبعث ابن خلدون من جديد ، ولتحدث المفاجأة في الأوساط العلمية الأوروبية بترجمة «المقدمة» إلى الفرنسية أولا ، ثم إلى الإنجليزية جزئياً ، مطلع القرن العشرين ، وإلى الألمانية أوائل ثلاثينات القرن الماضي ، إلى أن نشرت بشكل كامل سنة ١٩٥٨ في بريطانيا.

وكانت المقدمة قد حظيت بدراسات عالمية للتعريف بها قبل هذا التاريخ ، ثم توالت طبعاتها ، مشمولة بتعليقات ، منها ما قاله المؤرخ وعالم الاجتماع أرنولد توينبي ، من أن مقدمة ابن خلدون «أعظم مؤلف من نوعه ، لم يقم بإنجازه أي عقل من قبل في أي زمان ومكان» قال عنه روبرت فلينت في كتابه "تاريخ فلسفة التاريخ" "انه منقطع النظير في كل زمان ومكان ، حتى ظهور فيكو بعده بأكثر من ثلاثمائة عام ، ليس أفلاطون ولا أرسطو ولا القديس اوغسطينوس بأنداد له ، وأما البقية فلا يستحقون حتى الذكر بجانبه".

لقد تغيرت آراء علماء الغرب فقد كانوا يزعمون أن فيكو هو أول من فكر في علم التاريخ ، ولكنهم علموا بعدئذ أن ابن خلدون قد سبقه إلى ذلك بمدة تزيد عن ثلاثة قرون ونصف القرن ، وانه أقام دراسته لتطور الحضارة الإنسانية على دعائم علمية قوية ، فإذا كان كتاب فيكو يعتبر بمثابة تفلسف في تاريخ الإغريق والرومان ، فان مقدمة ابن خلدون تفلسف في تاريخ العرب والإسلام. لقد أصبح التاريخ بفضل ابن خلدون علما منهجيا راسخا ، ولم يعد سردا للحوادث بل تعليلا لها.

لقد أنشأ ابن خلدون في مقدمته علما جديدا لم يسبقه أحد لا من مفكري الشرق ولا من مفكري الغرب وقد أطلق ابن خلدون على علمه الجديد اسم العمران ، ويفتخر ابن خلدون بهذا العلم ويعتبر نفسه مبتكرا ومخترعا في هذا التأليف ولم يكن مقلدا أو مقتبسا من أحد.

إن مقدمة ابن خلدون بما حوته من علم جديد هي التي أكسبته الشهرة الواسعة وخلدت اسمه بين علماء العالم ، انه إمام ومجدد في علم التاريخ ، لذلك يرى كثيرون أن ابن خلدون هو أبو التاريخ أو مؤسس علم التاريخ على حد قول البروفيسور ألبان ج ويدرجي. إن المقدمة تكاد تكون المؤلف العربي الوحيد الذي نحس أثناء قراءاته ، انه أكثر معاصرة منا لأنفسنا وواقعنا ، وبعبارة أخرى إننا عندما نقرا المقدمة نشعر بأننا نقرأ ما لم نكتبه بعد ، ونسمع فعلا ما لم نقله بعد.

لقد كان ابن خلدون شخصية غير متوقعة بالنسبة لعصره ، ذلك العصر الذي بلغ تفكك العالم الإسلامي فيه مبلغه بين دويلات طائفية متناحرة ، لذلك فقد بقيت مقدمته مغمورة وضائعة وسط صخب صراع الدول الطائفية ووسط أمة خاملة ، إلى أن ترجمها الأوربيون واستفادوا منها ، وقامت دراسات متعددة حولها تعد بالآلاف ، ولقد قال جورج سارتون في حق ابن خلدون "لم يكن فحسب أعظم مؤرخي العصور الوسطى شامخا كعملاق بين قبيلة من



الأقزام ، بل كان من أوائل فلاسفة التاريخ سابقا ميكيافلي وبودان و فيكو وكونت وكورتو ، وقد اعتبر المستشرق الفرنسي سيليفستر دي ساسي (١٧٥٨-١٨٣٨) الذي درس الإنتاج العلمي لابن خلدون بقوله "انه مونتسكيو العرب ، ثم فر يدريك شولتز (١٧٩٩-١٨٢٩)الذي أشار إلى ضرورة إصدار نشرة سريعة وترجمة لهذا البحث الفلسفي لمؤلف يدعى بحق "مونتسكيو الشرق" ، ذلك أن المنهج الخلدوني التاريخي تميز بالدقة العلمية ، فلقد كان التاريخ قبله لونا من ألوان الأدب ونوعا من المسامرة وسرد الحوادث .

لقد كان الأقدمون ينظرون إلى التاريخ نظرتهم إلى ديوان أخبار ، ولم يعدوه علما من العلوم له قواعده وأصوله و أسسه ومناهجه ، ولا ينكر أحد أن التاريخ على يد ابن خلدون أضحى علما متكاملا راسخا ، إذ لم يهتم فقط بالتساؤل عن أحداث الماضي وتسجيلها ، وإنما كان يسال أيضا عن كيفية حدوثها ، فتساءل عن سبب وقوع هذه الأحداث ، وحاول استجلاء أهم العوامل والأسس التي تتقدم من خلالها الحضارة ، وكذلك العوامل و الأسباب التي تؤذن بخرابها ، لذلك اعتبره العديد من الباحثين والمتخصصين بأنه إمام لفلاسفة التاريخ ،لأنه ولأول مرة في تاريخ الفكر الإنساني يبتدع ابن خلدون علم الاجتماع البشري والقوانين المنظمة للحياة وتطور المجتمع.

التعريف بابن خلدون

ولد عبد الرحمان ابن خلدون في تونس (افريقية)سنة 1332 م وتوفي سنة ١٤٠٦م . وقد ولد في فترة سقطت فيها الدولة الموحدية في المغرب والأندلس ، وحوصر خلالها المسلمون في غرناطة، وانقسم الغرب الإسلامي إلى دويلات صغيرة ضعيفة متناحرة على رأسها دولة بنو مرين في المغرب الأقصى ودولة بنو عبد الواد بالمغرب الأوسط والدولة الحفصية في تونس ،وأصبحت كل دويلة عدوة لجارتها . لقد ولد عبد الرحمان ابن خلدون في فترة الضعف السياسي الإسلامي بل ولد في مرحلة بدأت أوربا تتقدم والمسلمون يتراجعون ، لقد ولد في زمن النكسة.

وعندما بلغ سن التعلم ، بدا بحفظ القران وتجويده ، حسب المنهج الذي كان متبعا آنذاك بالمسجد المعروف بتونس (مسجد القبة)، درس التفسير ، الحديث ، الفقه المالكي.. التوحيد ، المنطق ، الفلسفة والرياضيات. وقد تحدث ابن خلدون عن هذه المرحلة بنفسه في كتابه(التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا).

عندما بلغ سن ١٧ _ سنة ٧٣٩ – حدث الطاعون الكبير الذي عم من آسيا إلى الأندلس وفيه مات والده وأكثر من كان يأخذ عنهم العلم ، وعكف ابن خلدون على طلب العلم ، حتى استدعاه بعد ٣ سنوات الوزير أبو محمد بن فزاكين بتونس لكتابة رسائله الرسمية . وفي سنة ٧٥٥ استدعاه السلطان المريني أبو عنان إلى فاس التي أمضى بها ٩ سنوات في العمل ضمن الكتاب والموقعين وخلال هذه الفترة اتجه إلى القراءة والمطالعة. وقد سجن سنة ٧٥٨ لاشتراكه في مؤامرة ضد السلطان المريني ، فقد دبر محاولة لتحرير الأمير ع الرحمان محمد الحفصي صاحب بجاية المخلوع على أن يجعله حاجبا ، فبلغ المؤامرة لأبي عنان فسجنه.

وبعد خروجه اتجه إلى غرناطة بالأندلس إلى السلطان أبي عبد الله محمد بن يوسف بن نصر باني مسجد الحمراء بغرناطة ، الذي أوكله بسفارة إلى ملك قشتالة باشبيلية وقد كانت سفارة ناجحة اقطعه السلطان أراضي شاسعة ، أعجبته الأندلس فاستقر بها واستقدم أبناءه وأهله إليها ،وهيا لهم جميع أنواع الراحة لكن السعادة لم تستمر ، إذ يبدو أن الحساد ضده قد كثروا فهو الغريب وذو الحظوة عند السلطان ، فسعوا بالدسائس حتى حدثت الفجوة بينهما ، فأدرك ابن خلدون أن أيام الأندلس قد باتت قصيرة ، وان لامناص من الرحيل.

عاد إلى المغرب وبدا يتقلب في المناصب في كل من المغرب والجزائر وتونس حتى أصبح موضع ريبة وشك من الجميع ، فجاز مرة أخرى إلى الأندلس سنة ٧٦٦ه لينزل ضيفا عند السلطان ابن الأحمر ، لكن بلاط فاس وخشية منه منعوا أولاده من الالتحاق به فعاد إلى تلمسان ، واعتزل السياسة نهائيا ولجا إلى جبل كزول ثم اعتكف بقلعة ابن سلامة بالجزائر حيث أقام بها ٤ سنوات كتب خلالها كتابه الشهير (المقدمة)المشهور حاليا بمقدمة ابن خلدون.

وفي سنة ٧٨٠ رجع ابن خلدون إلى تونس ، فكثرت ضده الدسائس والأحقاد ، فتذرع بقضاء فريضة الحج فركب البحر إلى الإسكندرية ، فودع بذلك المغرب والأندلس إلى غير رجعة ، وفي مصر التي مكث فيها ٢٥ سنة من عمره أتم كتابه في التاريخ المسمى (كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر) وأصبح مدرسا بجامع الأزهر وتولى منصب القضاء. وفي مصر فوجع ابن خلدون في أبناءه جميعا ، فقد غرقت السفينة التي قدموا فيها من تونس ، فمات أهله وأولاده ،فعظم المصاب والجزع ، فاعتزل القضاء واتجه للحج وزار بيت المقدس ، والتقى بتيمورلنك في دمشق ثم عاد إلى القاهرة وتوفي بها غفر الله له في ٢٥ رمضان ٨٠٨ هـ.

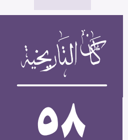
كتب ابن خلدون

لابن خلدون كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم ...ويتكون من مقدمة وثلاث كتب. المقدمة والكتاب الأول في موضوع العمران يشكلان ما يسمى الآن مقدمة ابن خلدون. الكتاب الثاني يتناول تاريخ العرب إلى عصر المؤلف. أما الكتاب الثالث فموضوعه تاريخ البربر وذكر أوليتهم وأجيالهم بالشمال الإفريقي. وذيل المؤلف هذا الكتاب بخاتمة في سيرته الذاتية تسمى (التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا).

التاريخ قبل ابن خلدون

في البداية أشير إلى أنكم جميعا تدرسون مادة التاريخ. هل تساءلتم يوما عن معنى التاريخ وماهيته ؟ ما هو التاريخ ؟ إن الإجابة عن هذا السؤال تبدو بسيطة لكنها في الحقيقة شديدة التعقيد. لماذا ؟ لان التاريخ ليس شيئا ملموسا. بل هو شيء مجرد ، ماض زال وانقضى ، ويستحيل إعادته مرة أخرى. فالإنسان لا يستطيع أن يسبح في النهر مرتين وفي نفس الماء. إن المؤرخ يقوم بصناعة الحدث من جديد ، كما يتوهم انه كان .وليس كما كان.إن الأمر يشبه..

إن التاريخ هو الإعلام بالوقت وما وقع في ذلك الوقت من حوادث وأخبار. والتاريخ بهذا المعنى قديم ، فحين هبط ادم وحواء إلى ظهر كوكب الأرض ، وأصبح لهما ذرية اخذ ادم يقص على أبنائه مما علمه الله. واخذ هؤلاء يحتفظون بهذه الأخبار في ذاكرتهم لينقلوها إلى أبنائهم وأحفادهم جيلا بعد جيل.



ثم توالت الأزمان وبدا الإنسان يتعلم الكتابة ويسجل على الجدران والعظام والجلود والألواح فبدأت الإنسانية مرحلة جديدة سميت مرحلة التاريخ ، أما المراحل السابقة فكانت تسمى عصور ما قبل التاريخ.

من هو المؤرخ؟

هناك أولا المؤرخ الذي عاش الأحداث بنفسه ودونها. وهناك المؤرخ الذي جاء بعد الحدث وكتب عنه. فالمؤرخ ليس ضروريا أن يعيش الأحداث التي يرويها بل يمكنه أن يجاوز العصر الذي يعيش فيه ، ليكتب عن التاريخ الماضي ، كان يكتب مؤرخ في القرن العشرين تاريخ مصر الفرعونية ، وهنا المؤرخ يروي أحداثا لم يعشها أصلا وإنما يقوم بجمع المعلومات والوثائق والمخطوطات ويصنفها وتبدو في هذه الطريقة أسلوب المؤرخ في عرض الوقائع. لذلك وجب أن تتوفر في المؤرخ الثقافة الواسعة والاطلاع الكبير.

وقد برز من العرب مؤرخون كثيرون حتى قبل الإسلام ، فقد كان الاهتمام شديدا خصوصا بعلم الأنساب وحفظ الشجرات. ثم جاء الوحي القرآني الذي ضم آيات بينات تذكر قصص الأولين من الأمم ، وتدعو إلى دراسة أحوالهم والتفكير فيها واخذ العبرة منها وبعد وفاة الرسول ص واتساع رقعة الإسلام ، ودخول أجناس مختلفة في الدين الجديد ، تعدد الإنتاج الفكري الهائل في التاريخ. ولعلماء المسلمين صور متعددة للكتابة التاريخية ، كتواريخ البلدان والأقاليم والمدن مثلا تاريخ بغداد لأحمد بن أبي طاهر طيفور ، تاريخ الموصل لابن الأثير ، وتاريخ دمشق لابن عساكر ، وزبدة الطلب في تاريخ حلب لابن العديم ، وهناك كتب تناولت تاريخ العالم ، كتاريخ الأمم والملوك للطبري ومروج الذهب للمسعودي وتاريخ اليعقوبي وغيرها.

وتعدد كتب التاريخ عند العرب بالآلاف فقد ألفوا في تاريخ السيرة وفي تاريخ الخلفاء وفي تاريخ الرجال والمدن والأمصار وفي الأنساب وفي الرحلات و الغزوات. لكننا يجب أن نشير إلى أن الكتب التاريخية مليئة بالأخبار الغير الصحيحة فهناك من المؤرخين من كان يكتب كل ما يسمع دون أن يتثبت من صحة ما كتب ، فهو ينقل دون تمحيص أو نقد.

التاريخ عند ابن خلدون

عقد ابن خلدون في مقدمته فصلا كاملا ذكر فيها الأغلاط والأوهام التي وقع فيها كثير من المؤرخين بسبب الأكاذيب التي افتراها الناس ، وقد دخلت هذه الأكاذيب بسبب: التشيع للآراء والمذاهب ، والثقة بالناقلين ، والجهل بطبائع العمران ، أي عدم عرضها على مقياس العقل والبرهان.

وقد ذكر ابن خلدون في كتابه بعض هذه الأخبار الكاذبة ، يقول ابن خلدون "إن فحول المؤرخين في الإسلام قد استوعبوا أخبار الأيام وجمعوها() وأدوها إلينا كما سمعوها ، ، يقول الطبري إنما أدينا ذلك حسب ما أدي إلينا. فلئن كان فضل المؤرخين القدامى في أمانة النقل وغزارة المادة التي صنعوا منها كتبهم ، فان ابن خلدون قد أضاف إلى ذلك فضلا آخر.

لقد أجرى تحقيقات هامة على تراث أسلافه من المؤرخين كابن هشام وابن إسحاق والواقدي والبلاذري وابن عبد الحكم والطبري والمسعودي وابن الأثير ، فاستبعد بعضها على أنها محض اختلاق غير ممكن الحدوث بسبب طبائع الأشياء وقوانين العمران ، وشك في صحة كثير منها على انه موضع ريبة ، وقد بنا هذه التحقيقات على ما قرره في مقدمته بصدد الاجتماع الإنساني ، ومناهج البحث العلمي وقواعد التحري التاريخي ، فالفيصل الذي يميز الوقائع التاريخية الحقيقية من الدعاوى الكاذبة الجهل بطبائع أحوال العمران ، لذلك رمى ابن خلدون في مقدمته من وراء دراسة للظواهر الاجتماعية إلى الكشف عن القوانين التي تخضع لها هذه الظواهر في نشأتها وتطورها ، وما يعرض لها من أحوال ، فاستنبط قانون "المطابقة للنواميس الاجتماعية.

قانون المطابقة لأحوال العمران عند ابن خلدون

استنبط ابن خلدون قانون المطابقة للنواميس الاجتماعية فوضع بذلك علم العمران ، وهو علم مستقل بنفسه ، وكان أهم سبب دعا ابن خلدون إلى إنشاء هذا العلم الجديد ، حرصه على تخليص الكتب التاريخية من الأخبار الكاذبة ، وإصلاح وتقويم ما وقع من أوهام وأخطاء.

إن تطبيق ابن خلدون لقانون المطابقة جره إلى الكشف عن القوانين الاجتماعية ، وذلك لكي يجعل منها بوجه برهاني لا مدخل للشك فيه معيارا صحيحا يتحرى به المؤرخون طريق الصدق و الصواب فيما ينقلونه ، فإذا كان أهل الحديث مثلا يركزون جهودهم على النقد الذاتي ، فقد اكتشف ابن خلدون أهمية النقد الباطني ، فإذا كانت الشريعة جملة إنشاء فان التاريخ محض خبر ، يحتاج إلى معيار خاص ومنهجية أليقه به ، وبسبب هذا رفض ابن خلدون رفضا قاطعا كل الروايات الغير الموافقة لأحوال العمران .

وقد أعطى نماذج من تطبيقه لقانون العمران الذي ابتكره وذلك في مقدمة كتابه الأول الذي خص به "علم التاريخ وتحقيق مذهبه ، وقد أورد فيه أمثلة لأخبار مستحيلة الحدوث وردت في كتب المؤرخين السابقين ، فهو يرى أن ما أورده المسعودي وغيره من أن جيوش موسى عليه السلام قد بلغت ست مائة ألف مقاتل لا يثبت أمام النقد الباطني لأسباب جغرافية وإستراتيجية.

يقول ابن خلدون إن المبالغة في هذا الرقم واضحة جدا ، وان تحديد الجيش بهذا العدد أمر غير معقول ، وان القوانين التي يخضع لها تزايد السكان تحكم بعدم إمكان صحته ، وذلك أن ما بين موسى ويعقوب عليه السلام هو أربعة آباء ، فموسى هو ابن عمران بن يصهر بن قاهث بن لاوى بن يعقوب. وقد كان عددهم حين دخلوا مصر في عهد يعقوب ٧٠ نفسا كما ذكرت مختلف الروايات. ومكثوا بها ١٢٠ سنة ، فيستحيل في أربعة أجيال أن يكون هذا العدد الضخم يتماشى مع منطق التزايد في النوع البشري.

ماذا تلاحظون؟ ألا يتماشى كلام ابن خلدون مع المنطق السليم. فلو تمعن المسعودي وغيره من المؤرخين في هذا العصر ، وعرفوا أن فرعون مصر كان يضطهد بني إسرائيل ، ويذبح أبنائهم ،لعرفوا انه يستحيل أن يصل هذا العدد إلى أكثر من٦ آلاف ، والفرق واضح بين ٦ آلاف و ٦٠٠ ألف.

كما اعتبر دخول افريقش المغرب خرافة ، وغزوات التابعة ملوك اليمن لبلاد المغرب من الأخبار الواهية ، يفندها بأدلة عقلية





وجغرافية وسياسية ، يقول ابن خلدون" ومن الأخبار الواهية للمؤرخين ما ينقلونه كافة من أخبار التتابعة ملوك اليمن وجزيرة العرب أنهم كانوا يغزون من قراهم باليمن إلى أفريقية والبربر من بلاد المغرب(وأنهم هم من سموهم البربر لرطانتهم) وهذه الأخبار كلها بعيدة عن الصحة ،عريقة في الوهم و الغلط أشبه بحديث القصص الموضوعة ، وذلك أن ملوك التابعة إنما كان بجزيرة العرب ، وقرارهم وكراسيهم بصنعاء باليمن ، وجزيرة العرب يحيط بها البحر من ثلاث جهاتها ، بحر الهند من الجنوب وبحر فارس الهابط من البصرة من المشرق ، وبحر السويس(يقصد البحر الأحمر) الهابط منه إلى السويس من أعمال مصر من جهة المغرب كما تراه في مصور الجغرافيا.

ولا شك أن هذه الرواية تحمل في طياتها ما يهدمها من أساسها و أن اليمن بعيدة عن المغرب ويستحيل في تلك الفترة وبالوسائل المتوفرة أن يقطع جيش تلك المسافة دون أن يهلك.

ومن الأخبار المستحيلة عند ابن خلدون ما نقله المسعودي أيضا في تمثال الزرزور الذي تجتمع إليه الزرازير في يوم معلوم من السنة حاملة للزيتون ومنه يتخذون زيتهم (..) امثال ذلك كثير وتمحيصه إنما هو بمعرفة طبائع العمران ، وهو أحسن الوجوه وأوثقها في تمحيص الأخبار ، وتمييز صدقها من كذبها.

ثم يضيف ابن خلدون أمثلة كثيرة منها قصة مدينة ارم ذات العماد ، يقول" واعرق في الوهم ما ورد في شان ارم ذات العماد تلك المدينة المزعومة التي لم يقع لها أحد على اثر" ، فقد تناقل المفسرون في تفسير سورة الفجر في قوله تعالى {ارم ذات العماد} فيجعلون ارم اسما لمدينة وصفت بأنها ذات أساطين .وقد روي أن شداد بن عاد ملك الدنيا ودانت له ملوكها ، فسمع بذكر الجنة ، فقال ابني مثلها فبنى ارم في بعض صحاري عدن في ٣٠٠ سنة وكان عمره ٩٠٠ سنة ، وهي مدينة عظيمة قصورها من الذهب والفضة وأساطينها من الزبرجد والياقوت وفيها أصناف من الأشجار والأنهار ، ولما تم بناؤها سار إليها بأهل مملكته فلما كان منها على مسيرة يوم وليلة بعث الله عليه صيحة فماتوا ، وعن عبد الله بن قلابة أنه خرج في طلب ابل له فوقع عليها ، فحمل ما قدر عليه وبلغ خبره معاوية فاستحضره فقص عليه فبعث إلى كعب فسأله فقال هي ارم ذات العماد وسيدخلها رجل من المسلمين في زمانك احمر أشقر قصير على حاجبه خالة يخرج في طلب ابل له ثم التفت فأبصر بن قلابة وقال هذا والله ذاك الرجل.

التعاقب الدوري عند ابن خلدون

يعد ابن خلدون مبتدع نظرية التعاقب الدوري للدول في تاريخ الفكر الإنساني من حيث بعدها الاجتماعي والفلسفي العام ، وقد توصل إلى الاقتناع بفكرة التعاقب في الحضارة(الدولة عنده) وقارن في دائرية التغيير بين الإنسان والمجتمع. فالمجتمع في نظره عمر يمر به كعمر المرء الذي يولد ، ثم يكتمل نموه ، ثم يهرم فيموت ، وعلى هذا الأساس تمر الدولة بالمراحل التالية بداوة .ازدهار .تدهور.

إن الدولة كانت المحور الأساسي الذي تدور حوله أبحاث ابن خلدون ونظرياته ، إذ قاسها قياسا تاما على عمر الفرد ومراحل تطوره ، وجعل للدولة أعمارا كما للأشخاص ، وهي النظرية التي تمثل جوهر فكره في الدورة العضوية للدولة يقول ابن خلدون في المقدمة أن "الدولة لها أعمار طبيعية كما للأشخاص ، ويرى أنها"لا تعدو أعمار ثلاثة أجيال والجيل هو عمر شخص من العمر الوسط ، فيكون أربعين الذي هو انتهاء النمو والنشوء إلى غايته" ، قال الله تعالى { حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً} (سورة الأحقاف ، الآية ١٦)

كانت المسالة الأساسية التي شغلت ابن خلدون(..) هي كيف تنشا الدول ؟ وما هي عوامل ازدهارها ؟ وما أسباب هرمها ؟. إن حركة التاريخ عند ابن خلدون هو حركة انتقال مستمرة من البداوة إلي الحضارة على شكل دورة(..) وهذا الانتقال يتم عبر الدولة على خمس مراحل: في المرحلة الأولى تنشا الدولة على أنقاض دولة سابقة لها. وفي المرحلة الثانية ينفرد صاحب السلطان بالحكم بعد أن يكون قد تخلص ممن اشتركوا معه في تأسيس الدولة (الثورة تقتل أصحابها) ، وتتميز هذه الفترة بالبطش والجبروت. وفي المرحلة الثالثة تسود الراحة والطمأنينة ، وتزدهر الدولة سمى ابن خلدون هذا بطور الفراغ والدعة لتحصيل ثمرات الملك والتمتع بملذات الدنيا ، مما تنزع إليه طباع البشر من تخليد الأثر وتحصيل المال والإسراف في الشهوات. وفي المرحلة الرابعة تتحول الراحة والطمأنينة إلى قناعة وسكون ومسالمة ، ويكون صاحب الدولة في هذا مقتنعا بما حقق سابقوه وما أنجزوه من أعمال.فيتتبع آثارهم حذو النعل بالنعل.

وتأتي المرحلة الخامسة تتمة للمرحلة السابقة ونتيجة لها ، حيث تفقد الدولة هيبتها فتتحلل وتزول. طور الإسراف والتبذير ، ويكون صاحب الدولة مخربا لما كان سلفه يؤسسون ، وهادما لما كانوا يبنون ، وفي هذا الطور تحصل في الدولة طبيعة الهرم ، ويستولي عليها المرض المزمن الذي لا تكاد تتخلص منه. فإذا كانت الدولة تمر بأطوار خمسة ، فإنها لا تعدو ثلاثة أجيال ، جيل البداوة وجيل الحضارة وجيل الترف الذي تسقط في عهده الدولة.

الجيل الأول وهو جيل البداوة: يتميز السكان فيه بخشونة وشظف العيش والبسالة والافتراس والتماسك والاشتراك في المجد ، فلا تزال بذلك صورة العصبية محفوظة فيهم ، والبدو هم المقتصرون على الضروري من العيش في أحوالهم العاجزون عما فوقه ، ولكن البدو سرعان ما يتطورون إذ يتحول حالهم من البداوة إلى الحضارة والعمران بفعل الملك مع الجيل الثاني ، والحضارة إنما هي تفنن في الترف والملذات وأحكام الصنائع المستعملة ، وبناء القصور والاستمتاع بأحوال الدنيا ، وإيثار الراحة على المتاعب ، ولذلك يقول ابن خلدون "إن من طبيعة الملك الدعة والسكون والترف الذي هو غاية الحضارة ، وهو يزيد الدولة في بدايتها قوة ، إذ تتباهى المجتمعات المتحضرة به ولكنه أيضا هو العلة الأساسية لبداية الانحلال في الدولة ، وهو المؤذن بخراب العمران.

فالحضارة تفسد طباع البداوة ، إذ يتجه أصحاب الدولة إلى الإسراف في التنعم ، ويزهدون في العمل ويركنون إلى الدعة والسكون ، ويخلدون إلى الراحة والشراب ، ويكثرون من النساء ومعاقرة الخمر ، فتزول هيبة السلطة من النفوس وتكثر القلاقل والفتن ، وتظهر المعارضة ويتقوى الأعداء فيفلت زمام الأمور ، وتبدأ الدولة في السقوط فتظهر جماعة أخرى من البدو تسعى إلى الملك والريادة فتحل محلهم. فالترف مظهر الحضارة ، وهو هادمها أيضا وهو غاية العمران ولكنه مؤذن بنهايته أيضا ، فالحضارة غاية العمران ونهاية لعمره ، وإنها مؤذنة بفساده.

وتتجلى آثار الحضارة المفسدة للعمران في حياة البذخ والترف ، إذ سرعان ما ينسى سكان الجيل الثالث عهد الخشونة والبداوة فيفقدون بذلك حلاوة العز والعصبية بما هم فيه من ملكة القهر ، ويبلغ



فيهم الترف غايته ، فتفسد أخلاقهم وطباعهم ، فينقلب التناصر إلى تنافر ، والتعاضد إلى تخاذل ، والكفاح المشترك من اجل المصلحة المشتركة ، إلى نزاع وصراع من اجل مكاسب شخصية ومصالح خاصة ، فيظهر الظلم إلى جانب الترف ، وهما مظهران من مظاهر خراب العمران وسقوط الدولة ، والى ذلك يشير قوله تعالى في سورة الإسراء الآية ١٦{وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا}

خلاصة القول أن الحضارة عند ابن خلدون طور طبيعي ، فالتمدن غاية البداوة ، ولكن البدو عندما يتطورون في أساليب العيش ، ويتقدمون في الصنائع فإنهم ينتهون إلى الفناء ، لان الحضارة تحمل في طياتها بذور الفساد ، فتهرم الدولة وتسقط ، والهرم عند ابن خلدون مسالة طبيعية في الدولة إذ يقول "وهو من الأمراض المزمنة التي لا يمكن دواءها ولا ارتفاعها لما انه طبيعي والأمور الطبيعية لا تتبدل". وهكذا تفسح الدولة المنهارة المجال لقيام دولة جديدة تمر بنفس الأطوار والمراحل.



من مقالات ودراسات الأستاذ خالد طحطح:

- الاستشراق والإسلام.
- أسطورة نهاية التاريخ من منظور فلسفة التاريخ.
- إشكالية مفهوم الزمن التاريخي في المقررات المدرسية.
- العلاقات المغربية العثمانية خلال العصر الحديث.
- المجاعات والأوبئة بشمال المغرب: النتائج وردود الفعل.
- منهجية ابن خلدون التاريخية.
- نشأة الحركة الوطنية في المغرب.
- نماذج من القضايا الاجتماعية من خلال كتاب المصادر العربية لتاريخ المغرب.



بدعوة كريمة من جمعية المحافظة على التراث المصري شارك جانب من أعضاء هيئة تحرير دورية كان التاريخية في رحلة وورشة عمل شارع المعز لدين الله الفاطمي (فبراير ٢٠١٠) والتي نظمتها الجمعية من أجل التعريف بالتراث المصري الذي يحتضنه شارع المعز أطول وأقدم شارع أثرى في العالم.

قاد الجولة المهندس ماجد الراهب رئيس مجلس إدارة جمعية المحافظة على التراث المصري، ورافقه خلالها أعضاء مجلس إدارة الجمعية؛ المهندسة نعمة محمد، والمهندس عماد فريد، بالإضافة إلى عدد وفير من أعضاء الجمعية من المثقفين والفنانين وأصدقاء الجمعية.

بدأت الجولة سيراً على الأقدام من الجهة المواجهة لوكالة الغوري، فزيارة متحف النسيج المصري مروراً بالمساجد والأسبلة الأثرية، وانتهت بورشة عمل للفنانين والمصورين في بيت السحيمي. وقد تولى الشرح خلال هذه الجولة الدكتور حاتم مرسي عضو مجلس إدارة الجمعية بوصفه أحد المتخصصين في تاريخ العمارة وترميم الآثار.

جمعية المحافظة على التراث المصري



elraheb_maged@hotmail.com

مكتبات الفاطميين
"رؤية حضارية"





يسري عبد الغني عبد الله
باحث ومحاضر في الدراسات العربية
والإسلامية والتاريخية
القاهرة – جمهورية مصر العربية
Ayusri_a@hotmail.com



الاستشهاد المرجعي بالمقال:
يسري عبد الغني ، مكتبات الفاطميين: رؤية حضارية.- دورية كان التاريخية.- العدد السابع ؛ مارس ٢٠١٠. ص ٦٢ – ٦٥ . (www.historicalkan.co.nr)

مكتبات الخلفاء

مما لا شك فيه أن الفاطميين اهتموا اهتمامًا كبيرًا بالحركة العلمية في اتجاهاتها المختلفة ، كما اهتموا بخدمة فروع العلم والمعرفة بجانب اهتمامهم بالمذهب الشيعي ، ودار الحكمة التي أنشأها الحاكم بأمر الله الفاطمي بالقاهرة ، سنة ٣٩٥ هـ ، وهو في العشرين من عمره ، كانت مركزًا علميًا عالي المستوى ، بالإضافة إلى كونها منارة مهمة للثقافة والفكر ، جمع فيها خيرة العلماء في جميع الفنون والعلوم ، وأغدق عليهم المرتبات الكبيرة ، وهيأ لهم الوسائل ليتفرغوا للبحث والدراسة والتأليف.

ألحق الحاكم بدار الحكمة مكتبة عظيمة حوت ما لا مثيل له في المكتبات الأخرى على ذلك العهد ، وهيأ للملتحقين بدار الحكمة من طلاب ومطالعين أرزاقًا كافية ، ووضع تحت تصرفهم الأوراق والمداد ، فورث بذلك ما كان لبيت الحكمة في بغداد عاصمة الخلافة العباسية من نشاط علمي زاخر وزاد عليه.

وفي رأينا الخاص أن الحاكم بأمر الله لما يئس من إصلاح حال الدراسة في الأزهر آنذاك تركه في دراسته المذهبية المتعصبة ، وقام بإنشاء دار الحكمة كجامعة ومكتبة من أجل خدمة العلم للعلم بدون تأثير مذهبي أو سياسي.

يذكر لنا ابن الأثير: أن الخليفة الفاطمي الأول / المهدي (عبد الله أبو محمد الذي نودي به أميرًا للمؤمنين ، سنة ٢٩٧ هـ ، وكانت وفاته ٣٢٢ هـ) حمل معه وهو ذاهب من سلمية إلى سلجماسة ، جميع الكتب والوثائق التي كانت لآبائه ، ولكنها سرقت منه وهو في طريقه من مكان يقال له الطاحونة ، وهي تقع بالقرب من مدينة طرابلس الليبية ، ولكن أبا القاسم بن المهدي (القائم بأمر الله محمد أبو القاسم ، توفي ٣٣٤ هـ) استطاع أن يستعيد هذه الوثائق حال مسيره لغزو مصر للمرة الأولى سنة ٣٠٠ هـ.(١)

ونحن نرى أنه من المحتمل جدًا ، بل من المتوقع أن هذه الكتب وتلك الوثائق كانت ضمن المتاع الذي أحضره المعز لدين الله (المعز لدين الله الفاطمي محمد أبو تميم ، الخليفة الرابع في قائمة الخلفاء الفاطميين ، توفي سنة ٣٦٥ هـ) معه من شمالي أفريقيا إلى القاهرة ، عندما تم له فتح مصر ، فإذا كان هذا صحيحًا فإن هذه الكتب وتلك الوثائق كانت النواة الأولى لمكتبة الفاطميين الكبرى التي قاموا بإنشائها في القاهرة.

نحب أن نقول هنا: إن الفاطميين لم يكونوا عسكريين قنعوا بفتح مصر أو اكتفوا بتسلطهم على أمورها ، بل كانوا ينافسون خلفاء بغداد العباسية ، ويريدون أن تكون هم الغلبة والسيادة والسيطرة على العالم الإسلامي كله ، ومن أجل هذا أشأوا من المؤسسات ما يضمن لهم علو الصيت وحسن السمعة ، وكانت المكتبة التي تنشر العلم وتنفع الناس دعامة من هذه الدعائم.

وقد اتجه الفاطميون اتجاهًا عجيبًا في تكوين مكتبتهم ، فقد كانوا يحرصون كل الحرص على أن يجمعوا بها جميع النسخ الموجودة من أفضل الكتب حتى تكون مكتبتهم المكان الوحيد الذي يوجد به هذا الكتاب أو ذاك ، فإذا جمعوا مئات النسخ من كتاب معين ثم ظهر لهم أنه لا تزال هناك نسخة منه بعيدة عن مكتبتهم ، أظهروا استعدادهم الكامل والتام لأن يدفعوا فيها ثمنًا باهظًا مهما بولغ فيه كي يصلوا بذلك إلى هدفهم ألا وهو الحصول على أي نسخة من نسخ الكتاب ، ووضعها في مكتبتهم لتكون موجودة بها دون سائر المكتبات.

وفيما يتعلق بالقرآن الكريم فإنهم كانوا حريصين كل الحرص على أن يجمعوا بمكتبتهم جميع النسخ الفخمة أو التي كتبها مشاهير الخطاطين، وهذا يفسر لنا لماذا كان بمكتبة الفاطميين عشرات أو مئات النسخ من المصاحف المطهرة، أو من كتاب معين، وعلى هذا فإننا نقرأ أن هذه المكتبة كان بها:

- (٢٤٠٠) مصحف في ربعات، بخطوط منسوبة، زائدة الحسن، محلاة بذهب وفضة وغيرهما.[٢]
- (١٣٠٠) نسخة من كتاب (التاريخ) للطبري، منها نسخة بخط المؤلف نفسه.
- (١٠٠) نسخة من معجم (الجمهرة)، لابن دريد.
- نيف وثلاثون نسخة من معجم (العين)، منها نسخة بخط مؤلفه الخليل بن أحمد الفراهيدي.[٣]

أما المجموع العام لكتب المكتبة فيبدو أنه وصل إلى رقم خيالي، يروي المؤرخ / أبو شامه: أنه سمع أن هذه المكتبة كان بها ٢.٠٠٠.٠٠٠ كتاب.[٤] وقد ذكر المقريزي عدة روايات عن مجموع الكتب التي كانت تحتويها خزانة الفاطميين، ولكنه يميل إلى أن العدد كان ١.٦٠٠.٠٠٠ كتاب.[٥] كما يذكر المقريزي أيضًا: أن هذه الكتب كانت في موضوعات متعددة، فمنها الفقه الإسلامي على سائر المذاهب، والنحو واللغة، وكتب الحديث النبوي المطهر، والتواريخ، وسير الملوك، والتنجيم والروحانيات، والكيمياء.[٦]

ويتفق كل من أبو شامه والمقريزي على أن هذه المكتبة كانت من عجائب الدنيا في تلك الآونة، وأنه لم يكن في جميع بلاد الإسلام دار كتب أعظم من تلك التي كانت بالقاهرة في القصر (أي مقر الحكم الفاطمي).[٧]

وقد ظلت مكتبة الفاطميين العامرة بالكتب محتفظة برونقها وجلالها حتى اشتعلت الحرب الداخلية في عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمي الذي تولى الحكم من سنة ٤٢٧ هـ / ١٠٣٥م إلى سنة ٤٨٧ هـ /١٠٩٤م، وفي هذه الأثناء قام الأتراك الغوغاء بالسلب والنهب في القاهرة عاصمة الدولة الفاطمية، واعتدوا على دار الخليفة فهدموا ما بها من نماذج الفن الرائع، ثم اقتحموا مكتبة القصر فاعتدوا على هذا التراث الجليل من العلم والمعرفة.

ومن المؤلم حقًا أن تستعمل المخطوطات الثمينة لتشعل لفائف (سجائر) هؤلاء البرابرة غير المتحضرين، وأن يقوم عبيدهم وإماؤهم بأن يتخذوا من جلود الكتب والمخطوطات نعالاً يلبسونها في أرجلهم.

ويؤكد التاريخ على أن الكثير من هذه الكتب ألقي به في نهر النيل، كما تم حرق عدد وافر منها، وحمل بعضها إلى سائر أقطار الدنيا، وبقي منها ما تحول إلى تراب حولته الرياح إلى تلال كانت تعرف بتلال الدراسة بجوار الجامع الأزهر الشريف جنوب القاهرة، وقد حرص هؤلاء البرابرة الأتراك على أن يقضوا على هذه الكتب القيمة التي لا تقدر بثمن لاعتقادهم الواهم أن فيها كلام المشارقة الذي يخالف مذاهبهم.[٨]

ويعلم الله تعالى أنه ما كان لهم علم بكلام المشارقة، ولا بكلام المغاربة، ولا أي لون من ألوان العلوم أو المعارف، وإنما هو الجهل والهمجية دفعا هؤلاء الغوغاء أن يرتكبوا هذه الجريمة النكراء، وأن يطعنوا المدنية العربية الإسلامية في أشرف مقوماتها.

وعندما تسلم الوزير / بدر الجمالي مقاليد مصر جد في أن يجمع من كتب هذه المكتبة ما سلم من الحرق والغرق، فاستعاد ما استطاع أن يستعيد من الأقطار المجاورة، واسترد ما كان منها في حوزة بعض الناس، وبهذا استطاع أن يعيد للمكتبة شيئًا من مكانتها المفقودة.

وقد ظلت هذه المجموعة بالقصر الفاطمي إلى أن سقطت الدولة الفاطمية، وأعلنت الدولة الأيوبية في العاشر من شهر المحرم سنة ٥٦٧ هـ /١١٧١م، بقيادة الناصر / صلاح الدين أبو المظفر يوسف الأيوبي، وحينئذ تقدم الناصر / صلاح الدين، البطل الإسلامي العظيم، فقضى قضاءًا مبرمًا على هذه المكتبة القيمة، وأفنى منها ما تعارض مع مذهب أهل السنة، وأهدى جملة كبيرة منها إلى القاضي الفاضل وعماد الدين الأصفهاني الكاتب والمؤرخ.

ويحكي لنا التاريخ أن صلاح الدين الأيوبي كلف رجل كان يدعى / ابن صورة كان يعمل بتجارة الكتب أن يبيع الباقي، فاستغرق ذلك منه عدة أعوام.[٩] وطالما تكلمنا وكتبنا عن الناصر / صلاح الدين الأيوبي، وذكرنا مآثره وأفضاله ودوره الشجاع في الدفاع عن الإسلام ضد الحملات الصليبية، وكذلك فعل أساتذتنا وشيوخنا الأجلاء، ولكن المنصف لا يستطيع هنا إلا أن يلومه متسائلاً: لماذا وقف صلاح الدين من الكتب هذا الموقف المتشدد الغريب؟ ولماذا لم يتركها للباحثين وللقراء عبر الأجيال؟!!.

وقبل أن أنهي حديثي عن هذه الجزئية، تحسن الإشارة إلى حقيقة مهمة ألا وهي أن هذا النوع من المكتبات كثيرًا ما تحول إلى مكتبات عامة يدخل إليها كل الناس دون أدنى تمييز للقراءة والإطلاع، وذلك مثلما حصل في مكتبة الناصر لدين الله الخليفة العباسي، وفي مكتبة الفاطميين الذي نقل جزء كبير منها إلى المكتبة الملحقة بدار الحكمة أو دار العلم الذي أسسها الخليفة الفاطمي / الحاكم بأمر الله في القاهرة لتكون بمثابة منارة ثقافية لكل محبي المعرفة والعلم والثقافة.

لا شك فيه أنه كان للعرب في الجاهلية صلات بالأمم المعاصرة لهم، حيث كانوا على اتصال بهم من الناحية الحربية والتجارية، إلا أن صلات العرب التجارية كانت من أوسع الطرق إلى هذه الصلات، ولعل ذلك يؤكد على أن العرب في أي مرحلة من مراحل التاريخ لم يكونوا في عزلة عن عالمهم المحيط بهم، بل كانوا فاعلين مشاركين مع الأمم التي عاصرتها.

وعليه تحاول هذه السطور المتواضعة أن تتناول بالدرس والتحليل صلات العرب التجارية قبل الإسلام، فتكلمت عن بلاد اليمن في عالم التجارة، وعن سبأ وعلاقاتها التجارية، وأسطولها البحري، وطرق نقل المتاجر، ثم تحدثت عن حمير في الميدان التجاري، مع توضيح أثر التجارة بوجه عام في رخاء بلاد اليمن.

بعد ذلك دلفت هذه السطور إلى قريش ودورها وأهميتها في عالم التجارة، ومعاهداتها التجارية، وصلات العرب التجارية مع الدول المجاورة لهم، وطرق نقل البضائع والسلع، وقوافل الفرس التجارية، ثم أثر التجارة في حياة العرب المكيين بوجه عام، ومكانة مكة التجارية والتي استحقت أن يطلق عليها (بندقية الشرق).

وقد دعمنا سطورنا بالأسانيد والمراجع التي تناولت هذا الجانب من تاريخنا العربي الاقتصادي (التجاري)، وبذلك نكون قد قمنا بالرد على هؤلاء الذين يزعمون أن العرب كانوا أمة منعزلة عن الآخرين، أو بمعنى آخر غير مشاركين مع الآخرين في أنشطة الحياة المختلفة ومنها الأنشطة التجارية والاقتصادية.

مكتبة "دار الحكمة"

في يوم السبت العاشر من جمادى الآخرة سنة ٣٩٥ هـ افتتحت دار الحكمة بالقاهرة التي أنشأها الحاكم بأمر الله الخليفة الفاطمي. وقد كانت الاستعدادات تتخذ قبل ذلك بحزم ونشاط، تمهيداً لافتتاح المعهد العظيم، الذي أريد به أن يمحو من الأذهان ما علق بها عن مجد بيت الحكمة، الذي أنشأه هارون الرشيد الخليفة العباسي في بغداد، وسما به إلى ذروة المجد ابنه المأمون العباسي.

ويحكي المقريزي في خططه: إن الاستعدادات شملت إعداد البناء، وتنظيمه، ثم فرشت هذه الدار (دار الحكمة)، وزخرفت، وعلقت على جميع أبوابها، وممراتها الستور (الستائر). ثم حملت الكتب إليها من خزائن القصور المعمورة (قصور الفاطميين)، وحصل فيها من خزائن أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله من الكتب التي أمر بحملها من سائر العلوم والآداب والخطوط المنسوبة، ما لم ير مثله مجتمعاً لأحد قط من الملوك. وجعل فيها ما يحتاج الناس إليه من الأقلام والورق والمحابر، وأقيم لها قوام وخدام وفراشون وغيرهم، رسموا بخدمتها (أي عينوا وكلفوا بخدمة دار الحكمة)، وجلس فيها القراء، والفقهاء، والمنجمون (علماء الفلك)، والنحاه، وأصحاب اللغة، والأطباء. وأجرى على من فيها من الخدام والفقهاء الأرزاق السنية، وأبيح دخولها لسائر الناس (أي أن القراءة والثقافة والعلم للجميع) فوفدوا إليها على اختلاف طبقاتهم فمنهم من يحضر لقراءة الكتب، ومنهم من يحضر للنسخ، ومنهم من يحضر للتعلم.[١٠]

ويقول جورجي زيدان: وإلى جانب هذا فقد أباح (الحاكم بأمر الله الفاطمي) المناظرة بين المترددين إلى (على) دار الحكمة، فكانوا يعقدون الاجتماعات هناك، وتقوم المناظرات وقد يفضي الجدال إلى الخصام.[١١]

ونعتقد أن (الحاكم) أباح النقاش، والحوار، والتعبير عن الرأي والرأي الآخر، وإعلان وجهات النظر المختلفة، وكان ذلك كله يتم في مكان بعيد مستقل عن قاعة المطالعة والقراءة بدار الحكمة، والتي يجب أن يتوافر فيها الهدوء التام والكامل للقراء والباحثين والمطالعين، ولا نعتقد أن الحوار في المكتبة كان يؤدي إلى اللجاج والخصام، كما يذهب جورجي زيدان، فأهل العلم والفكر أسمى من أن يقعوا في الخصام أو اللجاج عندما يتحاورون، فالخلاف في الرأي لا يفسد للود قضية، وما أجمل أن يكون الحوار بالتي هي أحسن، كما علمنا الإسلام الحنيف، وهدف أي حوار هو الوصول إلى الحقيقة التي هي لب البحث العلمي، والحوار الفكري.

ويقول لنا التاريخ: لقد ظلت دار الحكمة مفتوحة الأبواب حتى أوائل القرن السادس الهجري، ثم اكتشف الوزير الأفضل بن بدر الجمالي، الذي كان وزيراً للمستنصر الفاطمي بعد موت والده، واستمر في الوزارة بعد موت المستنصر، وبقي بعد موت المستعلي الفاطمي حتى اغتيل سنة ٥١٥ هـ. اكتشف الوزير الأفضل أن جماعة من الناس يستفيدون من دار الحكمة، ويستفسدون عقول الناس، فيأوون إليها، ويتخذون منها مكاناً للدعاية لمذاهبهم الهدامة، وأفكارهم المتطرفة غير الوسطية، فأمر بإغلاق دار الحكمة في الحال. ثم تم اعتقال زعيم هذه الجماعة، الذي كان يتخذ من دار الحكمة مكاناً لنشر أفكاره الهدامة، وكان يدعى (بركات)، ولكن هذا المتمرد اختفى في الحال، ولم يستطع الوزير الأفضل أن يقبض عليه.

ولما توفى الأفضل أمر الخليفة الآمر بن المستعلي ٤٩٥ - ٥٢٤ هـ، وزيره مأمون البطائحي، الذي قتل مصلوباً في سنة ٥١٩ هـ، برعاية دار الحكمة وفتحها على الأوضاع الشرعية.[١٢] وفي رأينا أن إغلاق أي مؤسسة علمية لا يحل مشكلة الآراء أو الأفكار المتطرفة، ولكن يجب مواجهة الفكر بالفكر، والحوار بالحوار، فالإسلام دين الفكر المعتدل الوسطي، دين العقل المفتوح المستنير. هذا، وقد ظلت دار الحكمة تؤدي عملها حتى تمكن الأمر لصلاح الدين الأيوبي في مصر، عندما ضعف أمر العاضد بن يوسف الحافظ (٥٥٥ - ٥٦٧ هـ) آخر الخلفاء الفاطميين، فهدم صلاح الدين دار الحكمة الفاطمية، وبنى مكانها مدرسة للشافعية.[١٣]

نعم، أنشأ صلاح الدين الأيوبي العديد من المدارس والمساجد والزوايا في مصر والشام، ولكن هدمه لدار الحكمة أمر غير مقبول، كان في إمكانه أن يعيدها إلى دورها في نشر الفكر الإسلامي المستنير المعتدل، إلى دورها كمؤسسة علمية / تعليمية / ثقافية / تربوية، يؤمها جميع محبي الفكر والعلم والثقافة، أما أن يهدمها، فهذا غير مقبول، فالإسلام دين التعددية، والحوار، وقبول الآخر ـ ألا يوافقني القارئ الكريم على ذلك؟.

إن إنشاء الحاكم بأمر الله الفاطمي، منصور أبو علي، المفقود سنة ٤١١ هـ، بجبل المقطم، جنوب مصر، لدار الحكمة كمؤسسة ثقافية سنة ٣٩٥ هـ، يضعه بحق في القمة من المفكرين المثقفين، حيث قام بإنشاء هذه الدار، وهو في العشرين من عمره، وكانت تعد بحق مركزاً علمياً ثقافياً عالي المستوى، جمع له الحاكم خيرة العلماء في سائر العلوم والفنون والآداب، وأجرى عليهم المرتبات الكبيرة، وهيأ لهم جميع الوسائل من أجل أن يتفرغوا تماماً للبحث والدراسة والتأليف.

وعليه نجده قد ألحق بدار الحكمة مكتبة عظيمة فخمة ضخمة حوت ما لم يجتمع مثله في مكتبة أخرى في ذلك العهد، كما هيأ الحاكم بأمر الله الفاطمي للملتحقين بدار الحكمة من طلاب ومطالعين ودارسين وباحثين أرزاقاً كافية، ووضع تحت تصرفهم الأوراق والمداد، فورثت دار الحكمة في القاهرة، بذلك ما كان لبيت الحكمة في بغداد العباسية (والتي أسسها هارون الرشيد، ووضعها في الذروة من المجد العلمي والثقافي ابنه المأمون العباسي)، من نشاط علمي زاخر، وزاد عليه الكثير والكثير.

ويمكن لنا القول أن الحاكم بأمر الله الفاطمي لما يأس كل اليأس من إصلاح أحوال الدراسة في الأزهر الشريف آنذاك تركه في دراسته المذهبية المتعصبة، وأنشأ دار الحكمة من أجل أن تخدم العلم والفكر والثقافة بدون أي تأثير مذهبي أو سياسي. إن هذا الرجل - الحاكم بأمر الله الفاطمي - في حاجة إلى دراسة واعية تنصفه حق الإنصاف، وتبرز بجلاء دوره الثقافي والحضاري الذي قام به من أجل خدمة فكرنا الإسلامي الوسطي المعتدل، رغم كل ما قيل عنه، ورغم الحديث الطويل الذي تحدثه أهل التاريخ عنه، وقولهم بجنونه وشذوذ تصرفاته. لذلك فقد آن الأوان لأن نعيد دراسة هذا الرجل دراسة علمية منهجية جادة متجردة، ونقول هنا: علينا أن نقوم بذلك، دون أن يقول قائل: إننا من أهل السنة، فما شأننا بهذا الرجل؟

الواقع أن الإسلام لا يعرف المذهبية أو التعصب أو الطائفية أو العرقية، فقد نختلف مع بعض أفكار الفواطم الشيعية، ولكن هذا لا يمنع الباحث المنصف من أن يعطي كل شخصية تاريخية في تاريخنا

الإسلامي حقها من الإنصاف نظير ما قدمته من إنجازات ثقافية وحضارية أفادت فكرنا الإسلامي.

الهوامش:

١ . ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، طبعة ليدن الهولندية ، ١٨٥١م ، ٨ / ٢٩ ، مع تصرف وإضافة وتوثيق من جانبنا.

٢ . الربعات جمع ربعة ، وهي صندوق فيه أجزاء المصحف الشريف ، وفي الأغلب أنها كلمة مولدة.

٣ . نراجع: المقريزي ، الخطط ، القاهرة ، ١١٧٠ هـ ، ١ / ٤٠٨ ، وكذلك: أبو شامه ، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية ، القاهرة ، ١٢٨٧ هـ ، ١ / ٢٠٠ ، حيث ذكر أبو شامه أن خزانة كتب الفاطميين حوت ١٢٢٠ نسخة كاملة من تاريخ الطبري.

٤ . أبو شامه ، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية ، القاهرة ، ١٢٨٧ هـ ، ١ / ٢٠٠.

٥ . المقريزي ، الخطط ، القاهرة ، ١١٧٠ هـ ، ١ / ٤٠٩ ، باختصار من عندنا.

٦ . المقريزي ، الخطط ، القاهرة ، ١١٧٠ هـ ، نفس الصفحة ونفس الجزء المشار له في الهامش السابق.

٧ . نراجع: أبو شامة ، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية ، القاهرة ١٢٨٧ هـ ، ١ / ٢٠٠ وما بعدها ، وكذلك: المقريزي ، الخطط ، القاهرة ، ١١٧٠ هـ ، ١ / ٤٠٩.

٨ . المقريزي ، الخطط ، القاهرة ، ١١٧٠ هـ ، ١ / ٤٩ ، بتصرف من عندنا . وكذلك: ستانلي لان بول ، تاريخ مصر في العصور الوسطى ، لندن ، ١٩٠١م ، ص ١٤٩.

٩ . أبو شامه ، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية ، القاهرة ١٢٨٧هـ ، ١ / ٢٦٧.وكذلك: المقريزي ، الخطط ، القاهرة ، ١١٧٠ هـ ، ١ / ٤٠٩ .وأيضًا: أحمد شلبي ، التربية والتعليم في الفكر الإسلامي ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٨٧م ، ص ١٩٧ وما بعدها ، بتصرف من عندنا.

١٠ . المقريزي ، الخطط ، القاهرة ، ١١٧٠ هـ، ١ / ٤٥٨ . ٤٥٩، ٢ / ٣٤٢، بتصرف من عندنا.

١١ . جورجي زيدان ،تاريخ التمدن الإسلامي ، القاهرة ، ١٩٠٣م ، ٣ / ٢١٠، بتصرف.

١٢ . المقريزي ، الخطط ، القاهرة ، ١١٧٠ هـ. ١ / ٤٥٩ ، بتصرف من عندنا.

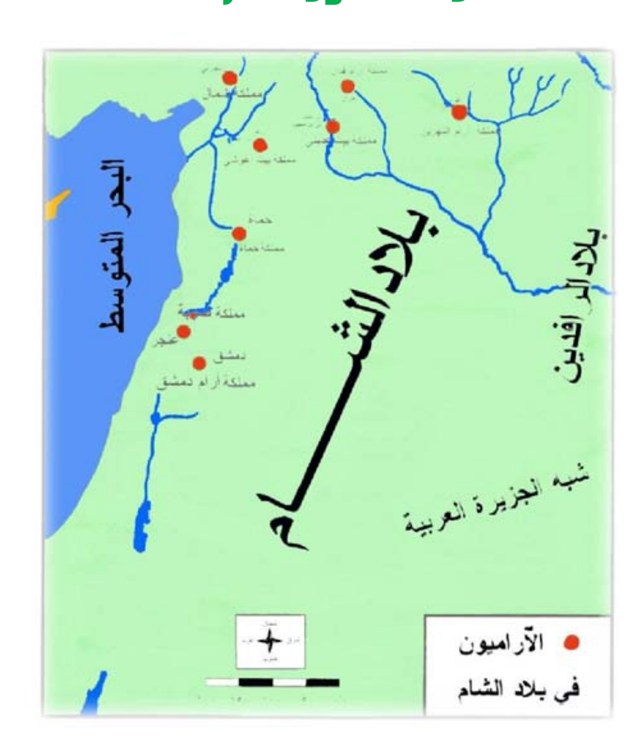
١٣ . ابن خلدون ، العبر ، القاهرة ، ١٢٨٤ هـ ، ٤ / ٧٩ ، بتصرف من عندنا.

من مؤلفات الأستاذ يسري عبد الغني عبد الله:

أكثر من ٢٨ كتاباً منشوراً مابين مؤلف ومحقق ومعد ، منها :

- الإسلام والتنمية الاجتماعية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٥.
- المدنية العربية الإسلامية ، نظرات في الأصول والتطور ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٧.
- مؤرخون مصريون من عصر الموسوعات ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ٢٠٠١.
- معجم المؤرخين المسلمين حتى القرن الخامس عشر الهجري ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٩١.
- معجم المعاجم العربية ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٩٠.

آرام
"معناها ومصدرها"





خليل اقطيني
كاتب وصحفي بمؤسسة الوحدة للصحافة والنشر
مدير مكتب صحيفة تشرين بالحسكة
الجمهورية العربية السورية
aya2006@scs-net.org



منذ أن قفزت إلى مقدمة ذهني فكرة هذا الموضوع ، وثمة عشرات الأسئلة التي أخذت تتقافز في مخيلتي ، كأنها غزلان في إحدى الغابات الجبلية الجميلة.

ورغم وجود العديد من المصادر والمراجع التي تحدثت عن موضوعنا هذا وهو الآراميين ، بحيث يمكن الرجوع إليها والحصول على الإجابة المطلوبة ، فإن تلك الأسئلة بقيت تلح على رأسي ، حتى وأنا أقلب صفحات المراجع. والغريب أنني كلما قرأت المزيد من الكتب كلما ازدادت تلك الأسئلة إلحاحاً. وبعد قليل من التفكير اكتشفت أن السبب في ذلك الإلحاح لا يكمن في عدم العثور على الجواب المطلوب ، بقدر ما يكمن في الحصول على ذلك الجواب. واكتشفت أكثر أن المشكلة ازدادت تعقيداً لأنني عثرت على غير جواب في عدة مصادر ومراجع ، وأحياناً غير جواب في مصدر واحد. الأمر الذي أدخلنا في حيص بيص ، وجعلنا في حيرة من أمرنا بشأن أي الإجابات نختار. وبعد تفكير لم نجد أفضل من تلك القاعدة الفقهية التي تقول عندما تجد أمامك غير فتوى شرعية في قضية ما ، اختار ما يطمئن إليه قلبك من تلك الفتاوى ، واتبع ما ترتاح إليه نفسك من العلماء الأجلاء.

وما فعلناه كان أقرب إلى هذه الحالة ، حيث عمدنا إلى وضع معظم الإجابات ـ إن لم يكن كلها ـ عن الأسئلة التي دارت في ذهننا عندما شرعنا في كتابة هذا الموضوع ، وتركنا للقارئ الكريم اختيار (ما يطمئن إليه قلبه ويميل نحوه عقله). وهذا لا يمنع من أن يكون لنا رأينا في ما هو مطروح. وكان أهم سؤال برز إلى الظهور ، هو ما معنى كلمة آرام ومن أين جاءت هذه التسمية ، أي لماذا سمي الآراميون بهذا الاسم بالذات دون غيره من الأسماء ؟

السامية

وهنا اسمحوا لي أن أبدأ بنفسي. إذ من بين المراجع التي قرأتها أثناء تأليفي لكتابي ما قبل السابق المسمى (مدائن الخابور في الحسكة ودير الزور) كتاب تاريخ سورية القديم للأستاذ أحمد داوود ، ووجدت في الصفحة (٥٧٨) ما يشير إلى أن الآراميين هم أحفاد سام بن نوح. فذكرت ذلك في الصفحة ٣٤ من كتابي المذكور على الشكل التالي: (وإذا ما تتبعنا خط النسب بعد آدم إلى آرام ، فإننا نلتقي بواحد من أعظم الآباء العرب وهو "سوريان" أحد أحفاد آرام الذي أنجب أعظم السلالات التي حكمت بابل. فالسريان هم آراميون ، ومن المعروف أن الآراميين والآشوريين إخوة وكلاهما من أبناء سام بن نوح ، فقد ولد سام : عيلام وآرام وأرفخشاد ولاوذ وآشور).[١]

> **"ما هي علاقة لفظة آرام بإرم ذات العماد"**

وقد ذكرت ذلك من منطلق أن الأستاذ أحمد داوود ثقة ، وهو فعلاً كذلك. لكنني فوجئت بعد فترة ولدى عودتي لنفس الموضوع لسبب لم أعد أذكره ، أن موضوع عودة الآراميين إلى سام بن نوح ليس دقيقاً ، وأن موضوع السامية كله غير صحيح على الإطلاق ، ولا يوجد شيء اسمه السامية. فهذا الموضوع موضوع السامية ، وأولاد سام بن نوح وأحفاده ، ذكر في التوراة ، ومن ثم استخدمه اليهود وبشكل خاص الحركة الصهيونية ، من أجل تحقيق أغراض وأهداف سياسية. وبالتالي كل من يتحدث بكلام لا يروق

▪ **الاستشهاد المرجعي بالتقرير:**
خليل اقطيني ، آرام "معناها ومصدرها".- دورية كان التاريخية.- العدد السابع ؛ مارس ٢٠١٠. ص ٦٦ – ٦٩
(www.historicalkan.co.nr).

للصهاينة ويكشف ألاعيبهم ومخططاتهم ويفضح نواياهم الخبيثة ، يرفعون في وجهه لواء السامية ، ويتهمونه مباشره بمعادة السامية. والكل يتذكر ما جرى للكثير من المفكرين والسياسيين والمثقفين على أيدي الحركة الصهيونية العالمية ومن يقف معها ، ومازالت محاكمة المفكر الفرنسي المعروف روجيه غارودي ماثلة أمام العالم أجمع.

ويبدو أن موضوع السامية انطلى في مرحلة ما ، على الكثير من المفكرين والمثقفين العرب ، ولهذا راحوا يستخدمونه في مؤلفاتهم ، كما حدث مع الأستاذ أحمد داوود ، ومن بعده كاتب هذه السطور.

"ما هي علاقة الآراميين بالأحلامو"

والشيء نفسه حصل مع المطران غريغوريوس صليبا شمعون رئيس أساقفة الموصل في كتابه الممالك الآرامية ، حيث يقول في الصفحة الخامسة منه: " الآراميون مجموعة من الشعوب التي أطلق عليها مصطلح الشعوب السامية ، استناداً إلى ما جاء في سفر التكوين (٢) واعتباراً من أن هذه الشعوب منحدرة من سام بن نوح ، وآرام أحد أبناء سام ، وإليه نسبت إحدى القبائل الآرامية المتعددة. ثم تغلبت هذه التسمية على تسمية القبائل الآرامية الأخرى ".(٣) ونفس المطب وقع فيه عبد الحكيم الذنون في الصفحة (٢٣٤) من كتابه الذاكرة الأولى ـ الجزء الثاني ـ التاريخ القديم لبلاد الشام.

غير أن الذنون يعتبر في مكان آخر من كتابه نفسه ، تسمية آرام تسمية جغرافية والمقصود بها الأراضي المرتفعة في المناطق الجبلية الشمالية. وإن مصطلح "آرام نهريم" يقصد به الأقسام الشمالية من نهري دجلة والفرات وبالتحديد نهر الفرات وفي المنطقة الواقعة بين منبع البليخ وحتى الفرات ، وعرفت بمنطقة ما بين النهرين ومركزها حران جنوبي الأناضول. وأطلقت تسمية ميسوبوتاميا Mesopotamia من قبل الإغريق ، وكان المؤرخ اليوناني بوليبوس "٢٠٢ . ١٢٠ ق.م" هو من أطلق هذه التسمية على ما بين النهرين. ومن ثم شاع استعمالها بحيث أخذت تطلق على كافة أنحاء وادي نهري دجلة والفرات من منبعهما وحتى مصبهما. وأطلق الآشوريون تسمية أرومو و آرامو على بلاد آرام وسكانها ، حيث عرف اسم آرام منذ عهد الملك الأكادي نارام سين "٢٢٥٠ ق.م " كما يقول موسكاتي في كتابه "الحضارة القديمة".(٤)

اللغات العاربة أو الجزرية

مصطلح السامية لم يظهر للوجود إلا في سنة ١٧٨١ على يد المستشرق النمساوي شلوتزر.(٥) الذي أطلقه على اللغات التي كانت دارجة في قديم الزمان في منطقة الجزيرة العربية ، والتي كان يتكلمها العديد من الأقوام ، العبريين والعرب والآراميين والأحباش والأنباط وغيرهم من الأقوام التي هاجرت من الجزيرة العربية بسبب ظهور مناطق جفاف نتيجة التصحر. ولهذا فان علينا أن نفترض أن هجرات سكان الجزيرة العربية قد تغلغلت في بلاد الرافدين وبلاد الشام ومصر ، وبشكل متتابع كلما ازداد التصحر وباتجاهات متعددة ، شمالاً وشرقاً وغرباً. ويبدو ، بناء على ذلك ، أن اللهجات ازدادت تباعداً منذ ذلك الحين وتطورت إلى لغات شيئاً فشيئاً قبل أن تنتشر في بلدان الهلال الخصيب ، لأنها عندما دخلت تلك البلدان كانت قد وصلت فعلاً إلى مرحلة اللغات.

نعود فنقول إن تسمية اللغات السامية ، التي أطلقها شلوتزر ، جاءت بناء على تشابه لغات تلك الأقوام. وشاعت هذه التسمية منذ أواخر القرن الثامن عشر وحتى الآن. وقبيل الحرب العالمية الثانية وبعدها اكتسب مصطلح الساميين معنى سياسياً جديداً ، حيث أطلق على اليهود خاصة ، وصارت عبارة العداء للساميين تعني العداء لليهود ، فزادت التسمية لبساً. ويتمثل عدم دقة هذه التسمية في أنها تعد العيلاميين من سلالة سام ، وكذلك الكوشيين ، وهم من سلالات أخرى ، فالعيلاميون هم من الشعوب الهندو أوربية ، والكوشيون هم من الشعوب الزنجية الإفريقية ، ولعل الذي أوهم كتاب العهد القديم هو أن العيلاميين كانوا يستعملون الخط المسماري الأكادي ، وقد اختلطوا بأهل العراق وجزيرة العرب. أما الكوشيون فإن منهم الأحباش الذين يتكلمون بإحدى اللهجات اليمنية القديمة وبخط مشتق من خطها المسمى المسند.

أما العلماء والآثاريون والمختصون العرب ، فان بعضهم يميل إلى تسمية اللغات السامية باسم يمثل أصولها التاريخية وموطنها الأول والذي يجمع الباحثون على أنها جميعاً كانت تشترك فيه ، وما زال بعضها يعيش فيه ، ونعني جزيرة العرب وما أثر من تسميات متعارف عليها لشعوبها الأولى التي كانت تسكن جزيرة العرب ، وفي مقدمتها العربية الشمالية والعربية الجنوبية بلهجاتها المختلفة ، وبناء على هذا فان هؤلاء العلماء والآثاريين والمختصين كانوا قد اقترحوا اسم الشعوب

العاربة واللغات العاربة أوالعاربية ، والعاربة هم الذين يشير إليهم العلماء العرب في صدر الإسلام بأنهم سكان الجزيرة الأوائل مثل: طسم وعاد وجديس وثمود وارم ، في حين اقترح البعض الآخر أن تسمى هذه اللغات باللغات الجزرية ، نسبة إلى شبه جزيرة العرب ، وهي تسمية جغرافية في الأساس. واقترح فريق آخر أن تسمى اللغات السامية باللغات العربية القديمة ، وهي تسمية جيدة إذ تشير إلى الموطن الأول للغات وهو جزيرة العرب ، كما تؤكد قدم اللغة العربية ، ولكن من العسير إطلاقها على بقية اللغات التي تختلف عن العربية القديمة والحديثة التي نعرفها ، فكيف تكون الأكادية واللغة الفينيقية لغة عربية قديمة وكذلك العبرية والآرامية ، وكيف نصنف اللهجات العربية القديمة كالصفوية والثمودية ؟ (٦).

العرب القدماء

ونستنتج من هذا الكلام أن القول بأن الآراميين سميوا بهذا الاسم نسبة إلى آرام أحد أبناء سام بن نوح ، غير صحيح. ولهذا يبتعد عبد الهادي نصري في كتابه "شمس آرام شمس العرب" عن ذكر المفهوم السامي ويستبدله بمصطلح العرب القدماء. ويقول (لقد تأثر بعض المؤرخين والعلماء اللغويين بمفهوم السامية ، من خلال تقسيم التوراة للشعوب حسب أولاد نوح سام وحام ويافث).(٧) وفي مؤتمر عالمي عقد في باريس عام ١٩٨٤ للبحث عن فهم جديد لنشوء وتطور النوع البشري ، قال البروفيسور ايف كوبنز: (لا شك أن العوامل المناخية والجيولوجية هي الأساس الأول في جميع عمليات التطور السلالي لجميع الكائنات الحية من إنسان وحيوان ونبات) (٨). وعلى هذا الأساس العلمي ظهر تقسيم جديد للمجموعات البشرية يقوم على جملة من الأسس ، استبعد من خلالها التقسيم التوراتي. وصنف العرب من خلاله ضمن مجموعة البحر المتوسط.

ويورد المطران اسحق ساكا عدة روايات حول نسب آرام ،[٩] فهو في إحدى الروايات الابن الخامس لسام بن نوح ، وفي رواية أخرى هو ابن قموئيل بن ناحور[١٠] وناحور أخ ابراهيم الخليل عليه السلام. وفي رواية ثالثة هو من نسل أشير الجد الأعلى لقبيلة أشير[١١].

ويسترسل المطران ساكا قائلاً: إن ضبط لفظ آرام وكتابة هذا الاسم تتم بمد الألف والراء مفتوحتين كما هو ثابت وشائع في اللغات العربية والسريانية والعبرية. ويقول الدكتور أنيس فريحة آرام بمد وآرام بدون مد والأصح بمد.[١٢] ويميز المطران ساكا بين لفظتي آرام وإرم وبين الآراميين والإرميين. قال ابن العبري : (إن الآراميين يأنفون من الاختلاط بالإرميين). ويؤكد أن لفظة آرام لا علاقة لها بإرم ذات العماد ، لأن المراد في القرآن الكريم اسم مدينة ، وآرام في التوراة اسم علم وهي لفظة سريانية مشتقة من جذر سلامي مشترك "روم " بمعنى المرتفع أو العالي. وقيل إنه يعني الجبل أو الوعر وهو عكس معنى آشور بمعنى السهل. وقال الأب مارتين إن آشور معناها خطوة ومشية ، أما آرام فهو لفظ عبراني مشتق من روم أي ارتفع أو " ورم " بالعربية أي انتفخ[١٣].

وقد سمي الآراميون كذلك ، إما لأنهم سكنوا المرتفعات والجبال على حد قول البعض ، رغم أن هذا الأمر غير وارد جغرافياً ، وإما لأن الاسم يشير إلى علو المكانة وسمو المنزلة ، نظراً للتقدم الحضاري الذي أحرزه الآراميون بانتشار لغتهم ، وبالمقابل إن اسم بلاد كنعان تعني الأرض المنخفضة وهي مشتقة بالعبرية من فعل "كنع" أي ركع وانخفض. وهو لفظ ميت في الكلدانية بمعنى خزي ، وفي العربية خضع.[١٤]

الارتفاع والسمو

ويذهب محمد محفل نفس المنحى حين يقول : يدل جذر "رام" في بعض اللغات السامية على معنى الارتفاع والسمو ، تقول في العربية رام روماً ومراما الشيء أي طلبه وسعى إليه ، والمرام هو المطلب ، والرام من النبات هو الشجر أي النبات الباسق ، والريم الجمل الصغير وكذلك القبر أي الأرض المرتفعة عما حولها.[١٥]

ويضيف محفل: وكم هي عديدة القرى في سورية ولبنان وفلسطين والأردن المركبة أسماؤها من رام واسم آخر كرام حمدان في محافظة إدلب ورام العنز ورام الجبل في محافظة حمص في سورية ، ورام البترون ورام بعلبك في لبنان والرمتا في الأردن ورام الله والرامة في فلسطين ، وهي قرية يشرف الناظر من أعاليها على بلاد صور وجبال القدس والبحر المتوسط ومدينة صفد وبحيرة طبرية. وأغلب المدن والقرى التي ورد ذكرها بنيت على مرتفعات وهي ذات أسماء قديمة تعود إلى الفترتين الكنعانية والآرامية.[١٦] ويختم محفل حول هذه النقطة بقوله إن لاسم آرام وآرامي صلة بالارتفاع والسمو والسيادة ، وقد أطلقت كلمة آرام في بادئ الأمر على المنطقة الشمالية لبلاد الرافدين ، تلك المنطقة التي يرويها نهر الفرات حيث انتشر الآراميون قبل أن يؤسسوا دويلاتهم.[١٧]

> "عودة الآراميين إلى سام بن نوح ليس صحيحاً ولا يوجد شيء اسمه السامية"

وأما لفظة "آرام" فقد وردت في كتابة مسمارية ، ترجع إلى الملك الأكادي نارام سين في القرن الثالث والعشرين ق.م. ثم وردت في كتابة أخرى تشير إلى دويلة باسم آرام قرب مملكة أشتونا في جنوب العراق[١٨] وبرزت آرام كتسمية للشعب الآرامي وعرف بها سياسياً وعسكرياً وحضارياً في أواخر الألف الثاني ق.م مقترنة بلفظة الأحلامو[١٩] ثم تغلبت التسمية آرام على كل القبائل الآرامية في القرن الحادي عشر ق.م ، واستمرت وتعززت وكان لها شأن في التاريخ. وقيل إن الآشوريين أطلقوها على إحدى قبائلهم ، ثم عمت القبائل الأخرى.[٢٠]

الأحلامو ـ الآراميين

ووردت تسمية الأحلامو .الآراميين في بعض النصوص المثبتة في نقش وجد على لوح يعود إلى عهد الملك الآشوري "أشور .نيراري " الثاني "٩١١ . ٨٩٠ ق.م" وفيه وصفوا بأنهم "شعوب السهوب".[٢١] وفي نقش يعود للملك "آشور ناصر بال" الثاني "٨٨٤ . ٨٥٩ ق.م" وجد نص يشير إلى أن هذا الملك صرح أنه حكم بالنفي على ألف وخمسمائة أحلامي .آرامي من "بيت زماني" في أعلي نهر دجلة إلى بلاد آشور. ولكن يبدو أن تسمية الآراميين اقتصرت على اسم "الآراميون". وثمة نصوص أخرى يرد فيها اسم الأحلامو ولكن بشكل نادر. وبقي اسم الأحلامو مضافاً إلى اسم الآراميين دون معرفة السبب حتى حوالي القرن الثاني عشر ق.م ، لتنحسر تسمية الأحلامو بعد هذا التاريخ ، لتحل محلها تسمية "الآراميون".[٢٢] والملفت للنظر هو أن الآراميين رغم أنهم كانوا مندمجين مع الأحلامو وقبائل أخرى. و كانت تسميتهم ترد في عهودهم الأولى جنباً إلى جنب مع الأقوام المندمجة معهم ولاسيما الـ"أحلامو" . إلا أن ما نلاحظه هو أن اسمهم بدأ يطغى في النصوص العائدة لنصوص أحدث ، ويختفي معه تدريجياً أي ذكر لـ "أحلامو" وغيرهم ، ما يدل على تفوق الآراميين على غيرهم.[٢٣]

ويعتقد المؤرخ ليبينسكي E. LIPINSKY في كتابه THE ARAMEANS ، أن التسمية الآرامية تعني باللغة الآرامية " الغزلان " . وقد تكون تسمية آراميين تلفظ " أريمي " كما ورد في الكتابات الأكادية القديمة الآرامية - السريانية. وذكر ليبينسكي أن " أريمي أو أريماي " هي جمع تكسير لكلمة " ريم" ، و معناها الغزال في اللغة الآرامية و كذلك في اللغة العربية. وهناك من يقول أن التسمية الآرامية تعني الأراضي المرتفعة. وفي مرحلة لاحقة ادعى آخرون أن التسمية أطلقت على سكان المناطق المرتفعة.

> "آرام تسمية جغرافية تعني الأراضي المرتفعة"

ويقول هنري بدروس كيفا[٢٤] أن هناك برهاناً قاطعاً يثبت أنه من المستحيل أن تكون التسمية الآرامية تعني " ܐܪܥܐܪܡܬܐ " أي الأراضي المرتفعة ، و ذلك لسبب بسيط جداً و هو أن اللغة الآرامية القديمة كانت تستخدم كلمة " أرض " تماماً مثل اللغة العربية لتشير إلى الأرض اليابسة ، و قد بدأت اللغة الآرامية في عهد الإمبراطورية الفارسية أي منذ أواخر القرن السادس تستخدم كلمة " ܐܪܥܐ " بمعنى الأرض.

ويضيف كيفا أن آرام هي تسمية جغرافية أطلقت على سوريا الحالية، وهي موجودة في الكتابات الآرامية القديمة. ككتابات "سفيرة"[٢٥]، التي تعود إلى أواسط القرن الثامن ق.م. حيث وردت التسمية القومية و الجغرافية " كل آرام ".

آرام النهرين

و قد استعملت هذه النصوص التسميات التالية : آرام العليا (حلب) آرام السفلى (دمشق) وكل آرام أي كل بلاد آرام . ومن المعلوم أن المؤرخين اليونان كانوا يستعملون " سوريا كولن " ما دعا عدداً من المؤرخين[٢٦] أن يرى في " كولن " اليونانية الاسم الآرامي القديم . ولقد وردت هذه التسميات مرات عدة في تاريخ فلافيوس جوزيف وذلك في حديثة عن السريان الآراميين (وليس الآشوريين) . وفي مكان أخر يستعمل تسمية سوريا السفلى وسوريا العليا (chapitre IBID , Livre VIII) و أطلق العهد القديم تسمية " آرام نهرين " ، على منطقة الجزيرة السورية التي كانت تعرف في المصادر السريانية بـ " بيت نهرين " و اليونانية بـ MESOPOTAMIA. كما انتشرت تسمية " بيت آرامي " أي بلاد الآراميين على جنوب و وسط العراق منذ حوالي ٥٠٠ سنة ق.م.

وبعيداً عن الذهاب أكثر من ذلك إسهاباً وتفصيلاً في هذا الموضوع المتعلق بتسمية الآراميين ومعناها ومصدرها ، نقول مع استبعاد التفسير المتعلق بعلاقة الآراميين بالسامية حسب المفهوم والتفسير التوراتي ، فإن أغلب إن لم يكن كل التفسيرات الأخرى تحمل الكثير من الصحة بين طياتها بشكل أو بآخر.

الهوامش:

١.خليل اقطيني ، مدائن الخابور في الحسكة ودير الزور ، ص ٣٤ و ٣٥.
٢. تك ١٠ : ٢٢
٣. المطران صليبا شمعون ، الممالك الآرامية ، ص ٥.
٤. عبد الحكيم الذنون ،الذاكرة الأولى ، ج ٢ ، التاريخ القديم لبلاد الشام ، ص ٢٣٥.
٥ـ عبد الوهاب محمد الجبوري ، مقدمة في تاريخ الآراميين ، محاضرة ألقيت على طلبة قسم الدراسات المسمارية في كلية الآداب / جامعة الموصل/٢٠٠٢.
٦. المصدر السابق.
٧.عبد الهادي نصري ، شمس آرام شمس العرب ، ص ١٠.
٨. مجلة المعلم العربي (سورية) ، العدد ٣١١ ،ص ١٥٧.
٩. اسحق ساكا ، الآراميون ص٣.
١٠.تكوين ٢٢ : ٢
١١. سفر أخبار الأول ٧ : ٣٤.
١٢. أنيس فريحة ، دراسات في التاريخ ، ص ٢٢٢.
١٣.الأب مارتين ، تاريخ لبنان ، ترجمة رشيد الشرتوني ، ص ٩٠. ٩٣ .
١٤.فيليب حتي ، تاريخ سورية ، ص ٨٥.
١٥. محمد محفل ، المدخل إلى الآرامية .ص١٤.
١٦.المصدر السابق ص١٤.
١٧.المصدر السابق ص١٥.
١٨.الدكتور أحمد سوسة ، العرب واليهود في التاريخ ، مج ١ ، ص ٩٨ نقلاً عن:
Moscati, Ancient Semitic Civilizations , p 168.
١٩.المطران صليبا شمعون ، الممالك الآرامية ، ص ٥.
٢٠.ألبير أبونا ، أدب اللغة الآرامية ، ص ١٢. ١٣٢ .
٢١.دوبون سومر ، الآراميون .ص ٢٦.
٢٢. المصدر السابق
٢٣.المصدر السابق
٢٤.مقال منشور في جريدة آرام ، وهي جريدة جديدة عربية على الإنترنت
٢٥.بلدة قرب حلب
26- MAZAR, B., The Aramean Empire and its relations with Israel in : Biblical Archelogist T-25, 1962 P. 119

الكاتب والصحفي الأستاذ خليل اقطيني يفوز بجائزة القلم الذهبي



الأستاذ خليل اقطيني في حفل التكريم

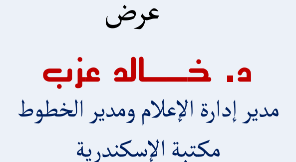
أعلنت لجنة الصحفيين الرياضيين في سورية التابعة لاتحاد الصحفيين السوريين، فوز الكاتب والصحفي الأستاذ خليل اقطيني عضو اتحاد كتاب الانترنت العرب، بجائزة القلم الذهبي عن فئة التقرير الصحفي في المسابقة التي أقامتها اللجنة. وذلك عن التقرير الذي حمل عنوان (إلى جنان الخلد جورج مختار.. حظي بتكريم القائد الخالد، والحارس العملاق وشيخ الحراس من أحب الألقاب إلى قلبه). حيث تم تكريم الكاتب والصحفي الأستاذ اقطيني مع بقية الفائزين بالمسابقة عن بقية الفئات، في الحفل الكبير الذي أقامته لجنة الصحفيين الرياضيين، يوم الاثنين الموافق الثامن من شباط ٢٠١٠، في مطعم قصر كيوان بدمشق بالتعاون مع شركة MTN، بحضور رئيس اتحاد الصحفيين الياس مراد، ورئيس اللجنة المؤقتة للاتحاد الرياضي العام العميد فاروق بوظو، وعدد من أعضاء المكتب التنفيذي لاتحاد الصحفيين، واللجنة المؤقتة للاتحاد الرياضي العام، ومدير العلاقات العامة في شركة MTN جهاد قصار، ورؤساء تحرير الصحف والأقسام الرياضية. وعدد كبير من العاملين في منظومة الإعلام الرياضي السوري.

وتغتنم دورية كان التاريخية هذه المناسبة السعيدة لتوجه أجمل التهاني وأطيب التبريكات والأمنيات للكاتب الأستاذ خليل اقطيني، مع تمنياتنا بمزيد من التقدم والنجاح الدائم.

التنشئة السياسية للطرق الصوفية في مصر

المؤلف : د. عمار علي حسن
الناشر: دار العين .القاهرة
تاريخ النشر: الطبعة الأولى ٢٠٠٩
عدد الصفحات: (٦٨٨) من القطع فوق المتوسط





عرض
د. خـــالد عزب
مدير إدارة الإعلام ومدير الخطوط
مكتبة الإسكندرية
الإسكندرية – جمهورية مصر العربية
Khaledazab66@hotmail.com



توقع فشل إستراتيجية واشنطن المشجعة للتصوف
"كتاب يتتبع تاريخ تبادل المنافع بين الطرق الصوفية والسلطة في مصر"

هناك من توقعوا تراجع الطرق الصوفية أو اندثارها في المستقبل ويستندون في ذلك إلى ثلاثة عوامل أولها موجة التحديث التي تتسرب رويداً رويداً إلى عقل المجتمع المصري والتي ستضع ظاهرة تقليدية مثل الطرقية في موقف حرج ، وثانيها ظهور وترعرع أشكال أخرى للتدين تتمثل في جماعات شتى تتسطر فوق خريطة مصر راحت تزاحم الصوفية ، تنتقدها أحياناً وتجلدها أحياناً وتضربها في مقتل اعتقادها الخاص بكرامات الأولياء والتضرع للأضرحة ، وثالثها غياب الهدف السياسي الواضح للصوفية بينما تمتلكه القوى الإسلامية الأخرى ، ما جعل المتصوفة جماعة لا يهمها تغيير المجتمع أو الانتصار لاتجاه سياسي معين وإن كان أفرادها يعرفون كالآخرين هموم الوطن ويتأثرون بها مثلما أثبتت هذه الدراسة. وهذا الابتعاد عن السياسة قد يؤدي مع الأيام إلى انصراف الناس عن الطرق الصوفية بقدر انصرافها عن قضية تمس حياة كل إنسان وهي السياسة ، التي تبدأ بالخدمات البسيطة في المجتمع المحلي ، وتتصاعد لتصل إلى مستوى الحكومة المركزية ومنها إلى النظام العالمي ، ما يجعل من الصعب على أي فرد أن يتجاهلها ، فهي مقتحمة لا تعرف حدوداً ولا سدوداً.

لكن يبدو أن الحقيقة تسير عكس هذه التوقعات فطوال القرن العشرين سارت الصوفية المصرية في اتجاه مخال للرسم البياني الذي بشر به بعض الباحثين واستطاعت أن تضم بين مريديها بعض الفئات المحدثة ، وأن تساهم في عملية التحديث الاجتماعي. ولم تؤد أشكال التدين الأخرى إلى تراجع نفوذ المتصوفة بل حدث العكس ، فالنظام الحاكم كان في مصلحته دائماً أن تكون الصوفية قوية ظاهرة في مواجهة القوى الإسلامية المناوئة له ولذا عمل طوال الوقت على إلهاب وقودها ليستمر مشتعلاً ، ثم دخل الأمريكيون على الخط فزادوا هذا التوجه عمقا ، وأعطوه بعدا دوليا واستراتيجيا كبيرا.

هذا التصور تضمنه كتاب (التنشئة السياسية للطرق الصوفية في مصر: ثقافة الديمقراطية ومسار التحديث لدى تيار ديني تقليدي) للدكتور عمار علي حسن ، الذي صدر عن دار العين مؤخرا في نحو ٦٨٨ صفحة من القطع فوق المتوسط ، وهو دراسة نظرية وميدانية موزعة على أربعة أبواب ، إلى جانب ببليوجرافيا عن الدراسات العربية والأجنبية حول الصوفية والتصوف ، وملاحق ترصد علاقة الطرق الصوفية بالنظم السياسية المصرية المتعاقبة منذ محمد علي إلى الآن.

وينطوي الباب الأول على الإطار النظري حيث يعرض مفاهيم التنشئة السياسية والتصوف وعلاقة الظاهرة الدينية بالظاهرة السياسية ، ثم يتطرق إلى القيم السياسية التي تتناولها الدراسة وهي الحرية والعدالة والمساواة والتسامح والانتماء والانخراط ، وصولا إلى تحولات التدين إلى أيديولوجيا وفلكلور وأساطير وتجارة وثقافة سائدة وتأثير ذلك على السلوك السياسي للأفراد. ثم يتطرق هذا الباب إلى الدين والثقافة السياسية المصرية ، من خلال تتبع تأثيره على التطور التاريخي لعلاقة الحاكم بالمحكوم منذ العصر الفرعوني وحتى العصر الحديث.

ويفرد الباحث فصلا مطولا عن مكونات التنشئة السياسية للمتصوفين المصريين ، موزعا إياها على الجوانب الفكرية والتنظيمية التاريخية ، فيدرس القيم السياسية الناتجة عن لغة المتصوفة وأفكارهم التي تدور حول الزهد والمعرفة الحدسية والولاية والمحبة ، ثم يبين دور التنظيم الإداري للطرق الصوفية في صناعة الثيوقراطية ، وأخلاق السياسية ومسارات الشرعية الكامنة في التسلسل الروحي للمتصوفة. وفي البعد التاريخي يتناول الباحث علاقة المتصوفة بالسلطة السياسية في مصر منذ صلاح الدين الأيوبي وحتى الآن ، وعلاقتهم بالجماهير العريضة ، والجماعات والتنظيمات الإسلامية الأخرى ، وهنا يضعهم في مقارنة مع المسار السياسي للأزهر الشريف.

وينطوي الباب الثاني على الجانب الميداني حيث توسل الباحث بدراسة الحالة واتخذ من الطريقتين الصوفيتين ، الحامدية الشاذلية والخليلية ، ثم من الطريقة البرهانية حالة للمقارنة. وقد اختار الباحث عينة ممثلة من هاتين الطريقتين للإجابة على التساؤلات التي شملها الاستبيان والتي تسعى إلى اختبار المعارف والقيم والاتجاهات السياسية للمتصوفة.

وفي الباب الثالث من كتاب التنشئة السياسة للطرق الصوفية في مصر سعى الباحث إلى قراءة ما وراء الأرقام التي نتجت عن الاستبيان ، وفهم ما حصله من معايشة المتصوفة عن قرب عبر منهج الملاحظة

بالمشاركة ليقدم تحليلا كيفيا لواقع المتصوفة إلى جانب ما طرحه من تحليل كمي ، يشمل الموقف السياسي والاجتماعي للطرق الصوفية من القضايا المطروحة. وبعدها يفسح الباحث مجالا لدراسة ثقافة الديمقراطية لدى المؤسسات الدينية الدعوية ، وشروط إدماج أصحاب الرؤى الإسلامية في حياة سياسية ديمقراطية ، والتي يحصرها في ضرورة الإصلاح الديني ، وقيام المشروعية على الجماعة ، وتوحد مرحلتي الصبر والتمكن ، وتديين السياسية لا تسييس الدين ، والتماثل لا التمايز ، والانتقال من الاستشارة إلى الديمقراطية لاسيما في جانبها الإجرائي ، والانتخاب لا البيعة ، وتقديم المصلحة القطعية على النص الظني ، وعدم حصر الجهاد في بعده الديني ، وضرورة الالتفات إلى القوة السلسة ، والتخلي عن أوهام الحتميات التاريخية.

وفي تناوله لوضع الطرق الصوفية بين التحديث والثقافة التقليدية ينطلق الباحث من تعريف محدد للتحديث وتفاعلاته وكونه مسارا عالميا تنازعه الخصوصيات المحلية ، ثم يتناول البنى الاجتماعية التقليدية مثل القبيلة والطريقة الصوفية وأشباهها ، وخط التحديث في خطاب المتصوفة وممارساتهم ، ومقارنة هذا بمسار التحديث لدى الأزهر الشريف.

وفي الباب الرابع يتعرض الباحث للطرق الصوفية في العالم العربي والإسلامي ، ليضعها في مقارنة مع الصوفية المصرية عبر تناول دور ثقافة التصوف وحركته في تحقيق شروط الإنجاز السياسي والاقتصادي ، لاسيما في مجالي التنمية والجهاد ضد الاستعمار.

ويرى الباحث أن الطرق الصوفية أضحت ظاهرة اجتماعية لا يمكن إهمالها ، ففضلاً عن أهميتها ، فهي لا تزال حقلاً بكراً أمام الدراسات الاجتماعية عامة والسياسية خاصة وينتهي من دراسته إلى نتائج محددة أولها أن التنظيم الصوفي بشقيه الإداري والروحي ينتج قيماً سياسية بعضها إيجابي مثل التسامح والتماسك والتعاون والاستمرارية وبعضها سلبي لا يشجع على نشوء ثقافة الديمقراطية مثل الخضوع والطاعة العمياء والجمود والإكراه ، فيما تعزز كاريزما الشيخ قيمة التسلط. فالشيخ قائد مطاع يتكئ على شرعية مستمدة من الانتساب إلى آل البيت أو الأولياء الكبار مثلما يعتقد المتصوفة ، وهو يرث المشيخة من ذويه ، ويمثل رأساً لتنظيم هو خليط تام من جماعات مختلفة من حيث التعامل والاختيار والتجانس أو النوع والسن. والشيخ هو الرمز الأساسي الذي يتمحور حوله التنظيم الصوفي باعتباره تنظيماً يقوم على الزعامة الملهمة وليس تنظيما إقطاعياً أو نفعياً يقوم على ازدواج المنافع المشتركة بين أفراده ومساهمتهم جميعاً في اتخاذ القرارات الخاصة به بشكل منطقي ورشيد ، كما أنه ليس تنظيماً اختصاصياً يركز على التخصص المهني أو العلمي. وهذا الشكل التنظيمي الذي تتخذه الطرق الصوفية وإن كان قد أدى إلى خلق قيم سياسية سلبية فإنه يعتبر العامل الأساسي الذي أدى إلى استمرار وجودها على قيد الحياة كل هذه القرون.

أما النتيجة الثانية فهي على رغم من أن الفكر الصوفي الذي يقوم على أركان أربعة هي المعرفة اللدنية والزهد والولاية والمحبة ينتج قيماً سياسية متعارضة بعضها إيجابي مثل الانتماء والانخراط والاستقرار والتسامح والتعاون والتماسك ، وقيما سلبية مثل الإكراه والصراع والخضوع والتسلط والانعزال إلا أن الممارسة الحياتية تسير في اتجاه يرفع من شأن القيم السلبية على حساب القيم الإيجابية ، فتاريخ علاقة المتصوفة بالسلطة السياسية يشير إلى أنهم داهنوها وخضعوا لها أكثر مما عارضوها أو اتخذوا موقفاً حاسماً ضد فسادها وطغيانها. وإذا كان بعض مشايخ الصوفية قد أغضبهم ظلم السلاطين للرعية ، وسعوا لمقاومة الجور وانتصروا للجماهير فإن هذا لم يحدث سوى مرات نادرة ، وكان يتم بشكل فردي ومتقطع ، ولم يكن أبداً يمثل سياسة متواصلة ، تنم عن إصرار على انتزاع الحقوق ، والتعامل مع الدين بوصفه ثورة على الظلم والتجبر والفساد.

ويرى الباحث ، في النتيجة الثالثة لدراسته ، أن أساليب التنشئة السياسية للطرق الصوفية في مصر رغم اختلاف ظروف النشأة والمؤهلات الشخصية للشيخ والقدرة الاقتصادية والدقة التنظيمية والانتشار الجغرافي والقوى العديدة لمريدي الطريقة ، ومن ثم تتشابه هذه الطرق من حيث الثقافة السياسية لأفرادها. فالمعين الذي ينهل منه الجميع واحد وهو الأوراد والأذكار والطقوس وهو إن اختلف في شكله العام إلا أن جوهره متطابق ، كما أن الدور الذي يلعبه الشيخ في تربية مريديه لا يختلف من طريقة إلى أخرى. ومع تماهي وانخراط المتصوفين في المجتمع فإن وجد اختلاف في الثقافة السياسية بين الطرق فإن ذلك يعود إلى نوعية المحيط الاجتماعي الذي تعيش فيه الطريقة وليس لطبيعة الفكر والطقوس والتنظيمات الصوفية.

ويؤكد الباحث أن الإصلاح السياسي في العالم العربي يتطلب الالتفات إلى الإصلاح الديني ، فطالما استقوت الجماعات والتنظيمات التي تربط الدين بالسلطة السياسية ، وتبحث في الدين الإسلامي نفسه عن سلطة تشبه الكهنوت فإن فرص إيجاد ثقافة سياسية ديمقراطية ستصبح غاية في الضعف.

ويدعو الباحث إلى إعادة النظر في الطرق الصوفية خارج الاعتقاد والتقديس بمعنى أن الطريقة لم تعد شيئاً مقدساً وإنما ظاهرة اجتماعية شعبية حتى ولو أطلق عليها دين الحرافيش أو الدين الشعبي مثلما يحلو للبعض أن يصفها. وهذا التقييم الجديد للطريقة لابد أن يقوم على الدراسة المتعمقة والبحث الجاد انطلاقاً من شيئين رئيسيين: الأول هو ارتباط الطرق الصوفية بالمزاج الديني المصري وكون التربة الاجتماعية المصرية مهيأة إلى حد كبير لتقبلها ، والثاني هو الانتفاع المادي لأرباب التصوف من أسر المشايخ والقائمين على الأضرحة ، وهو الأمر الذي وصل إلى حد ادعاء البعض بوجود مقابر للأولياء في أماكن معينة من أجل استغلال الميل الديني لدى الناس في حثهم على دفع النذور والصدقات.

ثم ينتهي إلى نتيجة مهمة يقول فيها إن إمعان النظر فيما ورد بين دفتي هذا الكتاب إلى القول إن الاستراتيجية الأمريكية الرامية إلى تعزيز التصوف في وجه الجماعات والتنظيمات السياسية ذات الإسناد الإسلامي ، محكوم عليها بالفشل. وربما يغير الأمريكان وجهة نظرهم ، حال قراءة متعمقة لما ينتجه الفكر الصوفي من ثقافة سياسية من ناحية ، والإطلاع على تاريخ الطرق الصوفية في آسيا وأفريقيا من جهة ثانية ، وربما يمضون في استراتيجيتهم ، لكن الثابت في كل الأحوال أن الصوفية شكلت على مدار التاريخ أحد تجليات الإسلام في أبعاده الدينية والسياسية والاجتماعية ، وستظل تزاول هذا التجلي في المستقبل المنظور.

وقد أرفق الباحث على غلاف كتابه شهادات لعدد من الباحثين والمفكرين العرب والأجانب ، حيث وصف جاسون براونللي ، أستاذ العلوم السياسية بجامعة تكساس الأمريكية الكتاب بأنه إضافة متميزة في علم السياسة عامة ، لأنه يسد نقصا نجم عن تجاهل نسبي للأدوار



السياسية للتنظيمات والحركات الإسلامية الدعوية والروحية. وأنه عمل رائد أضاء جوانب مظلمة عن الروابط العميقة والقوية بين الطرق الصوفية والسلطات المصرية المتعاقبة، واستطاع عبر بناء نظري ومسح ميداني دقيق أن يقدم إسهاما حيويا في الأدبيات السياسية عموما، ولاسيما تلك التي تهتم بأيديولوجيات الحركات الإسلامية.

وأكد براوناللي أن قراءة هذا الكتاب تبقى ضرورية للدارسين المعنيين بالحركات الدينية، وبالتطور الديمقراطي للمجتمع المصري.

أما المفكر المصري السيد يس فقد اعتبر الكتاب إسهاما بارزا في إطار المحاولات الرامية إلى رسم خريطة معرفية للحركات الإسلامية، وذلك في ظل اهتمام الدوائر السياسية والثقافية بمختلف أنماط الهويات الدينية، وقال إن المؤلف يقدم تحليلا دقيقا لجذور الطرق الصوفية وتنظيماتها وممارساتها السياسية، ومدى استيعابها ثقافة الديمقراطية والتحديث، مبينا أن ما يزيد من قيمة الكتاب في نظره هو تضمنه دراسة ميدانية، ولهذا فهو يشكل إضافة معرفية مهمة للمكتبة العربية.

وأكد عالم الاجتماع الفرنسي آلان روسيون أنه وجد في الكتاب ما أفاده في دراسته للمجتمع المصري وقال الكتاب قربني أكثر من فهم تيار ديني لم يدرس كما ينبغي من الباحثين في علمي السياسة والاجتماع وهو الطرق الصوفية، وجعلني ازداد اقتناعا بأن الإصلاح السياسي في العالم العربي برمته يجب أن يترافق مع الإصلاح الديني.

ويقول عالم الاجتماع المصري علي فهمي مع خبرة في دراسات الدين الشعبي تكاد تناهز نصف قرن أنتهي، بقدر فرض من الموضوعية والدقة المنهجية، أن هذه الدراسة هي الأكثر تميزا بين مثيلاتها في مصر، وأن هذا التميز أوضح في الجوانب النظرية بالغة الثراء.

أما فوليا أتاكان، أستاذ العلوم السياسية بجامعة يلدز في تركيا فتقول يتعامل هذا الكتاب مع قضية حيوية بالنسبة لمصر، ويقدم تحليلا مهما للعلاقة بين الطرق الصوفية والسياسة، وهو كتاب نافذ البصيرة وملهم.

د.عمار علي حسن

رئيس قسم الأبحاث بوكالة أنباء الشرق الأوسط



باحث أكاديمي متعدد الاهتمامات ما بين علم الاجتماع والسياسة والتصوف والكتابة الإبداعية والنقد الأدبي ورغم أنه تجاوز الأربعين بعامين إلا أنه فاز بجائزة الشيخ زايد في التنمية وبناء الدولة عن كتابه "التنشئة السياسية للطرق الصوفية في مصر، ثقافة الديمقراطية ومسارات التحديث لدى تيار ديني تقليدي" ويعتبر أصغر باحث حصل عليه.



مهرجان النور للإبداع

"دورة المفكر عبد الإله الصائغ"

العراق، خلال الفترة ١٠- ١٣ كانون ٢٠٠٩

جائزة البحوث والدراسات

الفائز الثالث

أشرف صالح

رئيس تحرير دورية كان التاريخية

عن بحثه الموسوم

"التراث الحضاري في الوطن العربي: أسباب الدمار والتلف وطرق الحفاظ"



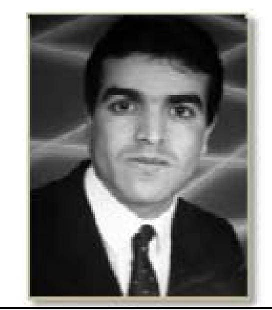
ينشر لأول مرة

من تاريخ الدولة المركزية المغربية الوسيطة

وجدة: منشورات الهلال ، ٢٠٠٦.

الجزء الثاني

الارتزاق



د.عبد العزيز غوردو
أستاذ باحث وإطار في الإدارة التربوية
أكاديمية الجهة الشرقية
وجدة - المملكة المغربية
ghourdou.abdelaziz@voila.fr

الباب الأول ◄◄ المفاهيم والأصول

الفصل الثاني ▼

جذور الارتزاق في التاريخ الإسلامي والمغربي

جذور الارتزاق في التاريخ الإسلامي

لاشك أن تاريخ الارتزاق قديم جدا ، ربما بقدم تاريخ الحضارة الإنسانية نفسها ، وليست الأدلة التاريخية هي التي تعوزنا لتأكيد ما نقول. فالحضارة المصرية - وهي واحدة من أقدم الحضارات البشرية - قد لجأت إليه ، إذ كان أمرا عاديا أن يكتري الفراعنة جنودا من الإغريق الآسيويين ، الذين كانوا يعرضون خدماتهم عن طيب خاطر للكراء ويضعونها رهن إشارة الفراعنة ، وما زالت المعسكرات التي كانوا يقطنونها ماثلة في "الدلتا" و"ممفيس" شمال مصر ، كما نجد شواهد مماثلة في الجنوب أيضا في "أبوسنبل"[١]

كما أن الإغريق أنفسهم استخدموا المرتزقة في صراعهم مع القرطاجيين والأوتروسكيين[٢] ، حيث كان من السهل جدا جمع عشرة آلاف مرتزق أثناء فترات الأزمات الاقتصادية عندما يضيق العيش بالفقراء ، ويصبحون على استعداد لبيع خدماتهم العسكرية ، خاصة مع الإغراء المادي المتمثل في الأجور المرتفعة التي كان يعرضها بعض الملوك ، داخل اليونان القديمة أو خارجها ، فضلا عن الغنائم التي قد يحصل عليها المرتزق من وراء المعارك.[٣] وهكذا أصبح من الطبيعي لدى حكام أثينا في العصر الهيليني - وبعد أن اختفى نظام الخدمة العسكرية - أن يجعلوا الدفاع عن دولتهم من اختصاصات المرتزقة[٤] في ظروف أصبح فيها العمل قليلا جدا - مع منافسة العبيد على فرص الشغل- وأضحى الملاذ الوحيد لدى العديد من الأحرار هو الارتزاق.[٥]

وفي شمال أفريقيا نعرف بأن الدولة القرطاجية القديمة كانت تحمي حدودها وإمبراطوريتها التجارية بالاعتماد على جيوش مرتزقة ، لأن الشعب القرطاجي - وهو شعب تجارة أساسا - لم يكن يتوفر على تقليد كبير في مجال الحرب ، لذا لجأ إلى كراء الخدمة العسكرية مقابل أجور مادية. وهي قضية خلقت العديد من المشاكل لقرطاج ، أهمها الثورة التي أشعلها جنود غاضبون على عدم تلقي رواتبهم بقيادة المرتزقة الليبيين الذين نظموا حصار "أوتيكا" ، واستمرت الثورة من ٢٤١ق.م إلى ٢٣٨ق.م ، قبل أن تتم إبادة الثوار بقسوة من طرف هاملقار بركة وقواته .[٦]

هذه مجرد أمثلة دالة على حضور الارتزاق بالعديد من الحضارات المختلفة عبر التاريخ البشري الطويل. أما إذا رجعنا إلى تاريخ الإسلام ، فمن المعروف أن عرب "الجاهلية" لم يعرفوا الجيش النظامي ، أي ذاك النوع من البشر الذي شغله الشاغل هو الحرب والعمل الحربي مقابل أجر. لا ينفي ذلك عنهم صفة الحرب بتاتا ، فالحرب كانت جزء من حياتهم اليومية: يغيرون ويغار عليهم ، لكن بعد انقضاء الغارة يعود الراعي لقطيعه ، والتاجر لتجارته وهلم جرا...[٧] وبعد الهجرة إلى يثرب ، بدأ النبي في تكوين جيش بمعناه المتخصص ، صحيح أنه لم يكن متفرغا للحرب بصفة نهائية ، إذ ظل أفراده يمارسون أنشطة مدنية مختلفة ، لكن مع ذلك فقد بدأ التخصص يلوح في الأفق.

فالروايات التاريخية تحدثنا أن السرايا التي بعثها الرسول قبل بدر ، بلغ عددها ثمانية (أي في أقل من سنتين)، فإذا أحصينا عدد السرايا والغزوات في مرحلة الإقامة النبوية بالمدينة (حوالي عشر سنوات) فإننا نعد حوالي خمس وستين[٨] ، فإذا قارنا ذلك بعدد "الأيام" التي التقت فيها بكر وتغلب في البسوس أو عبس وذبيان في داحس والغبراء ، وكلاهما دامت أربعين سنة - على ذمة الرواة - فإن أيام المواجهة الفعلية كانت معدودة على أصابع اليد.[٩] من هنا نفهم النقلة النوعية الكبيرة في المجال الحربي التي سنها النبي عليه السلام ، والتي كان لها بالغ الأثر في انتصاراته اللاحقة.

صحيح أن الجيوش التي كان يجهزها الرسول للغزو لم تكن جيوشا نظامية ، كما أنها لم تكن جيوش مرتزقة ، لكننا رأينا فيها ملامح الارتزاق وبوادره ، تماما كما أصبحنا نرى ارتزاقا ماثلا في أحداث الفترة بجزيرة العرب ، ونقصد هنا بالذات فترة "الردة" التي تبدو مجالا خصبا لازدهار الارتزاق ، خاصة وأنها فترة مشحونة بالصراعات المختلطة العناصر ، المتشعبة الطوائف والفئات. نعرف من خلال المصادر ، تورط بعض الأسماء اليهودية فيها ، كما هو الشأن في ردة بني وليعة والأشعث بن قيس[١٠] ،كما نعرف أيضا في أخبار الأسود العنسي أنه استخدم عناصر فارسية في حركته ، وهي العناصر التي نجح النبي (قبيل وفاته) في استمالتها إلى جانبه ، خاصة وأن الأسود العنسي كان يسيء معاملتها ، وهي (العناصر الفارسية) التي قتلت العنسي وقضت على حركته.[١١]

فإذا أضفنا أن الارتزاق - كما عرفناه سابقا - لا يرتبط بالأجر (المال) فقط ، وإنما بالأرض (الإقطاع)أيضا[١٢] ، وحاولنا تقصي جذوره



تاريخيا، فإننا سنعود بالضرورة إلى العهد النبوي. ذلك أننا متأكدون - في تاريخ الإسلام - أن النبي عليه السلام هو الذي أوجد بين مجتمعات القبائل، ولأول مرة في تاريخها، مبدأ تعمير الأرض بعد غزوها. ففي السابق كانت القبيلة تغير على القبيلة، بغية ثأر أو غنيمة... ثم تعود إلى مضاربها سواء حققت هدفها أم لا، لكن الرسول، وبعد العمليات الحربية الأولى، سيتخذ خطوة أخرى وهي إخضاع المجال للدعوة الجديدة وتفويته للمسلمين أحيانا. وقد دشن الرسول عليه السلام هذه السياسة أولا في أراضي اليهود (بني قريظة وفدك ووادي القرى) حيث أجلى اليهود عنها وعمرها المسلمون.[١٣] كما رويت حالات عديدة عن الإقطاع في العهد النبوي، كإقطاع أرض لمزينة وجهينة، وإقطاع الرسول للزبير أرضا مغروسة كانت لبني النضير.[١٤] إلا أن النبي، وهو يقوم بتوزيع هذه الأراضي على المسلمين، لم يكن يشترط في مقابل ذلك تفرغهم للعمل العسكري، ذلك أن الجيش النظامي لم يكن قد تشكل بعد، كما أن المسلمين يعلمون بأن "الجهاد" فرض حق على كل مسلم توفرت فيه الشروط (بغض النظر عن نواياه قبل الخروج للقتال)، وقد تواصل الأمر نفسه زمن خلافة أبي بكر، فما الذي جد مع عمر بن الخطاب؟

يذكر الطبري في أحداث سنة ١٧هـ أن عمر قسم «الأرزاق وسمى الشواتي والصوائف»[١٥] ثم رجع إلى المدينة وخطب في الناس فقال: «إن شاء الله قسطنا بينكم فيئكم ومنازلكم ومغازيكم... وأمرنا لكم بأعطياتكم، وأرزاقكم ومغانمكم...»[١٦] وهو «أول من دون للناس في الإسلام الدواوين، وكتب الناس على قبائلهم، وفرض لهم العطاء.»[١٧]

ففي عهد الرسول ﷺ وأبي بكر، كانت الغنائم والموارد توزع في حينها، لكن مع عمر، وقد اتسعت دار الإسلام وكثرت مواردها المالية، فإنه قد اتخذ لها بيت مال تجمع فيه وتوزع على الناس وفق كتاب الله،[١٨] وهذا ما كفله ديوان العطاء. فالجند في السابق (أي في عهد الرسول وأبي بكر) كانوا متطوعة - أو مرتزقة ولكن بشكل غير منتظم - والغنائم كانت توزع عليهم في حينها، أما عمر فقد بدأ في وضع نواة جند نظامي. قال الوليد بن هشام بن المغيرة وقد شهد مع الناس الأموال الكثيرة التي كانت ترد على عمر بن الخطاب: «يا أمير المؤمنين قد جئت الشام، فرأيت ملوكها قد دونوا ديوانا، وجندوا جندا، فدون ديوانا، وجند جندا، فأخذ بقوله...»[١٩]

ولاشك أن جيشا نظاميا يحتاج، بالإضافة إلى الموارد التي يحصل عليها من الغنائم، إلى رزق ثابت يعيش منه، ونحن نعرف أن الدواوين التي أحدثها عمر أربعة، وهي: العطاء - الخراج - البريد - الجند، وأن هذا الديوان (الجند) أصبحت تسجل فيه أسماء الجنود وأعطياتهم وأرزاقهم في إباناتها. من هنا، نعتقد، تفتقت فكرة الارتزاق المنظم، وتطورت مع الزمن أي مع تطور الجيش النظامي في الدولة الإسلامية، وذلك بغض النظر عن الأشكال النمطية التي اتخذها الارتزاق لاحقا.[٢٠]

فالدولة الأموية، وهي الدولة العربية التي تعصب خلفاؤها تارة للقيسية وتارة لليمنية - لكنها كانت دائما تتعصب للعرب دون غيرهم من الأجناس - نجد زعيمها معاوية «لما بويع بالخلافة صير على شرطته قيس بن حمزة الهمذاني (وهو فارسي الأصل)... وكان كاتبه وصاحب أمره سرجون بن منصور الرومي، وعلى حرسه رجل من الموالي يقال له المختار، وقيل: رجل يقال له مالك، ويكنى أبا المخارق، مولى لحمير. وكان أول من اتخذ الحرس، وكان على حجابه سعد مولاه...»[٢١]، ونحن نعرف أن المولى هو المسلم غير العربي. فإذا كان أمر الدولة الإسلامية هكذا في عهد الأمويين المتعصبين للعرب، بل وفي عهد زعيمهم معاوية، فكيف سيكون أمر "المرتزقة" الذين شغلوا مختلف الوظائف في عهد الدولة العباسية مثلا، وهي دولة قامت أصلا على أكتاف غير العرب؟

إن الارتزاق إذن متجذر في الدولة الإسلامية، وتطور مع تطوراتها ومراحلها المختلفة، وإن كان المظهر الخارجي لتاريخ الإسلام يوحي بأن المرتزقة لم يظهروا في هذا التاريخ إلا مع العباسيين، وهذا هو المنزلق الذي وقع فيه ابن خلدون، أو أنه انتبه إليه لكنه لم يعره اهتماما كبيرا بسبب تعارضه مع التوجه العام لنظريته، فتعامل معه بذكاء. فقد كتب فصلا في مقدمته تحت عنوان: فصل في أنه إذا استقرت الدولة وتمهدت قد تستغني عن العصبية: «ويكون استظهارهم حينئذ على سلطانهم ودولتهم المخصوصة، إما بالموالي والمصطنعين الذين نشؤوا في ظل العصبية وغيرها، وإما بالعصائب الخارجين عن نسبها، الداخلين في ولايتها. ومثل هذا وقع لبني العباس، فإن عصبية العرب كانت فسدت لعهد دولة المعتصم وابنه الواثق، واستظهارهم بعد ذلك إنما كان بالموالي من العجم والترك والديلم والسلجوقية وغيرهم.»[٢٢] منزلق وقع فيه أيضا من تبنى نظرية ابن خلدون دون أن يقوم بمتابعة مجهرية لموضوع الارتزاق، وهكذا نرى زنيبر يكتب، مثلا، في نفس الإطار: «ونحي العرب من الجيش وتقلص نفوذهم في دواليب الدولة...(في المرحلة الثانية للخلافة العباسية)، وفي الوقت الذي كان يظن فيه (الخليفة) نفسه مطاعا لجيش وفي ومخلص، وجد نفسه رهينة في يد ذلك الجيش، وهذا ما وقع بالضبط للخلفاء العباسيين مع المماليك الأتراك الذين جلبوهم من وسط آسيا ليتخذوا منهم جندا خاصا لهم، فإذا بهم ينقلبون عليهم ويحاصرونهم في قصرهم ويستلبون منهم كل سلطة، بحيث لم يبق للخلافة إلا الاسم.»[٢٣]

وكان المستشرقون (الذين أثاروا القضية)، هم الذين شكلوا المنعطف بين ابن خلدون وزنيبر (ومن نحا نحوه)، فهذا المستشرق الإنجليزي ستانلي بول كتب في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي: «وفي منتصف القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)، سيطر على جهاز الدولة العباسية القواد والأمراء والحجاب المماليك الأتراك. وخلال هذه الفترة قامت الدولة البويهية في الجزء المتبقي لهم في إيران حتى أخذت تهدد مركز الخلافة في بغداد وأخذ السلطان البويهي يضايق الخليفة العباسي في اختصاصاته سنة ٣٣٤هـ/٩٤٤م.»[٢٤]

لم نهدف من خلال ما رصدناه عن الجذور التاريخية للارتزاق بالدولة الإسلامية، القيام بمتابعة كرونولوجية دقيقة لتطور أشكال الارتزاق في دولة النبي والخلفاء الراشدين، ثم الدولتين الأموية والعباسية، بقدر ما هدفنا الكشف عن أهم المحطات التي توقفت عندها الظاهرة منذ ظهور المرتزقة الأوائل، بأشكال ابتدائية، زمن النبي عليه السلام[٢٥] إلى غاية نضج الظاهرة مع أتراك الدولة العباسية، علما بأن مصادر التاريخ الإسلامي العامة، وفي مقدمتها مدونة الطبري التاريخية،[٢٦] تقدم إشارات غنية - ولكن بشكل متفرق - حول موضوع الظاهرة.



أصول الارتزاق ببلاد المغرب قبل قيام المرابطين[٢٧]

لنبدأ تاريخ الارتزاق ببلاد المغرب - خلال العصر الوسيط الأول - بأخبار النصارى وهم يدلون المسلمين على ثغرات البلاد لفتحها، هذا إذا لم يكن استخدام الروم للبربر، أو استخدام العرب للبربر واليهود وغيرهم، نماذج مقنعة عن وجود أشكال من الارتزاق منذ الفتح الإسلامي الأول لبلاد المغرب.

فأثناء العمليات الأولى التي قادها عقبة بالشمال الإفريقي، يذكر القيرواني أن الروم الذين واجهوه كانوا يستعينون بعناصر بربرية[٢٨]. كما يذكر أن الروم أصبحوا من أتباع كسيلة عندما أصبح أميرا على إفريقية[٢٩]. ومن المؤكد طبعا أن العرب استخدموا البربر في فتوحاتهم الأولى، إذ نعرف مثلا بأن طارق بن زياد بربري[٣٠]، وقد استخدم في جند العرب وقادهم لفتح الأندلس (مسألة سنعود لها بعد حين)، بل قبل هذا التاريخ بكثير نعرف من خلال المصادر[٣١] كيف أن أبناء الكاهنة دخلوا في خدمة حسان بن النعمان، وهذا دليل على أن أتباع الكاهنة الآخرين - أو قسم منهم على الأقل - قد دخل في خدمة الجيش الإسلامي. ذلك أنه في شروط الصلح التي أعقبت هزيمة الكاهنة يذكر القيرواني بأن البربر استأمنوا حسانا «فلم يقبل أمانهم إلا أن يعطوه من جميع قبائلهم اثني عشر ألفا يكونون مع العرب مجاهدين.»[٣٢] كما يروي القيرواني أيضا كيف أن عبد العزيز بن مروان - والي الأمويين على مصر - بعث ألف قبطي وألف قبطية من مصر إلى إفريقية ليشرفوا على بناء الأسطول الحربي الإسلامي ببلاد المغرب برسم الجهاد والمرابطة.[٣٣]

نقرأ أيضا في المصادر[٣٤] أن معاوية بن حديج عندما غزا إفريقية سنة ٤٥هـ/ ٦٦٦م، كان من ضمن جنده "حباحبة" الرومي، وقد ولاه معاوية على الإسكندرية قبل أن يواصل طريقه نحو إفريقية، كما نقرأ أيضا بأن كسيلة عندما كان يقاوم الفاتحين المسلمين - زهير بن قيس وقواته - كان يقود جيشا خليطا من البربر والروم.[٣٥] وعند حصار زهير بن قيس البلوي مدينة قرطاجة (وكان أميرها روميا) نجد البربر «يمدون الروم بعسكر عظيم من صطفورة.»[٣٦]

وعندما نمر إلى عصر الولاة بشمال أفريقيا، ونحاول تتبعه عند مؤرخ كابن عذاري مثلا[٣٧]، فإننا لا نكاد نجد صفحة من صفحات كتابه - أثناء حديثه عن هذه المرحلة - تخلو من عبارة "الجيش العربي" أو عبارة "الجيش البربري"[٣٨] لكن حق لنا أن نتساءل: هل كان الجيش العربي عربيا فعلا، وهل كان الجيش البربري بربريا خالصا؟ خاصة وأن ابن عذاري نفسه يقر في عدة مناسبات أن الجيوش العربية كانت فيها عناصر من الشام وخراسان وغيرها...[٣٩] فيذكر مثلا بأن هارون الرشيد قد أرسل إلى إفريقية سنة ١٩١هـ/٨٠٧م «ثلاثين ألفا من جند خراسان»[٤٠] ويذكر في مكان آخر[٤١] أن البربر والزنوج (ألف أسود) اشتركوا إلى جانب والي العباسيين (زيادة الله بن الأغلب) سنة ٢١٠هـ/٨٢٦م لقمع إحدى الانتفاضات، كما يذكر في أخبار إمارة "نكور" أن سعيد بن صالح لما توطد له الأمر «دخل عليه عبيده الصقالبة، فسألوه العتق، فقال لهم: أنتم جندنا وعبيدنا، لا تدخلون في ورثنا، فما طلبكم العتق؟ فألحوا عليه في ذلك، وناله جفاء منهم، وخلعوه، وقدموا أخاه عبيد الله وعمه الرضى المكنى بأبي علي...»[٤٢].

مما يدل على أن استعمال المرتزقة في هذا التاريخ أصبح شائعا في المشرق والمغرب الإسلاميين، ويجعلنا لا نستغرب عندما نسمع أخبارهم في التواريخ اللاحقة، ففي أخبار سنة ٢٦٧هـ/٨٨٠م كان مع ابن طولون في غزوته لإفريقية «ثمانمائة فارس وعشرة آلاف راجل من سودان أبيه»[٤٣]. كما يمكن أن نفهم في نفس السياق أن عبد الله الشيعي عندما دخل إفريقية «وأمن من ألفى بالقيروان من بني الأغلب - بعد هروب زيادة الله الأغلبي لمصر - وقوادهم الذين تخلفوا عن زيادة الله، أمر بقتل السودان من موالي بني الأغلب»[٤٤] مما يجعلنا نؤكد أن استخدام الزنوج، وغيرهم من العناصر الأخرى على كل حال، قد أصبح أمرا عاديا جدا.

وحتى إذا كان كل ما ذكرناه من إشارات (حول حضور المرتزقة في تاريخ الفتح الإسلامي لبلاد المغرب وما أعقبه من أحداث)، ليس قويا بما فيه الكفاية، فإن تاريخ افتتاح الأندلس - وما يليه - يقدم الدليل الأقوى على هذا الحضور. إذ منذ الفتح الذي قاده طارق بن زياد نلمس حضور عناصر متنوعة، من العرب والبربر والموالي وغيرهم،[٤٥] شاركت في غزو الأندلس وافتتاحها، لكننا سنتتبع هنا بالذات حضور العناصر المسيحية ودورها في هذا الفتح، قبل أن نمر إلى تقديم أمثلة مقتضبة عن دور المرتزقة ببلاد الأندلس زمن الدولة الأموية وملوك الطوائف، أي إلى غاية الظروف التي مهدت لعبور يوسف بن تاشفين إليها، حيث ستصبح جزء من الدولة المركزية المغربية في العصر الوسيط.

تذكر الرواية التاريخية أن يوليان قدم إلى طارق بن زياد فقال له: «إن أبي مات، فوثب على مملكتنا بطريق يقال له لذريق، فأهانني وأذلني، وبلغني أمركم فجئت إليكم أدعوكم إلى الأندلس وأكون دليلا لكم. فأجابه طارق إلى ذلك، واستنفر اثني عشر ألفا من البربر، فحملهم يليان في المراكب فوجا بعد فوج...»[٤٦] فإذا صحت هذه الرواية - وهي رواية تلقى شبه إجماع من طرف الإخباريين الذين كتبوا عن فتح الأندلس - فإن الفتح يكون قد تم على يد البربر بمساعدة النصارى، إذ بغض النظر عن العبارة "وأكون دليلا لكم" الواردة في النص، فالمفروض أن يوليان لن يقود السفن بنفسه، رغم أنه وفرها للمسلمين، بل سيقودها أتباعه أو جنوده، فتكون المشاركة "النصرانية" في الفتح بطريقتين: كون يوليان دليلا للمسلمين، ثم دعمه لهم بالسفن وما يلزمها. وواضح من تتمة الرواية أن مساعدة يوليان تواصلت حتى بعد أن انتصر طارق على لذريق وقتله، حيث وفد يوليان على طارق، مرة أخرى، فقال: «قد فتحت الأندلس فخذ من أصحابي أدلاء، ففرق معهم جيوشك وسر أنت إلى مدينة طليطلة، ففرق طارق جيوشه من إستجة.»[٤٧] كما يذكر ابن عذاري صراحة أن الجيش الذي بعثه طارق من إستجة «جعل معه دليلا من رجال يليان»[٤٨] مما يجعلنا نؤكد على مساهمة يوليان في هذا الفتح، وإن كنا نشك في الأسباب التي دفعته لذلك.

وإذا كنا نفهم من هذا السياق التاريخي، أن اتصال طارق بيوليان، جعله يستخدم النصارى - على الأقل أدلاء -[٤٩] في جيشه، فإننا لا نفهم كيف استخدمهم موسى بن نصير، القائد الأعلى للفتح، إذ تذكر الروايات[٥٠] أن موسى بن نصير عندما تنامت إلى سمعه أخبار فتوحات طارق، غضب من ذلك فعبر إلى الأندلس وأبى أن يسلك نفس الطريق الذي سلكه طارق «فقال له الأدلاء من الأعلاج: نحن ندلك على طريق هي أشرف من طريقه، وعلى مدائن هي أعظم خطرا من مدائنه.»[٥١] إذ لا يفهم من هذا القول إلا شيء واحد ووحيد، هو أن موسى بن نصير استخدم هؤلاء "الأعلاج" بنفسه وبطرقه الخاصة، أي



في مقابل مادي "ارتزاق" (أو ما درجت كتب الفقه على نعته بالاستئجار).[٥٢]

بعد هذا آن لنا أن نتساءل: هل يوليان ورجاله الذين ساعدوا طارقا في فتحه، أو هؤلاء الأعلاج الذين ساعدوا موسى بن نصير أدلاء، وفي أحيان كثيرة، كانوا ينبئون المسلمين عن الثغرات الموجودة في المدن حتى يسهل فتحها[٥٣]، هل نستبعد على مثل هؤلاء أن يشاركوا في القتال "مرتزقة" إلى جانب المسلمين؟

أكيد أن قراءة متأنية للنصوص التاريخية، وبالذات قراءة التفاصيل الجزئية عن فتوح الأندلس، تجعلنا نستنتج أن النصارى ساهموا بشكل وافر إلى جانب المسلمين في فتح المدن الأندلسية، بل كيف لنا أن نشك في ذلك، في ظل إشارات نصية من الصعب تجاهل تصريحاتها؟ لنقرأ مثلا نص ابن عذاري عن فتح قرمونة: «ونهض موسى مع أدلائه من شذونة إلى قرمونة، ولم يكن بالأندلس أحصن منها ولا أبعد من أن تنال بحصار أو قتال، فسأل موسى عن أمرها، فقيل له: لا تؤخذ إلا باللطف والحيل. فقدم إليها علوجا كانوا من أصحاب يليان[٥٤] وغيرهم، فأتوهم في هيئة المنهزمين، ومعهم السلاح، فأدخلوهم المدينة، فلما علم موسى بدخولهم بعث الخيل إليهم ليلا، ففتحوا لهم باب المدينة، وهو الباب المعروف بباب قرطبة، فوثبوا على الأحراس فقتلوهم، ودخل المسلمون المدينة عنوة.»[٥٥] كما يذكر ابن الخطيب في "الإحاطة" أن عبد الأعلى بن موسى بن نصير أثناء فتحه بعض مدن الأندلس (ألبيرة - غرناطة) ضم إليه اليهود «مستظهرا بهم على النصر»[٥٦]: ألنا بعد هذا أن ننكر وجود مرتزقة غير مسلمين ضمن الجند الإسلامي الذي فتح الأندلس؟

نميل إلى التأكيد الآن، أن الجيش الذي فتح المغرب والأندلس لم يكن كله متطوعا مجاهدا، كما أنه لم يكن كله عربيا خالصا، فقد حضرته عناصر إسلامية متنوعة من الجيش النظامي المرتزق، كما حضرته عناصر "كافرة" مرتزقة أيضا. وهذه نتيجة هامة في اعتقادنا، لأن حضور أشكال الارتزاق في بلاد المغرب منذ هذه الفترة المبكرة من التاريخ الوسيط - أي منذ احتكاك الإسلام بالمنطقة أول مرة - يجعل حضور المرتزقة في باقي فترات التاريخ الوسيط المغربي أمرا مدركا بالبداهة، وربما لا يحتاج حتى إلى تقديم الأدلة والبراهين لإثباته. ومعنى هذا القول أن الأمثلة التاريخية التي سنقدمها في الفقرات الموالية، لا نهدف من ورائها إثبات وجود الارتزاق قبل قيام المرابطين، بقدر ما هي عبارة عن نماذج مختلفة عن أشكال الارتزاق بالكيانات السياسية التي قامت بالمنطقة قبل تشكل الدولة المركزية المغربية.

لقد سبق أن ذكرنا بأن إمارة نكور شمال المغرب الأقصى عرفت استخدام المرتزقة، كما أشرنا، إشارة خفيفة، إلى أن الدولة الأغلبية بإفريقية استخدمتهم أيضا، وهي إشارة نؤكدها الآن من خلال بعض النصوص التي أثارت القضية. ذلك أن ظهور المرتزقة في هذه الدولة قديم قدم الدولة نفسها، إذ منذ إبراهيم بن الأغلب بن سالم، وبعد ولايته مباشرة سنة ١٨٤هـ/٨٠٠م «أخذ في شراء العبيد وأظهر أنه يحب أن يتخذ من كل صناعة من يغنيه عن استعمال الرعية في كل شيء، ثم اشترى عبيدا لحمل سلاحه.»[٥٧] كما أن حفيده أبا العباس محمد بن الأغلب بن إبراهيم (الذي تولى سنة ٢٤٢هـ/٨٥٥م) استخدمهم أيضا[٥٨]، إلا أن هذا الاستخدام لم يخل من مشاكل في عدة مناسبات، ففي سنة ٢٦٤هـ/٨٧٧م مثلا وثب الموالي الصقالبة على إبراهيم - بن أحمد بن محمد بن الأغلب - «وعقدوا الخلاف في القصر القديم ومنعوا من يجوز إلى رقادة من القيروان. وسبب ذلك أن إبراهيم أمر بقتل رجل منهم... فخالفوا عليه لذلك، فأقبل إليهم أهل القيروان في عدد لا يحصى، فارتدع الموالي وسألوا الأمان وأمنوا.[٥٩] أمان تأكد بعد حين أنه مؤقت فقط، إذ «لما جاء وقت إعطاء الأرزاق جلس إبراهيم بقصر أبي الفتح، وحضر جميع العبيد لقبض أرزاقهم، فكلما تقدم رجل نزع سيفه حتى أخذوا كلهم، وقتل أكثرهم بضرب السياط وصلبوا، وحبس بعضهم بسجن القيروان حتى ماتوا فيه، ونفى بعضهم إلى صقلية، وأمر بشراء العبيد (من بلاد السودان)، فاشتري منهم عدد كثير، وحملهم وكساهم وأخرجهم في الحروب فظهر منهم شجاعة وجلد وقوة.»[٦٠] وبعد ذلك بأربعة عشر سنة - أي في سنة ٢٧٨هـ/٨٩٠م - «بلغ إبراهيم (بن أحمد دائما) أن جماعة من الخدام والصقالبة، يريدون قتله وقتل أمه، فقتلهم عن آخرهم...»[٦١] ثم أمر «بشراء العبيد والسودان فبلغت عدتهم مائة ألف فكساهم وألزمهم بابه.»[٦٢]

أما بالنسبة للأدارسة، فرغم أننا لم نتتبع المسألة تتبعا كرونولوجيا مدققا، فإننا وقفنا على إشارات تبين أن انتقال الجند من طرف سياسي لآخر مقابل الإغراءات المادية "الارتزاق" كان موجودا، إذ نعلم أنه في أواخر هذه الدولة، أي زمن الحسن بن كنون وصراعه مع خلفاء الأندلس شمال المغرب، كانت استمالة الجنود عن طريق الامتيازات المالية حاضرة بقوة، وفي هذا الصدد يروي ابن عذاري أن القائد غالب - قائد الجيش الأموي بالمغرب - «بعث إليه (من الأندلس) بعشرة آلاف دينار لصلات الخارجين إليه من أصحاب حسن بن قنون، يوزعها عليهم بحسب مقاديرهم، وقرن بها من فاخر الكسوة والسيوف المحلاة عدد كثير للخلع عليهم.»[٦٣] وبالفعل أدت هذه العملية إلى تخلي معظم جند ابن كنون عنه ونزوحهم للأمويين مما حسم الصراع لصالحهم.[٦٤]

نحن متأكدون أيضا أن الدولة العبيدية منذ قيامها بالمغرب، اعتمدت على المرتزقة، ولنا في جوهر الصقلي[٦٥] (قائد الخليفة الفاطمي المعز لدين الله وفاتح مصر) أحسن دليل على ما نقول، لكن هل نعتبر استخدام الفاطميين[٦٦] للبربر في بناء دولتهم منذ البداية عملية ارتزاق، بما أن النصوص[٦٧] تشير إلى أن أبا عبد الله الداعي استعمل المال لبناء جيش يدعم عبيد الله المهدي؟ وإذا كان الأمر كذلك - ونحن نعرف بأن الفاطميين بعد رحيلهم لمصر خلفوا أمر المغرب لبلكين بن زيري - فهل نعتبر الدولة الزيرية دولة مرتزقة في الأصل تطورت لتأخذ شكل دولة مستقلة؟ وإذا اعتبرناها دولة مرتزقة فكيف يجوز لنا ذلك ونحن نتحدث عن دولة بربرية تحكم مجالها الطبيعي الخاص بها؟ علما بأن الزيريين أيضا مالوا إلى اتخاذ مرتزقة من عناصر متنوعة، حيث بعد محاولة أولى - منيت بالفشل - قام بها أبو الفتوح يوسف بلكين سنة ٣٦٤هـ/٩٧٣م لاتخاذ مرتزقة من العبيد[٦٨] أصبح هذا العنصر حاضرا بكثرة في العمليات العسكرية اللاحقة التي دارت بين الأمراء الزيريين أثناء صراعهم على الحكم[٦٩]، كما استعملهم أيضا المعز بن أبي مناد باديس (بن منصور بن يوسف بن زيري) في صراعه مع العرب[٧٠]، ثم تطور الأمر إلى استخدام العرب أنفسهم[٧١] في الصراع الذي دار بين الزيريين من أجل الحكم سنة ٤٥٥هـ/١٠٦٣م (عقب وفاة المعز)، وهكذا استعان الثائر حمو بن مليل بطائفة من الإثبج وعدي، بينما استعان الأمير تميم بن المعز بزغبة ورياح[٧٢]، كما استخدمهم (تميم) في حرب بني حماد وكان لهم دور كبير في تحقيق

انتصاره[٧٣]، بل إن تميما هذا استخدم أيضا في جيشه مائة تركي[٧٤] استعان بهم في بعض حروبه ومعاركه.

لا نريد أن نختم هذا الفصل، دون أن نقدم نماذج مختصرة عن تطور الارتزاق ببلاد الأندلس خلال عصري الأمويين وإمارات الطوائف، نظرا للارتباط العضوي بين بلاد المغرب والأندلس أثناء الصراع الأموي/الفاطمي حول المنطقة، وكذا الفترة التاريخية الممهدة والمفسرة لعبور يوسف بن تاشفين مضيق جبل طارق برسم الجهاد، وبالتالي ربط الأندلس نهائيا بالدولة المركزية المغربية. ولنبدأ من حيث توقفنا عند حديثنا عن فتح الأندلس، أي مع المؤسس الأول للدولة الأموية بالغرب الإسلامي، والذي يبدو - من خلال النصوص - أول من لجأ لاستخدام المرتزقة في تاريخ هذه الدولة، ففي «سنة سبع وخمسين (١٥٧هـ/٧٧٣م) سار عبد الرحمان (الداخل) إلى أشبيلية وقتل خلقا كثيرا ممن كان مع عبد الغفار (أحد الذين ثاروا عليه بأشبيلية منذ ١٥٥هـ/٧٧١م)، وبسبب هذه الوقعة وغش العرب[٧٥] مال عبد الرحمان إلى اقتناء العبيد.»[٧٦] ورغم أن النويري هو الذي يروي هذه الواقعة، فإنه يروي في مكان آخر[٧٧] أن الحكم بن هشام بن عبد الرحمان الداخل «هو أول من جند الجنود المرتزقة بالأندلس، وجمع الأسلحة والعدد، واستكثر الحشم والحواشي، وارتبط الخيول على بابه، واتخذ المماليك وجعلهم في المرتزقة، فبلغت عدتهم خمسة آلاف، وكانوا يسمون الخرس لعجمة ألسنتهم، وكانوا نوابا على باب قصره.» رواية تؤكدها رواية ابن سعيد الغرناطي المتوفى سنة ٦٨٥هـ/١٢٨٦م، في ترجمته لأبي العاص الحكم الربضي (ت.٢٠٦هـ/٨٢٠م): «هو أول من استكثر من الحشم والحفد... وبلغ مماليكه خمسة آلاف، ثلاثة آلاف منهم فرسان وهم الخرس، سموا بذلك لعجمتهم.»[٧٨] كما تؤكدها رواية المقري أيضا.[٧٩] ويبدو أن الحكم بن هشام قد لجأ لهؤلاء المرتزقة عندما كان يستعد للإيقاع بأهل الربض[٨٠] حيث شرع «في تحصين قرطبة، وعمارة أسوارها، وحفر خنادقها، وارتبط الخيل على بابه، واستكثر من المماليك، ورتب جمعا لا يفارقون باب قصره بالسلاح.»[٨١]

لا نستبعد بعد هذا التاريخ إذن، أن تكون العناصر المرتزقة قد أصبحت تذكر في العديد من العمليات العسكرية للأمويين لاحقا. فعندما بويع عبد الله بن محمد (بن عبد الرحمان بن الحكم بن هشام) سنة ٢٧٥هـ/٨٨٨م «ألب ابن حفصون عليه، وحشد كور الأندلس حتى لم يبق منها إلا قرطبة... فخرج إليه الأمير عبد الله في أربعة عشر ألفا من أهل قرطبة خاصة، وأربعة آلاف من حشمه ومواليه.»[٨٢] وعندما غزا المطرف بن عبد الله (ت.٢٨٢هـ/٨٩٤م) بلدة ببشتر وشرع في خرابها «خرج ابن حفصون ومن معه من النصرانية يدافع عنها، وعن كنيسة كانت بقربها، فغلب ابن حفصون وهدمت الكنيسة.»[٨٣] وعمر بن حفصون هذا ينتهي نسبه إلى أصول رومية، يقول عنه ابن الخطيب[٨٤]: «كبير الثوار، وعظيم المنتزين، ومنازع الخلفاء بالأندلس.» توفي سنة ٣٠٦هـ/ ٩١٨م، بعد أن أثار فتنا عديدة قاد فيها جموعا كبيرة «من العجم والمولدين»[٨٥].

وهكذا نلاحظ أن المرتزقة أصبحوا يلعبون أدوارا مزدوجة، أو بالأصح أصبحوا يلعبون دورهم الطبيعي بوصفهم مرتزقة، سواء إلى جانب السلطة الرسمية أو إلى جانب الثوار، دور تنامى في عهد عبد الرحمان الناصر الذي «اشتد في مطاردة القبائل والأسر العربية... ومال إلى اصطناع الموالي والصقالبة وأولاهم النفوذ والثقة، فاستأثروا في عهده بأرفع المناصب في القصر وفي الحكومة والجيش، وقد تسببت هذه السياسة على المدى البعيد في إضعاف دولة بني أمية بالأندلس.[٨٦]

والأمثلة على هذا الضعف كثيرة منها أخبار محمد بن هشام المهدي الذي استعان بالإفرنج ضد الثوار الذين انتفضوا عليه أواخر القرن الرابع الهجري[٨٧]، وجعل قادة جنده ما بين «طبيب وحائك وجزار وسراج...»[٨٨]، وجيش يقوده أمثال هؤلاء لا شك أنه كان مصدر بلوى وفتن، أكثر منه سندا للدولة وعضدها. يقول النويري: «ومن أعجب ما رأيناه أنه كان من نصف نهار يوم الثلاثاء لأربع عشر بقيت من جمادى الآخرة إلى نصف نهار يوم الأربعاء الذي يليه - سنة ٣٩٩هـ/١٠٠٨م - فتحت مدينة قرطبة وهدمت مدينة الزاهرة، وخلع خليفة وهو هشام بن عبد الحكم، وولى خليفة وهو محمد بن هشام بن عبد الجبار (المهدي)، وزالت دولة بني أبي عامر[٨٩] وحدثت دولة بني أمية، وقتل وزير وهو ابن عسقلاجة، وأقيمت جيوش من العامة، ونكب خلق من الوزراء، وولى وزراء آخرون.

وكان ذلك كله على أيدي عشرة رجال حجامين وجزارين وحاكة وزبالين وهم جند عبد الجبار.»[٩٠] عشرة رجال هذه طينتهم يقودون جيشا «من الصعاليك لهم إقدام على كل عظيمة»[٩١] استمالهم محمد المهدي «وأعطاهم من خمسة مثاقيل إلى عشرة وأكثر من ذلك، فاجتمع له منهم نحو أربع مائة رجل...»[٩٢] يتسببون في اندلاع فوضى عارمة استمرت أزيد من ربع قرن، كان بطلها بدون جدال عناصر المرتزقة. يدلنا على ذلك أنه خلال ثمان وعشرين سنة فقط، أي من سنة ٤٠٠هـ/١٠٠٩م إلى سنة ٤٢٨هـ/١٠٣٦م (التاريخ الرسمي لانتهاء الدولة الأموية بالأندلس)[٩٣] تولى الخلافة خمسة حكام[٩٤] فإذا أضفنا لهم الأمراء الذين انتفضوا عليهم من الأسرة الحمودية[٩٥] - منذ أن بايع العبيد زعيم هذه الأسرة علي بن حمود -[٩٦] وعددهم ستة حكام، فإننا نعد أحد عشر حاكما تلقبوا جميعهم بلقب الخلافة، لكنهم في العمق لم يتعدوا كونهم دمى في يد جند يبايع أو يخلع طاعته على من يدفع أكثر[٩٧]، إلى درجة أن هشام بن محمد المعتمد - الذي تولى سنة ٤١٨هـ/١٠٢٧م - «صير أهل الأسواق جندا، وجعل أرزاقهم رؤوس أموال تكون بأيديهم محصلة عليهم، يأخذون ربحها فقط، ورؤوس الأموال باقية محفوظة... وفرق السلاح عليهم، وأمرهم بتفرقته في الدكاكين وفي البيوت، حيث إذا دهم أمر في ليل أو نهار، كان سلاح كل واحد معه.»[٩٨]

ها هنا يبدأ تاريخ آخر للأندلس، تاريخ «حكم الثوار المتغلبين على بلاد الأندلس... وهم المسمون بملوك الطوائف.»[٩٩] تاريخ ميزته السياسية الأساس تكاثر المرتزقة وتحكمهم في الأحداث، تاريخ يلخصه ابن عذاري في اختصار بليغ عندما يقول - واصفا مطلع القرن ٥هـ/١١م - «ولحق بهم (أي أمراء بلنسية وشاطبة) لأول أمرهم من موالي المسلمين، ومن أجناس الصقلب، والإفرنج، والبشكنش عشيرتهم، ودربوا على الركوب حتى تلاحق ببلنسية ونواحيها من هؤلاء الأصناف فوارس برزوا في البسالة والثقاف، وانفتح على المسلمين ببلاد الأندلس أمر شديد في إباقة العبيد، إذ نزع إليهم كل شريد طريد، وكل عاق مشاق.»[١٠٠] بل إن العبيد سيصلون مصاف الأمراء الذين تولوا أمر الحكم وسيروه، وتاريخ مدن الطوائف غني بالأمثلة، فالعبد مبارك أصبح أميرا على بلنسية، والعبد مظفر أميرا على شاطبة[١٠١]، وبعد وفاة مبارك تولى بلنسية لبيب الصقلبي فثار عليه سكان المدينة «فلاذ بالطاغية أمير الإفرنج حتى صير نفسه كبعض عماله، فغاظ المسلمين

ذلك إذ عرضهم لملك النصرانية.»[١٠٢] أما مدينة ألمرية، فقد انفرد بحكمها منذ ٤١٩هـ/١٠٢٨م خيران الصقلبي وتسبب في العديد من الفتن بها إلى درجة أن ابن عذاري وضع إمارته تحت عنوان: «بعض أخبار خيران الفتى المنتزي على مدينة ألمرية أول هذه الفتنة»[١٠٣]. وبينما يقتل منذر بن يحي صاحب سرقسطة وسط حرسه الصقالبة سنة ٤٣٠هـ/ ١٠٣٨م[١٠٤]، يقتل علي بن حمود صاحب قرطبة وهو يقاتل الغلمان الأعاجم المساندين لابن عباد صاحب أشبيلية سنة ٤٢٦هـ/١٠٣٤م[١٠٥]. وعلى ذكر أشبيلية فإن أميرها أبا القاسم محمد بن عباد بالغ في شراء العبيد «إلى أن ساوى ملوك الطوائف وزاد على أكثرهم بكثافة سلطانه وكثرة غلمانه»[١٠٦]، ولم يقل عنه في عمله هذا أبو عمرو عباد بن إسماعيل (ت.٤٦١هـ/١٠٦٩م) الذي استولى على غرب الأندلس (شلب وشنترية ولبلة وشلطين...) حيث «ارتبط الخيول واقتنى الغلمان واتخذ الرجال من كل فرقة...»[١٠٧]، وغني عن الذكر أن ملوك الطوائف استخدموا هذه الجيوش ضد بعضهم بعضا قبل كل شيء، حتى قال ابن عذاري في اختصار بليغ: «انقطعت السبل جملة، وكثر القتل والهرج والسلب، وأمسى الناس في مثل عصر الجاهلية».[١٠٨]

وإذا كانت الشريعة قد حرمت قتال المسلمين بعضهم بعضا، وحرمت من باب أولى استعانتهم بالمشركين ضد بعضهم بعض، أو نصرة المسلم للكافر، أو إعطاءه الجزية، أو غير ذلك من المسائل التي أصدر فيها فقهاء الأندلس أيضا فتاواهم بالتحريم وعدم الجواز[١٠٩]، فإن تاريخ ملوك الطوائف يقدم لنا مختبرا غنيا بالتجارب النموذجية عن خرق هذه المحظورات الشرعية، فعندما توفي ابن هود خلف خمسة أبناء، فولي أحمد بن سليمان مدينة سرقسطة، وولي إخوته مدنا أخرى، لكن أحمد احتال على إخوته فسجنهم ما عدا يوسف صاحب "لاردة" وكان أكبرهم، فإنه «حمى حوزته منه. ولما رأى أهل الثغر ما صنعه أحمد بن سليمان بإخوته كرهوه لذلك، وخلعوا طاعته وصيروا أمرهم إلى أخيه يوسف.»[١١٠] وكان يوسف يبعث بالميرة إلى «ابن رذمير صاحب بلاد النصرانية المجاورة»[١١١]، فكتب أحمد إلى زعيم النصرانية وأغراه بالمال حتى يخلي بينه وبين رجال أخيه «فلما بعث أخوه إلى بلاد ابن رذمير برسم الميرة لبلاده خيلا ورجالا بدواب كثيرة، سرى إليهم (أحمد) من سرقسطة فأخذهم وقتلهم، وكانوا قد توسطوا بلاد الروم، فامتلأت أيدي الروم من أسلابهم... وكانوا آلافا فأخذ النصارى أكثرهم أسرى وفتك بعضهم.»[١١٢]

نأمل ألا يفهم من النص المتعلق بابن هود على أنه استثناء في تاريخ ملوك الطوائف، إذ الأمثلة على الصراعات المهلكة بين هؤلاء الأمراء - والتي تورط فيها المرتزقة - كثيرة،[١١٣] ولسنا هنا مضطرين لحصر كل هذه الصراعات، وإلا كان علينا في الواقع إعادة كتابة تاريخ ملوك الطوائف برمته. لكننا نقنع هنا بالخروج - من وراء هذا الصراع - بنتيجتين حادتي الدلالة: أولاهما أن هؤلاء الأمراء كانوا يقاتلون بعضهم بعضا "مقاتلة الكفار"[١١٤]، وثانيهما أن هذا الصراع يبرز لنا، بما لا يدعو للشك، دور المرتزقة فيه (من عبيد وصقالبة ونصارى ويهود...) وليست الأدلة، هنا أيضا، ما يعوزنا لتوكيد هذه الدعوى.

فالعبيد «هتكوا الأستار وفتكوا الأبكار، حتى كانت دماؤهن تسيل على أقدامهن عاريات باكيات، واستحوذ السودان وسفال العسكر على النساء، فكانت أخبيتهم مملوءة منهن...»[١١٥]. واليهود أصبحوا عمالا متصرفين، وفي مقدمتهم يوسف بن إسماعيل بن نغرالة وزير الدولة الزيرية بالأندلس، وكان الأمير باديس بن حبوس لا يعقد أمرا دون استشارته، بينما كان اليهودي لا يأل جهدا للكيد للمسلمين[١١٦]. وقد اكتسب اليهود «الجاه في أيامه واستطالوا على المسلمين»[١١٧]، وجمع - ابن نغرالة - الأموال واستعمل اليهود على الأعمال، وكانت له على أميره عيون في قصره من نساء وفتيان[١١٨] «فلا يكاد باديس يتنفس، إلا وهو يعلم ذلك»[١١٩] ثم إنه «أقسم أن ينظم جميع القرآن في أشعار وموشحات يغنى بها»[١٢٠]، ومثل هذا كان يحدث أيضا في بلاط بني هود بسرقسطة مع «أبي الفضل حسداي بن يوسف بن حسداي الإسرائيلي...كان أبوه يوسف بن حسداي من بيت شرف اليهود، متصرفا في دولة ابن رزين».[١٢١]

أما النصارى فقد لعبوا زمن ملوك الطوائف أدوارا خطيرة جدا، لعل من أهمها ما قام به سسناندو دافيديث الذي عاش في بلاط المعتضد (والد المعتمد بن عباد) وكان معربا ومن المستشارين المقربين للمعتضد، عندما انسحب للجانب المسيحي أثناء المفاوضات المسيحية/الإسلامية بشأن مدينة طليطلة، ليصبح أحد المقربين من فرناندو الأول (والد ألفونصو السادس) ثم ألفونصو السادس من بعده، حيث أشار عليه بالخطة التي اتبعها لاحتلال المدينة (طليطلة).[١٢٢] ورغم ذلك ما ينبغي لنا أن نفاجأ بهذا الموقف بعد أن نقرأ تفاصيل المؤامرات التي كان يحيكها أمراء الطوائف ضد بعضهم بعضا - وكان المرتزقة أدواتها -، ومنها أن يحي بن إسماعيل بن ذي النون (صاحب طليطلة) استعان «بالقومسان الإشبان من ولد الطاغية شانجة»[١٢٣] ضد سليمان بن هود (صاحب سرقسطة) «فراسل ابن هود فرذلند الطاغية، وبعث إليه بأموال جمة وهدايا جليلة، وسأله الخروج إلى بلد ابن ذي النون بجيشه، فخرج بعدد عظيم إلى ثغر طليطلة، فأفنى حماته ورجاله، وعاث في بلادهم.»[١٢٤] وهنا نلاحظ واحدا من أسوأ أشكال الارتزاق، حيث يمول حاكم مسلم جند حاكم كافر للإغارة على بلد مسلم، هذا فضلا عن وجود مرتزقة نصارى ضمن الجند الإسلامي نفسه، فالرواية تواصل بأن «ابن هود مكر بابن ذي النون واستخرج طائفة من النصارى المظاهرين له... وأثر في أعمال ابن ذي النون آثارا قبيحة.»[١٢٥] فما كان من فرذلند. المظاهر لابن ذي النون. إلا أن خرج «إلى ثغر طليطلة في خلق كثير، وجاءه ابن عم ذي النون ليدله على عورات البلاد.»[١٢٦]

بدأنا تاريخ الارتزاق ببلاد المغرب قبل قيام المرابطين، بالنصارى وهم يدلون الفاتحين المسلمين على ثغرات البلاد لفتحها، وها نحن ننتهي بالمسلمين وهم يدلون النصارى على عورات البلاد لاستردادها.



الهوامش

١-

Leveque, Pierre, L'aventure grecque, Armand Colin, Paris, 3ème Edit. p.p.207-208

٢- Ibid, p .273 .

٣- Ibid. p.335

٤- Ibid.p.394 .

٥- تفاصيل أخرى عن طرق استنفار المرتزقة وظروف عيشهم باليونان القديمة بالمرجع نفسه ، ص.٤٤٢ - ٤٤٥. خاصة وأن الحرب اقترنت بالاسترقاق منذ فجر التاريخ ، وبالذات في العالم الإغريقي. انظر:

Henri walon, Histoire de l'esclavage dans l'antiquité, édit. Robert Laffont, Paris, 1988, p. 180.

٦- انظر مادة: "المرتزقة" ضمن: Dictionnaire C.D. Axis, Hachette. وكذا Hachette encyclopedique, p.1011 ، ومادلين هورس ميادان ، تاريخ قرطاج ، ترجمة إبراهيم بالش ، سلسلة زدني علما ، ع.٣٢ ، عويدات ، بيروت ، ص.٧٩ وما بعدها. كما يمكن التفصيل أكثر في موضوع الارتزاق من خلال مادة "مرتزقة" ضمن موسوعة: C.D. Universalis عند تعرضها لمجموعة من الحضارات منها الأوتروسكية والقرطاجية والإغريقية...

٧- كما أن الأعراف الجاهلية ابتكرت شيئا جديدا (الأشهر الحرم) للاطمئنان والاستكانة ، إلا أن هذه الأشهر الحرم نفسها قد انتهكت مرارا (حرب الفجار مثلا) ، كما أن مواقعها من السنة كانت تتغير بحسب رغبة بعض القبائل وعلى رأسها قريش ، وسمت ذلك "نسيئا". ابن هشام ، م.١ ، ص.١٨٤ ، هامش"١" ، لسان العرب ، ج.٦ ، ص.٦٢٢. ثم جاء الإسلام ليحسم في الموضوع: "يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ، قل قتال فيه كبير"(البقرة/٢١٧) ، "إنما النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما"(التوبة/٣٧) .

٨- محمد رضا ، محمد رسول الله ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ص.١٥٧ - ١٦١ فيما يتعلق بعدد السرايا قبل بدر ، وص.٣٤٩: عدد الغزوات التي شارك فيها النبي ٢٧ غزوة وعدد البعوث والسرايا ٣٨.

٩- نقصد هنا طبعا "الأيام" التي كانت تقع بين القبائل دون الحروب التي نشبت بين الفرس والروم وكانت الجزيرة مسرحا لها. للتوسع في هذه النقطة يمكن الرجوع إلى: نجيب محمد البهبيتي ، تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجري ، دار الفكر ، ط.٤ ، ١٩٧٠ ،ص.٢٦ - ٤٣. وفيما يتعلق بحروب الجزيرة خلال القرنين الخامس والسادس الميلاديين ، ينظر أيضا: حسن إبراهيم حسن ، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ، ط.٧ ، ١٩٦٤ ، ج.١ ، ص.٥٢ - ٥٧. فحرب البسوس التي دامت أربعين سنة مثلا ، لم تزد فيها أيام المواجهة الحقيقية عن ستة أيام وهي: يوم النهي ، ويوم الذنائب ، ويوم واردات ، ويوم عنيزة ، ويوم القصيبات ، ويوم تحلاق اللمم. انظر:حنا الفاخوري ، تاريخ الأدب العربي ، المطبعة البوليسية ، صص.٦٩ - ٧٠. ويمكن أيضا الرجوع فيما يتعلق بالبسوس إلى: ابن منظور ، لسان العرب ، م.١ ،ص.٢١٢ ، وعن داحس والغبراء: م.٢ ، ص.٩٥١ .

١٠- البلاذري ، فتوح البلدان ، ص.١٤٢ .

١١- البلاذري ، فتوح البلدان ، ص.١٤٦وما بعدها .

١٢- هناك ارتباط عضوي بين الإقطاع والجيش والارتزاق ، فالإقطاع «إما إقطاع تمليك أو استغلال. الأول يشمل الأرض الموات والعامر والمعادن ، والثاني ما وضع عليه الخراج على أن يكون المنتفع به ، عند الماوردي ، من مرتزقة أهل الفيء والمفروض لهم في ديوان العطاء ، وهم أهل الجيش الذين هم أخص الناس بجواز الإقطاع.» انظر: إبراهيم حركات ، النشاط الاقتصادي الإسلامي في العصر الوسيط ، دار أفريقيا الشرق ، الدار البيضاء ، ١٩٩٦ ، ص.١٢ .

١٣- ابن هشام ، السيرة ، م.٢ ، ص.١٩٣

١٤- إبراهيم حركات ، المرجع نفسه ، ص.١٢. وعن تطور الإقطاع في عهد عثمان وما بعده ، ص.١٢-١٤ ، وعن الأموال التي كان يأخذها الجيش ، تراجع: ص.٢٥٦-٢٦٢.

١٥- الطبري ، ج.٢ ، ص.٤٩٠ .

١٦- نفس المصدر والصفحة .

١٧- المصدر نفسه ، ص.٥٧٠ .

١٨- المصدر نفسه ، ص.٥٧١ .

١٩- المصدر نفسه ، ص.٥٧٠ .

٢٠- فقد تكاثر الموالي والذميون والمجوس... في الدولة والمجتمع الإسلاميين ، وكان عمر بن الخطاب يدرك خطرهم ويقول: «اللهم إني أعوذ بك من أولاد سبايا الجلوليات.» انظر: أحمد بن داود الدينوري ، الأخبار الطوال ، مطبعة عبد الحميد أحمد حنفي ، مصر ، ص.١٢٣ . وعندما علم بأن الفرس هم الذين قتلوه قال: «ما كانت العرب لتقتلني.» انظر: ابن أبي الحديد ، شرح نهج البلاغة ، القاهرة ،١٣٢٩هـ ، م.٣ ،ج.١٢ ،ص.١٤٤. وكذلك قال بعد أن طعن: «ألم أقل لا تجلبوا إلينا من العلوج فغلبتموني.» ابن أبي الحديد ، نفس المصدر والصفحة. والغريب ، حسب ابن تيمية ، أن بعض "الروافض" يعظمون «أبا لؤلؤة المجوسي الكافر... لما قتل عمر ويقولون: واثارات أبي لؤلؤة.» انظر: أحمد ابن تيمية ، منهاج السنة في نقض كلام الشيعة والقدرية ، المطبعة الأميرية ، بولاق ،١٣٢١هـ ، م.١ ، ص.١١.

٢١- الطبري ، ج.٣ ،ص.٢٦٤.

٢٢- ابن خلدون ، المقدمة ، الدار الإفريقية العربية - دار الكتاب اللبناني ، بيروت ،١٩٦٠ ، ص.٢٧٣. للتوسع في مسألة دخول العنصر التركي الحياة العسكرية منذ عهد المعتصم (تولى الخلافة سنة٢١٨هـ) ، ثم التطورات اللاحقة ، خصص أحمد أمين عدة صفحات من كتابه "ظهر الإسلام" دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط.٥ ، ١٩٦٩م ، ج.١ ، ص.٣ وما بعدها. كما خصص: ص.٩ وما بعدها للحديث عن الفرس ، وص.٦٤... للروم ، وص.٧٠...للزنج. ولمتابعة المرتزقة خاصة الأتراك في الدولة الإسلامية خلال القرنين ٨م و٩م ، ثم التطورات اللاحقة إلى غاية النضج مع الدولة العثمانية ، يراجع: بيري أندرسون ، دولة الشرق الاستبدادية ، ترجمة بديع عمر نظمي ، مؤسسة الأبحاث العربية ، بيروت ،١٩٨٣ ، ص.١٠ وما بعدها .

٢٣- محمد زنيبر ، مفهوم الدولة والأمة في العصر الوسيط ، مجلة الوحدة ، السنة٤ ، عدد٤٢ ، مارس ،١٩٨٨ ، ص.٦٧. ويكفي لنقض هذا التصور (الذي يرد تاريخ الارتزاق للعهد الثاني من الدولة العباسية) أن نورد قول ابن عذاري بأن هارون الرشيد أرسل سنة ١٩١هـ إلى إفريقية «ثلاثين ألفا من جند خراسان» البيان المغرب ، ج.١ ، ص.٩٤ ، وكذا ص.٩٠ ، مما يعني أن المرتزقة كانوا - على الأقل - في العهد الأول للدولة العباسية .

٢٤- ستانلي لين بول ، طبقات سلاطين الإسلام ، ترجمة مكي طاهر الكعبي ، الدار العالمية للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ١٩٨٦ ، ص.ص.١٧.١٨ .

٢٥- مع الإشارة إلى أننا لم نرد تكرار نفس المعلومات والأخبار التي ضمناها العنصر الخاص بالارتزاق في منظور الشريعة .

٢٦- يمكن متابعة الظاهرة ضمن الجزأين الثاني والثالث من "تاريخ الأمم والملوك".

٢٧- ندخل في بلاد المغرب الأندلس أيضا لأننا لم نستطع فصلها تاريخيا عن شمال أفريقيا ، نظرا لتداخل أحداث المنطقة .

٢٨- الرقيق القيرواني ، تاريخ إفريقية والمغرب ، ص.ص. ١٢ - ١٣ .

٢٩- القيرواني ، ص.١٦. ابن عبد الحكم ، فتوح أفريقيا والأندلس ، تحقيق عبد الله أنيس الطباع ، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ١٩٦٤ ، ص.٥٩ .

٣٠- يذكر ابن عذاري ، ج.٢ ، ص.٥ ، أن الغالب على نسب طارق أنه بربري ، لكن هناك من يرى أنه فارسي الأصل.

٣١- القيرواني ، ص.٣٣. ابن عبد الحكم ، ص.٦٤ .

٣٢- القيرواني ، ص.٣٤ . انظر أيضا ص.٣٩ ، كيف كان تحت إمرة طارق وهو بطنجة ١٢ ألف فارس من البربر. وأيضا: ابن عذاري ، ج.١ ، ص.٣٨ ، وابن عبد الحكم ، ص.٧١ .

٣٣- القيرواني ، ص.٣٦ .

٣٤- ابن عذاري ، ج.١ ، ص.١٦ .

٣٥- ابن عذاري ، ج.١ ، ص.٣١. ابن عبد الحكم ، فتوح أفريقيا والأندلس ، ص.٥٩.



٣٦- ابن عذاري، ج.١، ص.٣٥.
٣٧- ابن عذاري، ج.١، ص.٤٧ - ٨٢.
٣٨- بلغ عدد المواجهات بين العرب والبربر ٣٧٥ وقيعة حسب ابن عذاري، ج.١، ص.٧٧.
٣٩- ابن عذاري، ج.١، ص.٩٠. للمقارنة انظر: القيرواني، ص.٦٤ وما بعدها، والبلاذري، ص.٣٢٥.
٤٠- ابن عذاري، ج.١، ص.٩٤، وذلك لقمع ثوراتها التي كان يقودها الجند أحيانا إذا ما قتر عليهم في الرزق «وكان سبب عزل ابن العكي (محمد بن مقاتل بن حكيم العكي، ولي إفريقية سنة ١٨١هـ) أنه اقتطع من أرزاق الجند وأساء السيرة فيهم وفي الرعية.» القيرواني، ص.١٧٠.
٤١- ابن عذاري، ج.١، ص.١٠١.
٤٢- ابن عذاري، ج.١، ص.١٧٧.
٤٣- ابن عذاري، ج.١، ص.١١٨. كما حمل معه «من بيت مال مصر ثمانمائة حمل دنانير ذهبا، فأعطى أصحابه الأرزاق بها.» نفس المصدر والصفحة.
٤٤- ابن عذاري، ج.١، ص.١٥٠. علما بأن إفريقية ستظل على اتصال مفتوح مع مصر، وبالتالي بلاد النوبة، مصدر "البقط" Pactum (سبي النوبة) الذين استعملوا في مختلف المهام.
François Renault, La traite des noirs au proche orient médiéval, VII-XIV siècles, Librairie orientaliste, Paris, 1989, p. 11-42
فلا نستبعد أن يكون بعضهم قد اشتغل بالجندية أيضا.
٤٥- أبو محمد الحميدي الأندلسي، جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، تحقيق روحية عبد الرحمان السويفي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٧، ص.١٣. ويذكر الطالبي أن طريف البرغواطي ينتمي إلى أصول يهودية، وأنه ساهم - مع أقربائه - في فتح الأندلس، وحصلوا مقابل ذلك على امتيازات مادية مهمة. انظر: محمد الطالبي وإبراهيم العبيدي، البرغواطيون في المغرب، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ١٩٩٩، ص.ص.١٠-١١.
٤٦- ابن عذاري، ج.٢، ص.٦. القيرواني، ص.ص.٤١ - ٤٢. البلاذري، ص.٣٢٣. ابن عبد الحكم، صص. ٧٢ - ٧٣.
٤٧- ابن عذاري، ج.٢، ص.٩. وقارن تفاصيل الفتح عند ابن عبد الحكم، ص.٩٥ وما يليها، حيث يركز خصوصا على مسألة الغنائم.
٤٨- ابن عذاري، ج.٢، ص.١٠.
٤٩- لا يختلف الفقهاء في القول بجواز استعمال الكفار واستئجارهم للخدمة والدلالة على الطريق ونحو ذلك أثناء الجهاد. انظر: الطريقي، الاستعانة بغير المسلمين، ص.٢٦١.
٥٠- ابن عذاري، ج.٢، ص.١٣.
٥١- ابن عذاري، ج.٢، ص.١٣.
٥٢- الطريقي، ص.٢٦١.
٥٣- انظر على سبيل المثال تفاصيل فتح قرطبة عند ابن عذاري، ج.٢، ص.١٠.
٥٤- لاحظ أن ابن عذاري على طول الصفحات التي يصف فيها فتح الأندلس، عندما يستعمل كلمة "العلوج" يقصد بها "النصارى". انظر مثلا: البيان المغرب، ج.٢، ص. ١٠ - ١١ - ١٢ - ١٤...
٥٥- ابن عذاري، ج.٢، ص.ص.١٣ - ١٤.
٥٦- ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٧٥، ج.٣، ص.٥٢٩.
٥٧- النويري، ص.٢٥٣. وعند ابن عذاري، ج.١، ص.ص.٩٢ - ٩٣، أن ابن الأغلب اتخذ جيشا من العرب والعبيد.
٥٨- النويري، ص.٢٦٦، وص.٢٧٦. ويذكر ابن عذاري (ج.١، ص.١٠١) أن الزنوج - ألف أسود - كانوا موجودين أيضا في معركة سبيبة سنة ٢١٠هـ، أي في ولاية زيادة الله بن الأغلب.
٥٩- النويري، ص.٢٧٦.
٦٠- نفس المصدر والصفحة، بينما يختزل ابن عذاري (ج.١، ص.١٧١) هذه الأحداث في جملة: «وفي سنة ٢٦٤ كمل بناء القصر المعروف بالفتح، وانتقل إليه إبراهيم بن أحمد، وقتله للموالي بالقصر القديم لأنهم ثاروا عليه.»

٦١- النويري، ص.٢٧٨. ويعرف عبد الله عنان الصقالبة بأنهم المماليك من مختلف الجنسيات الأوروبية، انظر: الإحاطة، ج.١، ص.٤٤١، هامش "١"و"٢".
٦٢- النويري، ص.٢٧٨، وقارن مع ابن عذاري، ج.١، ص.ص.١٢٢-١٢٣، ضمن أحداث سنة ٢٧٩هـ.
٦٣- ابن عذاري، ج.٢، ص.٢٤٧.
٦٤- نفسه، ج.٢، ص.ص.٢٤٧ - ٢٤٨.
٦٥- النويري، ص.ص.٢٩٨-٢٩٩، بينما يكتبه إسماعيل بن الأحمر: "جوهر الرومي البندقي". انظر: بيوتات فاس الكبرى، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧٢، ص.١٦، وابن عذاري، ج.١، ص.٢٢١.
٦٦- نتحدث عنهم باعتبار دولتهم، أو على الأقل السلطة العليا فيها، كانت بيد عرب شرفاء. للتوسع في استخدام الفاطميين للبربر، وخصوصا من كتامة، يراجع: فرحات الدشراوي، الخلافة الفاطمية بالمغرب، تعريب حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٤م، ص.ص.٥٣٧-٥٣٨.
٦٧- تفاصيلها عند النويري، ص.٣٩٨ وما بعدها، وابن عذاري، ج.١، ص.١٢٧، وص.١٥٠ وما بعدها.
٦٨- النويري، ص.٣١٤، وانظر كيف أصبحوا ألوفا بالمنصورية سنة ٣٧٣هـ، عند ابن عذاري، ج.١، ص.٢٣٨.
٦٩- لاحظ كلمة "عبيد" التي تتردد عند النويري على طول الصفحات التي يصف فيها العمليات العسكرية، مثلا: ص.٣٢٧ - ٣٣٠ - ٣٣٢ - ٣٦٢ ...
٧٠- لكنه رغم ذلك خسر المواجهة. النويري، ص.ص.٣٤٥ - ٣٤٦.
٧١- تفاصيل الأسباب التي أدت بالفاطميين إلى إرسال العرب لبلاد المغرب، عند النويري، ص.ص.٣٤٢ - ٣٤٣، وعند ابن عذاري، ج.١، ص.٢٨٨ وما بعدها.
٧٢- النويري، ص.ص.٣٤٥ - ٣٤٦.
٧٣- نفسه، ص.ص.٣٤٨ - ٣٤٩.
٧٤- كانوا قد وفدوا إلى طرابلس الغرب بزعامة ملك شاه التركي، النويري، ص.ص.٣٤٨-٣٤٩. أما تفاصيل قدوم ملك شاه ومساهمته في أحداث المنطقة إلى جانب مثنى بن تميم في ثورته ضد أبيه (تميم بن المعز)، فيراجع النويري، ص.ص.٣٥٨ - ٣٥٩.
٧٥- كما أن عبد الرحمان الداخل اعتمد في عملياته العسكرية الأولى لإخضاع الأندلس على الجيش العربي. ويذكر بروفنصال أن الأندلس إلى هذا التاريخ كانت قد غرقت في صراعات دموية بين القيسية واليمنية، وبين العرب والبربر:
. Levy Provençal, Histoire de lEspagne musulmane, Paris-Leide, E
t.1 .pp. 37-38، ثم يكتب أزيد من ٢٠ صفحة عن التركيبة الإثنية الاجتماعية بالأندلس: بربر - عرب - صقالبة - أسبان... Ibid, t. 3, p.167-188.
٧٦- النويري، ص.٦٧.
٧٧- نفسه، صص.٩٢ - ٩٣.
٧٨- علي بن محمد بن سعيد الغرناطي، المغرب في حلى المغرب، تحقيق خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧، ج.١، ص.١٣.
٧٩- أحمد بن محمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، دار الكتب العلمية، بيروت، ج.١، ص.٣٢٧-٣٤٩.
٨٠- اندلعت ثورة الربض حسب النويري (ص.ص. ٨٩ - ٩٠) سنة ١٩٨هـ أو سنة ٢٠٢هـ، وحسب ابن سعيد الغرناطي (ج.١، ص.١٥) سنة ٢٠٢هـ.
٨١- النويري، ص.٨٩، ابن سعيد، ج.١، ص.١٥.
٨٢- النويري، ص.١١٢.
٨٣- ابن الخطيب، الإحاطة، ج.٣، ص.ص.٢٧٩ - ٢٨٠.
٨٤- الإحاطة، ج.٤، ص.٣٨.
٨٥- نفسه، ج.٤، ص.٣٩.
٨٦- محمد بن عبود، مباحث في التاريخ الأندلسي ومصادره، سلسلة المعتمد بن عباد للتاريخ الأندلسي ومصادره، منشورات عكاظ، الرباط، ١٩٨٩، صص.١٦ - ١٧.
٨٧- الحميدي، جذوة المقتبس، ص.٢٢، وابن الخطيب، الإحاطة، ج.١، ص.٩٣.
٨٨- النويري، ص.١٣.



٨٩- لما تولى هشام المؤيد بالله الخلافة (٣٦٥هـ) كان صغير السن (١٢ سنة) فتقرب المنصور بن أبي عامر إلى أم الخليفة هشام «فأمدته المرأة بالأموال، فاستمال العساكر إليه» النويري، ص.١٢٢. «فأول عروة فصمها (ابن أبي عامر) من عرى المملكة، عروة الصقالبة... عني الخلفاء بجمعهم والاستكثار منهم، وكانوا خاصة الناصر والحكم بعده، حتى لقد ظهرت منهم في زمن الحكم أمور قبيحة أغضى عنها مع إيثاره العدل... وكان يقول: هم أمناؤنا وثقاتنا على الحرم، فينبغي للرعية أن تلين لهم... فتسلم من معرتهم، إذ ليس يمكننا في كل وقت الإنكار عليهم. ولما مات الحكم، كان الصقالبة أكثر جمعا وأحد شوكة، يظنون أن لا غالب لهم. وأن الملك بأيديهم.» ابن عذاري، ج.٢، ص.٢٥٩. فجاء ابن أبي عامر وفتك بهم. ابن سعيد الغرناطي، المغرب، ج.١، ص.١٣٧.

٩٠- النويري، ص.١٣٤، حيث يلاحظ تواتر الفتن التي تورطت فيها مختلف العناصر: عرب، بربر، صقالبة...

٩١- النويري، ص.١٢٨.

٩٢- النويري، ص.١٢٨.

٩٣- هذا إذا اعتمدنا التاريخ الذي حدده النويري، ص.١٣٧. أما إذا اعتمدنا ابن عذاري فإن له رأيا مخالفا حيث يقول: «قد ذكرنا ما كان من تداول الولاة والأمراء الأمويين من بعده إلى دولة ابن أبي عامر، وذكرنا من ولي الخلافة بقرطبة في زمان الفتنة إلى سنة اثنين وعشرين وأربعمائة، وهو حين خلع أهل قرطبة بني أمية أجمعين.» البيان المغرب، ج.٣، ص.١٥٥، أي التاريخ الرسمي لبداية حكم «الثوار المتغلبين على بلاد الأندلس... وهم المسمون بملوك الطوائف.» ابن عذاري، ج.٣، ص.١٥٣.

٩٤- النويري، صص.١٣٦ - ١٣٧.

٩٥- وهي أسرة حسنية علوية. انظر النويري، ص.١٣٧.

٩٦- بويع سنة ٤٠٧هـ «وفي سنة ثمان وأربعمائة خالف عليه العبيد الذين كانوا بايعوه، وقدموا عبد الرحمان بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمان الناصر، وسموه المرتضى وزحفوا به إلى غرناطة، ثم ندموا على إقامته لما رأوه من صرامته وخافوا عواقب تمكنه، فانهزموا عنه ودسوا عليه من قتله غيلة، وبقي علي بن حمود بقرطبة إلى آخر سنة ثمان وأربعمائة فقتله صقالبته في الحمام، فكانت مدة ولايته سنة واحدة وعشرة أشهر.» النويري، ص.١٣٨، وانظر أيضا خبر الاغتيال عند: الحميدي، جذوة المقتبس، ص.ص.٢٤ - ٢٥، وابن الخطيب، الإحاطة، ج.٤، صص.٥٧ - ٥٨.

٩٧- انظر على سبيل العد لا الحصر: ولاية علي بن حمود الناصر - ولاية القاسم بن حمود المأمون - ولاية يحي بن علي المعتلي - ولاية عبد الرحمان بن هشام المستظهر... بعضهم لم تزد مدة ولايته عن بضعة أشهر قبل أن يخلع أو يغتال. الحميدي، ص.٢٤ - ٢٧ وصص.٣٠ - ٣١، وقارن مع النويري، ص.١٣١ - ١٧١.

٩٨- الحميدي، ص.٢٩.

٩٩- ابن عذاري، ج.٣، ص.١٥٣.

١٠٠- ابن عذاري، ج.٣، ص.١٦٠. انظر أيضا دور الصقالبة في أحداث دولة بني حمود عند: مؤرخ مجهول، تاريخ مبتور الأول والآخر في أخبار دول ملوك الطوائف، نشره ج.س.كولان وإ.ليفي بروفنصال في نهاية الجزء الثالث من البيان المغرب لابن عذاري، ص.٢٩١.

١٠١- ابن عذاري، ج.٣، ص.١٥٨ - ١٦٣.

١٠٢- نفس المصدر والصفحات.

١٠٣- نفسه، صص.١٦٦ - ١٦٧. ومؤرخ مجهول، تاريخ مبتور... ،ص.٢٩٣. وتوفي خيران سنة ٤١٨هـ، وكان مولى للمنصور بن أبي عامر. انظر: ابن سعيد الغرناطي، المغرب في حلى المغرب، ج.٢، ص.١٦٢، ونفح الطيب، ج.١، ص.١٤١. وابن عسكر وابن خميس، أعلام مالقة، تحقيق عبد الله المرابط الترغي، دار الأمان - دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٩م، ص. ٢٩٦ وص.ص. ٣٥٨ - ٣٥٩.

١٠٤- ابن عذاري، ج.٣، ص.١٧٨.

١٠٥- المصدر نفسه، ص.١٨٩. بينما نجد في أعلام مالقة، أن مقتله كان في الحمام بقصر قرطبة سنة ٤٠٨هـ.

١٠٦- المصدر نفسه، ص.١٩٦.

١٠٧- المصدر نفسه، ص.٢٠٥.

١٠٨- المصدر نفسه، ص.٢١١.

١٠٩- ابن عبود، مباحث في التاريخ الأندلسي، ص.٨٩.

١١٠- ابن عذاري، ج.٣، صص.٢٢٢ - ٢٢٣.

١١١- نفسه، ص.٢٢٣.

١١٢- نفسه، ص.٢٢٩، وعن دفع الجزية للروم ينظر على سبيل المثال: ص.٢٩٩ - ٢٣٨... أما عن أسرى المسلمين وغيرهم ب"دار الكفر" الأسبانية (نموذج أراغون) فيراجع:

Liauzu Guy, La condition des musulmans dans l'Aragon chrétien aux XI et XII siècles, in Hesperis, Vol. IX, fasc.2, 1968, p. 185-200.

١١٣- ابن عذاري، ج.٣، ص.٢٣١. وعن الصراع الذي دار بين بني جهور وبني ذي النون: ابن عذاري، ج.٣، ص.٢٣٣. وصراع ابن عباد مع ابن الأفطس: ابن عذاري، ج.٣، ص.٢٣٤. وأخبار الفتن والثورات عند المؤرخ المجهول، تاريخ مبتور، ص.٢٩٦ وص.٢٩٩ (فتن ضد المعتضد بن عباد)، وص.٣٠٣ (أخبار شاطبة وبلنسية زمن ابن ذي النون سنة ٤٥٢هـ وما بعدها). كما يمكن الرجوع إلى أخبار هذه الأحداث مختصرة عند ابن سعيد الغرناطي، المغرب، ج.٢، صص.١٣ - ١٤.

١١٤- ابن عذاري، ج.٣، ص.٢٦٩.

١١٥- نفس المصدر والجزء والصفحة.

١١٦- ابن الخطيب، الإحاطة، ج.١ ،ص.٤٣٧.

١١٧- الإحاطة، ج.١، ص.٤٣٨، ويكتبه ابن سعيد الغرناطي: ابن نغرلة (المغرب في حلى المغرب، ج.٢، صص.٩٠ - ٩١ وصص.١٠٦ - ١٠٧)، بينما يكتبه المقري: ابن نفدلة (نفح الطيب، ج.٦، ص.٩٣).

١١٨- الإحاطة، ج.١، صص.٤٣٩ - ٤٤٠، وابن عذاري، ج.٣، ص.٢٦٤.

١١٩- الإحاطة، ج.١، ص.٤٤٠، وابن عذاري، ج.٣، ص.٢٦٥.

١٢٠- ابن سعيد الغرناطي، المغرب، ج.٢، ص.٩١. بل بلغت الجرأة بابن نغرالة أنه «طلب أن يقيم لليهود دولة، فدس إلى ابن صمادح صاحب ألمرية في السر أن يدخله غرناطة ويكون اليهودي على ألمرية.» ابن عذاري، ج.٣، ص.٢٦٦، لكن هذا التدبير وصل إلى صنهاجة فقتلوه وصلبوه سنة ٤٥٩هـ "وقتل من اليهود أكثر من ثلاثة آلاف." ابن عذاري، ج.٣، ص.٢٦٦ - ٢٧٥.

١٢١- ابن سعيد الغرناطي، ج.٢ن ص.٣٥٧، ونفح الطيب، ج.٢، ص.٧٤، بينما برع يهود آخرون في الطب والشعر بالأندلس، ومنهم: إلياس بن صدود بمدينة رندة في صدر المائة السادسة.(المغرب، ج.١، ص.٢٥٩، ونفح الطيب، ج.٥، ص.٧٥)، وأبو إسحاق إبراهيم بن الفخار الذي عاش في بلاط طليطلة، ولما ملكها أذفونش مدحه ابن الفخار بقوله:

حضرة الأذفونش لا برحت *** غضة أيامها عرس

فاخلع النعلين تكرمة *** في ثراها إنها قدس

انظر: المغرب في حلى المغرب، ج.٢، صص.١٣-١٤، ونفح الطيب، ج.٥، ص.٧٤. ولمزيد من الاطلاع عن الفكر اليهودي القروسطي ننصح بقراءة:

Vajda, g., Introduction à la pensée juive du moyen age, Paris, 1947.

١٢٢- ابن عبود، مباحث في التاريخ الأندلسي، ص.١٥٢. ومن أهم الدراسات التي تناولت، في إشارات تحليلية عميقة، المجال الأندلسي ضمن أوربا الغربية منذ سقوطها في يد المسلمين إلى حين استرجاع طليطلة ضمن حروب الاسترداد المسيحية دراسة جورج دوبي الاقتصادية:

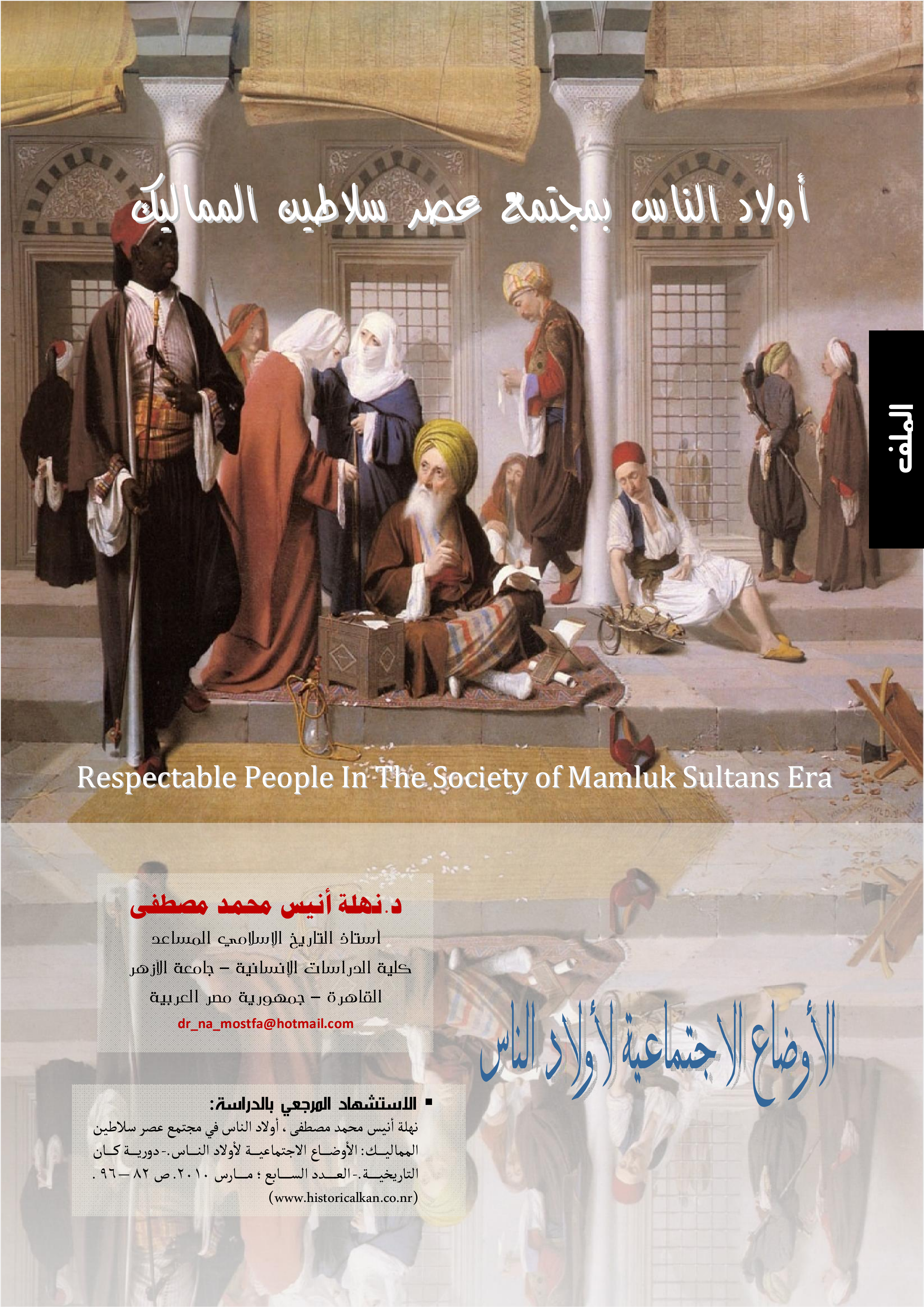
Georges Duby, Guerriers et paysans : VII-XII siècle : premier essor de l'économie europeénne, Gallimard, Paris, 1973.

١٢٣- ابن عذاري، ج.٣، ص.٢٧٨.

١٢٤- ابن عذاري، ج.٣، ص.ص.٢٧٩ - ٢٨٠.

١٢٥ -ابن عذاري، ج.٣، ص.ص. ٢٨٠ - ٢٨١.

١٢٦-ابن عذاري، ج.٣، ص.٢٨١.



أولاد الناس بمجتمع عصر سلاطين المماليك

Respectable People In The Society of Mamluk Sultans Era

الأوضاع الاجتماعية لأولاد الناس

د.نهلة أنيس محمد مصطفى

أستاذ التاريخ الإسلامي المساعد

كلية الدراسات الإنسانية – جامعة الأزهر

القاهرة – جمهورية مصر العربية

dr_na_mostfa@hotmail.com

▪ **الاستشهاد المرجعي بالدراسة:**

نهلة أنيس محمد مصطفى ، أولاد الناس في مجتمع عصر سلاطين المماليك: الأوضاع الاجتماعية لأولاد الناس.- دورية كان التاريخية.- العدد السابع ؛ مارس ٢٠١٠. ص ٨٢ – ٩٦ .

(www.historicalkan.co.nr)

الملف

تعددت الأوضاع الاجتماعية لأولاد الناس داخل المجتمع المصري خلال عصر سلاطين المماليك وتشعبت اتجاهاتها ، فقد شكل أولاد الناس فئة من طبقة المماليك ، وهي الطبقة الأوّلى بالرعاية من جانب السلاطين باعتبار أنهم يشكلون طبقة خاصة بهم تمثلت في السلطان ونخبة الأمراء المماليك ، ولكن إذا صح القول أن طبقة المماليك تنقسم إلى فئات أو على الأقل يمكن أن يوجد بها من هم في المنزلة الثانية من نفس الطبقة ، فبعض الدراسات الحديثة تشير إلى أن مجتمع المماليك في المدن المملوكية تكون من طبقة مميزة وهي الخاصة وطبقة العامة وكان بين الطبقتين فئة ثالثة وهم الأعيان ، فيكون هناك الأعيان من المماليك وإذا صح القول فيندرج تحتهم أولاد الناس والأعيان من العامة وهم العلماء والفقهاء وأعيان التجار وهو ما اصطلح على تسميتهم بياض العامة.

ولو اعتبر أولاد الناس من أعيان المماليك فهم جزء لا يتجزأ من طبقة المماليك حيث يشكلون فئة من فئاتها ، وبالرغم من أنهم شكلوا العنصر الثاني من الطبقة المملوكية العسكرية الممتازة كما وصفهم المؤرخون المحدثون ، إلا أنهم تفاعلوا في المجتمع المصري تفاعلا كبيرا حيث استطاع رغم مكانتهم الهامة أن يجذبهم بين جنباته ، وخاصة أنهم كثيرا ما حاولوا الابتعاد عن الحياة السياسية العسكرية التي يحيا آباؤهم في ظلها ، واختار البعض منهم حياة مختلفة عما كان عليه أسلافهم ، حتى أن أحفاد المماليك أبناء أولاد الناس وهم الذين شغلوا مكانة أدنى من مكانة أولاد الناس سرعان ما امتصهم المجتمع المصري وذابوا فيه بعد جيلين أو ثلاثة وأصبحوا نسيجاً واحداً مع بقية طبقات المجتمع.

وبالرغم من ذلك إلا أننا وجدنا حياة اجتماعية لأولاد الناس وأبنائهم وأيضاً لأحفادهم ، نحاول أن نتعرف على هذه الحياة الاجتماعية والتي شملت كافة أولاد الناس سواء من أبناء السلاطين (الأسياد) وبناتهم أو أولاد الناس أبناء الأمراء حيث نميط اللثام عن نقاط كثيرة تتعلق بحياتهم الاجتماعية والتي استطعنا التوصل إليها من خلال البحث بين ثنايا سطور المصادر المملوكية فلنحاول استنطاق هذه المصادر لنصل إلى حقيقة ولو شبه مكتملة عن حياة أولاد الناس الاجتماعية في عصر سلاطين المماليك.

أبناء السلاطين (الأسياد) بالمجتمع المصري

استطاع السلاطين المماليك بعد فترة الحكم الانتقالية التي عبروا بها خلال التاريخ السياسي للدولة منذ اعتلاء شجر الدر عرش مصر وإلى تنصيب السلطان الظاهر بيبرس السلطنة إرساء قواعد أساسية لنظام الحكم المملوكي ، ومن الممكن القول أن الظاهر بيبرس يعتبر المؤسس الحقيقي لدولة المماليك ، فقد قام بجهود كبيرة في تدعيم دولة المماليك والدفاع عنها ضد أعدائها وخاصة المغول والصليبيين ، وباعتبار أن الظاهر بيبرس قد مكث في حكم مصر والشام فترة أطول من سابقيه مما ساعده على إنجاز الكثير من المشاريع التي تساعد على تثبيت دعائم الحكم وتقعيد أصوله داخلياً وخارجياً ، ومن هنا يمكن القول أن دولة المماليك في عهد بيبرس اتخذت طابعاً مميزاً ظل مصاحباً لها حتى نهايتها ، وباعتبار أن الظاهر بيبرس تقلد مقاليد الأمور بعد قتله للمظفر سيف الدين قطز فهو إذن لا يعترف بمبدأ وراثة العرش ، بل يرى أن من يصلح للحكم هو الأقدر والأقوى وبالرغم من ذلك فقد غالبته عاطفة الأبوة وتراه في أواخر عهده يحاول تولية العرش لابنه السعيد بركة.

ومن خلال العصر المملوكي الأول ظهر لنا العديد من السلاطين أبناء الملوك فقد حظي هؤلاء السلاطين بكثير من الدراسة والبحث ، والتنقيب في سيرهم وكتبت العديد من المؤلفات عن عهودهم وترجماتهم ، وأحوال السلطنة السياسية والاقتصادية والاجتماعية أثناء فترات حكمهم ، وأطال المؤرخون القدامى منهم والمحدثون في التعريف بسير هؤلاء السلاطين أبناء الملوك منذ عهد المنصور علي بن أيبك ٦٥٥-٦٥٧هـ/١٢٥٧-١٢٥٨م مروراً بعهود السعيد بركة ٦٧٦-٦٧٨هـ/١٢٧٧-١٢٧٩م ، والعادل سلامش ٦٧٨هـ/١٢٧٩م ، وصولاً إلى أبناء وأحفاد الناصر محمد بن قلاوون وهم الذين ظلوا على عرش دولة المماليك طوال العصر المملوكي الأول.

وعادة ما كان يؤول أمر هؤلاء السلاطين أبناء الملوك "الأسياد" إلى أحد ثلاثة أمور أولها ، القتل وجلوس أحد غيره في دست السلطنة ، وثانيها العزل والحبس في دور قلعة الجبل ، وثالثها من يموت منهم على سرير الملك دون القتل والعزل فمن طبق عليه منهم الأمر الأول السلطان الأشرف خليل بن قلاوون الألفي ٦٦٦-٦٩٣هـ/١٢٦٧-١٢٩٣م والسلطان المنصور أبو بكر بن الناصر محمد ٧٤١-٧٤٢هـ/١٣٤٠-١٣٤١م. والسلطان الناصر أحمد بن محمد بن قلاوون ٧٤٥هـ/١٣٤٤م ، والكامل شعبان بن محمد بن قلاوون ٧٤٦-٧٤٧هـ/١٣٤٦م والمظفر حاجي بن محمد بن قلاوون ٧٤٨هـ/١٣٤٨م ، والسلطان الناصر حسن بن محمد بن قلاوون ٧٤٨-٧٦٢هـ/١٣٤٧-١٣٦٠م والسلطان الأشرف شعبان بن حسين ٧٦٤-٧٧٨هـ/١٣٦٣-١٣٧٧م وأما من مات على فراشه وهو على سرير الملك السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، والملك الصالح إسماعيل بن محمد بن قلاوون ٧٤٦هـ/١٣٤٥م ، والسلطان المنصور علي بن الأشرف شعبان بن حسين ، وهو أول سلطان من أحفاد أحفاد الناصر محمد بن قلاوون ، فقد ظل على سرير الملك ويدير أمر المملكة والمماليك حتى أصيب بالوباء الذي انتشر بمصر عام ٧٨٣هـ/١٣٨١م.

أما من توفي منهم بعد عزله وحبسه في دور القلعة ، الملك الأشرف كجك بن الناصر محمد وقد ولي السلطنة وعمره خمس سنوات في عام ٧٤٢هـ/١٣٤١م ومكث بها مدة يسيرة حتى حضر أخوه الناصر أحمد وعزله وقتل مدبر مملكته الأمير قوصون الساقي الصالحي ، وأدخل الأشرف إلى الدور السلطانية بالقلعة إلى أن مات عام ٧٤٦هـ/١٣٤٥م في عهد أخيه الأشرف شعبان والملك الصالح صالح بن الناصر محمد ٧٥٢-٧٦١هـ/١٣٥١-١٣٦٠م ، ولد بقلعة الجبل وظل بها في الدور السلطانية إلى أن طلب للسلطنة وأصبح الأمير طاز الناصري مدبر مملكته وصاحب الحل والعقد فيها ولم يكن السلطان الصالح معه سوى الاسم واستمر حاله على ذلك حتى خلع ، ولزم بيته في قلعة الجبل وظل محبوساً بها حتى توفي سنة ٧٦١هـ/١٣٥٩م ودفن بمقبرة عمه الملك الصالح علي بن قلاوون بالخاتونيه بالقرب من المشهد النفيسي

أما الملك الصالح حاجي والذي قلد السلطنة مرتين الأولى لقب بالصالح والثانية لقب بالمنصور ، قلد السلطنة بعد موت أخيه المنصور علي بن شعبان عام ٧٨٣هـ/١٣٨٠م وكان مدبر مملكته الأتابك برقوق إلى أن خلعه وجلس هو على كرسي السلطنة ، ثم أعاده الأمير منطاش الناصري مرة أخرى إلى السلطنة ولقب في هذه المرحلة بلقب المنصور عام ٨٩١هـ/١٤٨٦م وعندما انقضت الفتنة وعاد برقوق خلع

المنصور نفسه من السلطنة ، فعامله الظاهر برقوق معاملة طيبة ولم يرسله إلى ثغر الإسكندرية بل أدخله إلى دور الحريم ورتب له ما يكفيه ، واستمر على ذلك إلى أن مات على فراشه في عام ٨١٤هـ/١٤١١م في عهد الناصر فرج بن برقوق ودفن بمقبرة جدته خوند بركة في التبانة ، وكان يبلغ من العمر نحو سبع وأربعين سنة.

أما بالنسبة للعصر المملوكي الثاني فالأمور لا تختلف فيه كثيراً ، فكان حال السلاطين شبيهاً بأحوال سلاطين العصر الأول ، إلا أنهم اتخذوا بديلا آخر غير سكنى السلاطين المخلوعين من أبناء السلاطين الدور السلطانية بقلعة الجبل ، بل كان السلطان يرسل بهم إلى ثغر الإسكندرية ليسجنوا هناك.

وكما ذكرنا لسنا هنا بصدد الحديث عن الملوك أولاد السلاطين الذين حكموا مصر ثم عزلوا عن منصب السلطنة إلا أننا وجدنا خلال العصر المملوكي الثاني ما يستحب توضيحه بالنسبة لهؤلاء الأمراء أبناء السلاطين الذين تسلطنوا ولم يكن لهم نصيب كبير من السلطنة وعوقبوا بالنفي إلى ثغر الأسكندرية ، ثم أصبحت لهم حياة إجتماعية أخرى تختلف عن سابقيهم ومن هنا أردنا التوضيح البسيط لحياة هؤلاء خلال عهود اللاحقين عليهم من سلاطين الجراكسة ، وباعتبار أنهم كانوا من الأسياد فهم جزء مكمل لأولاد الناس ، ولابد من الإشارة إلى كيفية حياتهم الإجتماعية التي عاشوها ، وخاصة أن سلاطين المماليك أمثال الأشرف برسباي والظاهر جقمق والظاهر إينال وغيرهم قد سلكوا معهم مسلكا طيبا باعتبار أنهم كانوا سلاطين وأبناء أساتذتهم إلا أن الحال لم يدم لهم.

أما السلطان المظفر أحمد بن المؤيد شيخ المحمودي فلم يكن حظه أفضل من حظ سابقه ، بل كان نصيبه من السلطنة الحجر والتضيق والحبس حتى الموت ، أقيم في السلطنة عقب موت أبيه عام ٨٢٤هـ/١٤٢١م وتولى الأمير ططر أمير مجلس تدبير أمور المملكة ، ثم زاد طموحاً فتزوج من أم السلطان خوند سعادات زوجة المؤيد شيخ حتى يضع يده أكثر على السلطنة وأخذ ططر يدبر لخلع المظفر أحمد وسلطن نفسه في نفس العام ، وحبس السلطان في القلعة ، ثم نقل الملك المظفر مع أخيه الصغير إلى الإسكندرية ، فسجنا بها إلى أن مات بالطاعون عام ٨٣٣هـ/١٤٢٩م ، ثم نقل إلى القاهرة ودفن في تربة أبيه بالقبة التي بالجامع المؤيدي "وأفادته السلطنة الحول والحبس إلى أن توفي ، فكل هذا من سوء تدبير والده ، حيث جعل العهد في هذا الطفل" وكان المظفر أحمد قد أصيب بالحول عندما دقت الكوسات أثناء العهد إليه وكان يناهز من العمر سنة واحدة فقط.

وتقلد العزيز يوسف بن برسباي السلطنة بعد من أبيه عام ٨٤١هـ/١٤٨١م وظل بها قرابة المئة يوم إلى أن خلعه الأتابك جقمق العلائي بعد اضطرابات عدة وتقلد السلطنة ولقب بالظاهر ، وأسكن العزيز يوسف بقاعة البربرية بالقلعة ، وليس بالدور السلطانية ، غير أن العزيز خشي عاقبة الأمور فهرب من قاعة البربرية وكان بعض أتباعه قد زين له إنْ خرج فإنّ أتباع أبيه سيقومون معه واستمر فترة وهو هارب والظاهر جقمق في قلق شديد من هروبه وخشية من المماليك الأشرفية برسباي ، حتى ظفر به الأمير يلباي-الذي قلد السلطنة فيما بعد –وسر الظاهر سروراً عظيماً وقام بحبسه أياماً في قاعة العواميد بالقلعة عند زوجته خوّند البارزية ، ثم أرسله إلى الأسكندرية فسجن برج الأسكندرية مدة طويلة ، وأرسل معه ثلاث جواري لخدمته ، ورتب له في كل يوم ألف درهم من أوقاف أبيه.

ويعد الملك المنصور فخر الدين عثمان من السلاطين المماليك الذين اختلفت حياتهم الاجتماعية تماماً بعد خلعه من السلطنة ، وبالرغم من العقبات الكثيرة التي اعترضت حياته ، فقد تقلد السلطنة في حياة أبيه وأثناء مرضه عام ٨٥٧هـ/١٤٥٣م ، وكان له من العمر نحوا من تسع عشرة سنة وقد مارس الحياة السياسية في حياة والده ودرب على أمور السلطنة وتبعات الحكم ، فضلاً عن التبعات الاجتماعية التي كانت ملقاة على عاتقه أثناء حياة والده فكان يمارس كل هذه الأمور بصحبة والده ، فعلى سبيل المثال كان يخرج معه لأداء الصلوات ، وخاصة صلاة الجمعة بجامع الناصر محمد بن قلاوون بالقلعة ، وكان يتجمل في خروجه فيخرج بالكلفتاه والقماش ، ورسم له أبوه أن يشرف على الخدمة الشريفة في الدورية وذلك على عادة أولاد السلاطين.

وبالرغم من أن المؤيد أحمد بن الأشرف إينال قد لحقت به كثير من المحن بعد تقلده السلطنة عام ٨٦٥هـ/ ١٤٦٠م وعزله منها على يد الظاهر خشقدم الرومي بعد حوالي أربعة أشهر فقط من جلوسه على كرسي السلطنة ، إلا أن مظاهر حياته بعد ذلك استرعت الإنتباه حيث قضى بثغر الأسكندرية حياة شبه مختلفة عن بقية الملوك الذين لم يكن لهم حظ وافر من السلطنة ، وحاله في هذا كحال المنصور عثمان والعزيز يوسف.

وقد شغل المؤيد أحمد مناصب سياسية هامة في عهد الأشرف إينال فعمره في ذلك الوقت كان يؤهله للإعتماد على النفس ، وهو الذي حمل القبة والطير على رأس أبيه أثناء تقلده السلطنة ، وقلده والده أتابكية العساكر ، وسافر على رأس محمل الحج أمير حاج المحمل ومارس جملة من المعاملات الإدارية والإجتماعية ، فكل هذه الخبرة التي اكتسبها في حياة أبيه كانت تؤهله لتولي السلطنة باقتدار "وهو أهل لها" ، ويذكر أبو المحاسن أن حاله تبدل بعدما ولي السلطنة فكان في أيام والده له مساوئ كثيرة ولما جلس في دست السلطنة تبدل حاله تماما وأقبل على العدل وإرداع المفسدين "وكان دخوله السلطنة بحرمة وافرة لأن سنه كان نحو الثلاثين سنة يوم تسلطن" ويعتبر المؤيد أحمد هو الأوحد من أبناء السلاطين الذي تقلد السلطنة في هذا السن بخلاف غيره من أمثاله الذين كانوا حديثي السن عند توليهم المنصب.

وبالرغم من أن المؤيد أحمد بن إينال كان له أيام والده جماعة كثيرة من أعيان الأمراء الظاهرية والأشرفية والسيفية يصحبونه ويمشون في خدمته في الرمايات والأسفار "وإحسانه متصل إليهم من الإنعام والمساعدة في الأرزاق والوظائف" إلا أنهم لم يخرجوا لمساندته عندما خرج عليه العسكر وعلى رأسهم الأتابك خشقدم الرومي ، بل أنهم انضموا لخشقدم ضد المؤيد أحمد ، فما كان إلا أن سلم المؤيد أحمد باب السلسلة ودخل على والدته زينب ابنة البدري حسن بن خاص بك وزال ملكه وأرسل إليه خشقدم الرومي جماعة من العسكر قبضوا عليه من الدور السلطانية فسلم نفسه ، وأخرج إلى البحرة في الحوش السلطاني وحبس بها هو وأخوه الناصري محمد وخرجت إليهما والدتهما ومكثت معهما إلى أن رسم السلطان خشقدم بإرسالهم إلى سجن الأسكندرية ، ويعلق أبو المحاسن على ذلك الأمر بقوله "على قدر الصعود يكون الهبوط وكأن لسان حال أسكندرية قبل ذلك يقول كل ثان لابد له من ثالث ، فالأول فمن كان فيها من السلاطين الملك العزيز يوسف ابن الأشرف برسباي ، وقد خلعه الملك الظاهر جقمق

وقلد السلطنة مكانه ، ثم الملك المنصور عثمان ابن الملك الظاهر جقمق خلعه الأشرف إينال وتسلطن عوضه وهو الثاني ، فاحتاجت أسكندرية إلى ثالث ليجازى كل على فعله فكان المؤيد هذا ، خلعه الملك الظاهر خشقدم وتسلطن مكانه" وكأن أبا المحاسن استنطق الأسكندرية في هذا الحديث ، وفي هذا عبرة لمن تغرهم الدنيا وشهواتها ، ففُعل بأبنائهم ما فعلوه بأبناء الناس.

وفي عهد الأشرف قايتباي زاد السلطان الأشرف في إكرام المؤيد أحمد والإحسان إليه ، وصاهره الدوادار الكبير يشبك من مهدي على ابنته ، وعندما سافر الأشرف قايتباي إلى الأسكندرية زينت له المدينة زينة فاخرة وخرج إلى لقائه الملك المؤيد أحمد بن الأشرف إينال وهو بالشاش والقماش ، وحمل الأتابكي أزبك من ططخ القبة والطير على رأس السلطان والملك المؤيد أحمد والأمراء بين يديه أمام الأمراء وأعيان المباشرين وأرباب الدولة.

ولكن يبدو أن هؤلاء الذين كانوا سلاطين أبناء سلاطين قد قنعوا من الدنيا بما أخذوا وأحبوا العيش في أمان على أن يقدموا على أمر لا تحمد عواقبه ، وظل المؤيد أحمد يعيش حياته بالأسكندرية حتى وفاته عام ٨٩٣هـ/١٤٨٧م وكان عمره آنذاك فوق الخمسين سنة وقد أحضر جثمانه من الأسكندرية ودفن بقبر أبيه في القاهرة.

الأسياد (أبناء السلاطين) الذين لم يقلدوا السلطنة

تواجد الأسياد أبناء السلاطين الذين لم يقلدوا السلطنة في المجتمع المملوكي ومنذ العهود الأولى من قيام الدولة التركية ، وقد قلد هؤلاء مناصب في الدولة المملوكية ولكنهم كانوا دائما في الاعتبار الأول أبناء سلاطين (أسياد)، ومن هنا اكتسبوا أهميتهم ، وربما أن الأضواء لم تسلط عليهم تماما مثلما حدث مع إخوانهم الذين كان من نصيبهم الجلوس في دست السلطنة ، وربما أن البعض منهم أضير باعتبارهم أخوة لسلاطين.

والسلطان في التاريخ المملوكي كان يخشى المنافسة حتى من أقرب أقربائه ، وتعرض البعض منهم بالفعل للقتل من ذويهم والأمثلة على ذلك كثيرة بسبب الصراع على السلطة والمحافظة على كرسي السلطنة وأهم من فعل ذلك السلطان الناصر فرج بن برقوق عندما اتهم بقتل أخويه المنصور عبد العزيز وإبراهيم ابني الظاهر برقوق.

وعلى أية حال فإن حياة هؤلاء الأمراء أبناء السلاطين الاجتماعية كان يكتنفها بعض الغموض بسبب بعدهم عن الحياة السياسية والتي كانت دائما هي محور اهتمام مؤرخي ذلك العصر ، فلم نجد في كتب الحوليات التي تؤرخ للعصر المملوكي وهي متوفرة في المكتبة التاريخية المملوكية ما يمكننا من تسليط الضوء على حياة هؤلاء الأمراء ، وربما وجد النذر اليسير عنهم في كتب التراجم التي تؤرخ لتراجم الرجال ، إلا أننا لم نستطع حصر كافة أبناء السلاطين (الأسياد) لأسباب عدة منها من توفي منهم صغيراً فلم نجد إلا الإشارة عن اسمه ، ومن لم يكن له دور سياسي بارز ، فلم تطلعنا المصادر إلا عن القليل عن حياته ، وسبب هام آخر هو أن أهمية هؤلاء الأمراء تنبع من أهمية آبائهم ، فعلى سبيل المثال طغت أخبار بيت قلاوون وأبناء وأحفاد الناصر محمد علي أخبار أبناء العادل كتبغا أو المنصور لاجين أو المظفر بيبرس الجاشنكير ، وغير ذلك من الأمور التي تسطح المعلومة التاريخية حتى وإن وجدت ، ومن هنا حاولنا بذل الجهد لحصر أبناء السلاطين (الأسياد) بقدر المستطاع ، وخاصة الذين كان لهم دور في الحياة الاجتماعية بالعصر المملوكي ، وسنحاول خلال السطور التالية معرفة أوضاع هؤلاء الأمراء الاجتماعية وتفاعلهم داخل المجتمع المملوكي.

ومن الجدير بالملاحظة أن أبناء الظاهر بيبرس البندقداري هم أول من لقي اهتمام المؤرخين بالنظر في أحوالهم والتحدث عنهم ، فبعد وفاة السعيد بركة خان قرر العادل سلامش في السلطنة وظل المسعود نجم الدين خضر بالكرك ، وحاول الاحتفاظ بالكرك إلا أن المنصور قلاوون لم يسمح له بذلك ، وأرسل إليه الأمير بدر الدين بكتاش الفخري للإتفاق السلمي معهم إلا أنه لم يوافق على ما عرض عليه ، فأرسل له السلطان الأمير حسام الدين طرنطاي نائب السلطنة بجيش كثيف وأمره بمحاصرة الكرك ، وكان العادل سلامش قد خرج إلى أخيه في الكرك ، فارسل المسعود خضر إلى الأمير طرنطاي في طلب الأمان ، فأمنه السلطان وأنهى حصار الكرك وعاد الأمير حسام الدين طرنطاي وصحبته العادل سلامش والمسعود خضر إلى مصر ، وعندما قربا من قلعة الجبل ركب السلطان إليهما وتلقاهما وأكرم وفادتهما وأمّر كلا منهما إمرة مئة فارس.

مارس الأميران حياتهما العادية بالقاهرة فكانا يخرجان للصيد ويركبان مع السلطان إلى الميدان حتى إن البعض وصف معاملة المنصور قلاوون لهما بأنه "أنزلهما منزلة أولاده" ، إلى أن بلغه عنهما ما شوش خاطره عليهما فحدد إقامتهما ببرج من أبراج القلعة ، وظلا كذلك حتى عهد الأشرف خليل ، الذي فضل إبعادهما عن القاهرة نهائياً فقام بنفيهما إلى القسطنطينية ومعهما والدتيهما وقام بتسفيرهم للأمبراطور البيزنطي الأمير عز الدين أيبك الموصلي أستادار السلطان فلقيهما الإمبراطور بإحسان تام ورتب لهما ما يعزز مكانتهم ، وظلا بالقسطنطينية إلى أن مات العادل سلامش فعادت به والدته مصبراً إلى مصر ودفن بها وعندما تقلد المنصور لاجين السلطنة أذن للمسعود خضر بالعودة إلى القاهرة فعاد عام ٦٩٧هـ/١٢٩٧م وخرج لأداء فريضة الحج في عام ٦٩٨هـ/١٢٩٨م ، وبالرغم من عودته إلا أنه عاد محددة إقامته في برج من أبراج القلعة ، ثم أفرج عنه الناصر محمد بن قلاوون عام ٧٠٨هـ/١٣٠٨م فنزل القاهرة وسكن دار الأفرم بمصر ولكن الأيام لم تمهله طويلاً وتوفي بعد قليل على فراشه ويقال أنه سُقِي سمٌ ومات عام ٧٠٨هـ/١٣٠٨م.

ومن ذكرت أخباره الأمير أنس (ويقال آنص) بن العادل زين الدين كتبغا ، ولقب هذا الأمير بالمجاهد ، وكان من الأمراء المماليك في عهد الأشرف خليل بن قلاوون ، وشهد مع السلطان حصار عكا وأبلى فيه بلاءاً حسناً حتى أصيبت عينه ، وكان من الأمراء المشهود لهم بالفروسية والرمي بالقوس ، وبعد وفاة والده حاول الأمراء أن يقلدوه السلطنة غير أنه رفض وقال "هذا يعمل موتي وأنا لا أبصر" لأن عينه الأولى فقدت في عكا والثانية خف ضوءها ، وقد حفظ له المنصور لاجين رفضه للسلطنة فأكرمه وانزله في بيت أبيه ، وعاش حياة كريمة في ظل دولة الناصر محمد بن قلاوون فقد كان الناصر يجله ويعظمه ويقوم إليه ويجلسه بجانبه إذا حضر إليه ، وكان يقول "ما أحسن إليّ أحد بعد موت أبي مثل ما أحسن إليّ آنس" وكان إذا ما رأي أحداً من إخوته يسئ الأدب مع الناصر عندما كان كتبغا ممسكا بزمام دولته إلا زجره ونهاه وكان يتأدب مع الناصر.

وبالرغم من عدم إبصاره إلا أنه كان يخرج إلى الصيد ولا يشعر أحد أنه أعمى ، فكان يرسل الجارح من الصقور البازات ويسوق الفرس تحته ، توفي عام ٧٢٣هـ/١٣٢٣م ، وعند وفاته أكرم الناصر محمد

أولاده وترك لهم أوقافهم وقد باع ورثته دار كتبغا المشهورة لأم آنوك بمئة وعشرين ألف دينار.

وقد استطعنا الحصول على تراجم لبعض أبناء الناصر محمد بن قلاوون الذين لم يقلدوا السلطنة والبعض لم نحصل لهم على ترجمات ، فمن أبنائه الأمير على بن محمد بن قلاوون ، وترجمة هذا الأمير مختصرة جدا في الدرر ولم يذكر عنه إلا أنه كان مع والده في الكرك عندما كان مقيما بها بعد خلعه من سلطنته الثانية ، ولم يكن للناصر آنذاك ولدٌ غيره ، ومن هنا اكتسب محبة والده ، قدم على والده إلى القاهرة في سلطنته الثالثة ولكن قدر الله أن يتوفى ووالده خارج للصيد عام ٧١٠هـ/١٣١٠م وعفى أثره.

ومن أولاد الناصر أيضاً الأمير رمضان كان شاباً حسن المنظر ، حاول بعض مماليك أبيه تقليده السلطنة ، والتف حوله جماعة منهم وخرجوا به إلى قبة النصر فلم يخرج إليهم أمير كبير من الأمراء حتى يقوى أمره ، وخرج إليه جنود الصالح إسماعيل ، ولحقوا به وهو في طريقه إلى أخيه الناصر أحمد بالكرك فقبض عليه ، ومات عام ٧٤٣هـ/١٣٤٢م وهي السنة التي قلد فيها الصالح إسماعيل السلطنة ، ولم يصرح هل مات هذا الأمير بقضاء الله وقدره؟. أم دس عليه من أراح السلطان منه فلم ترد أية إشارات في المصادر عن مصيره.

والأمير الأمجد حسين بن الناصر محمد فهو آخر أبناء الناصر وفاة ، وقد حاول المماليك الجراكسة إقامته سلطاناً ، إلا أن السلطان حسن فطن إلى ذلك وحال دون حدوث ذلك الأمر ، وقد رشح للسلطنة أكثر من مرة ولم يفلح أمره ، وقلد ابنه الأشرف شعبان السلطنة ، وتوفي في عام ٧٦٤هـ/١٣٦٢م.

أما أحفاد الناصر محمد فهم جملة كثيرة من الأحفاد نذكر منهم ما استطعنا الحصول على ترجماتهم من خلال المصادر ، فقد ترك السلطان الناصر حسن بن الناصر محمد عشرة أولاد ذكور وهم أحمد وقاسم وعلى وأسكندر وشعبان ، وإسماعيل ويحي وموسى ، ويوسف ، ومحمد وست بنات. وكان الأمير شهاب الدين أحمد أسن أولاد الملك الناصر حسن وأكبر إخوته العشرة ، أقام بقلعة الجبل ، "كالمحبوس بها على عادة أولاد السلاطين" فكانت العادة إقامة أولاد سلاطين مصر وذرياتهم بالقلعة ، ولا يتجاوز أحدهم باب القلعة ، وقد عين للسلطنة مرة لكن لم يتم أمره ، وتوفي بالحوش السلطاني بمجلسه بالقلعة عام ٧٨٨هـ/١٣٨٦م ودفن بمدرسة أبيه السلطان حسن.

ومن أولاد السلطان الناصر حسن الأمير إسماعيل ، كان مقيماً كذلك بقلعة الجبل وقلد إمرة في عهد ابن عمه الأشرف شعبان بن حسين واختص به ، ثم تقدم عند الظاهر برقوق وصار من ندماء مجلسه ، توفي عام ٧٩٩هـ/١٣٩٦م ، وذكر أيضا من أبناء الناصر حسن الأمير يحي الذي توفي عام ٧٨٦هـ/١٣٨٤م ذكر وفاته المقريزي في خبر مقتضب ، ولم نجد له ترجمة في الدرر ولا المنهل الصافي.

ومن أحفاد الناصر محمد أبناء الأمجد حسين ، الأمير آنوك بن حسين وهو أخو الملك الاشرف شعبان وقد لقب هذا الأمير بسلطان الجزيرة لأن يلبغا الخاصكي عندما انقلب عليه مماليكه وهو على بر الجزيرة وانضمامهم إلى الأشرف شعبان ، فعبر يلبغا إلى جزيرة أروى ، واستقر بالجزيرة الوسطانية والأشرف شعبان ببولاق التكروري وعظم أمر الأشرف شعبان بعد انضمام مماليك يلبغا إليه ، فأنزل يلبغا الأمير آنوك ابن الأمجد حسين من الدور السلطانية بالقلعة وسلطنة ولقبه بالملك المنصور وخلع الأشرف شعبان ، وآل أمر يلبغا إلى القتل بعد القبض عليه ، وعندما انتهى الأمر رسم الأشرف شعبان لأخيه آنوك بأن يقيم على حاله التي كان عليها أولا ، ثم أنعم عليه بإمرة طبلخاناة ، وبعد مقتل الأشرف شعبان أخذت منه الإمرة واستمر بطالا بقلعة الجبل ، حتى توفي عام ٧٩٣هـ/١٣٩٠م ، وذكر أحد أولاد الأسياد لأبي المحاسن أنه كان حشما متواضعا ، كريم النفس ، إلا أنه كان يغضب من قولهم سلطان الجزيرة.

أما السلطان الأشرف شعبان فقد ترك من الأبناء ستة ذكور وهم المنصور علي والملك الصالح أمير حاجي- وهذان قلدا السلطنة بعد والدهما – وقاسم ومحمد وإسماعيل وأبوبكر ، وأنجبت بعده خوند سمراء ولداً أسموه أحمد ، وترك كذلك سبع بنات أما أولاده الأخرين فجاءت أخبارهم مقتضبة بالمصادر المملوكية فكانت عبارة عن إعلام بسنوات وفاتهم فقط ، وكأنهم كانوا يعيشون محبوسين في القلعة بدون أي مشاركات إجتماعية ، فالأمير أسماعيل ابن الأشرف شعبان ظل مقيما بقلعة الجبل حتى توفي عام ٧٩٧هـ/١٣٩٤م عن عمر يناهز خمسة وعشرين عاماً ، والأمير قاسم بن الملك الأشرف ، والذي ذكره الصيرفي بلقب سيدي قاسم فقد توفي في عام ٨٠١هـ/١٣٩٨م ودفن بمدرسة جدته بالتبانة ، والأمير أبو بكر بن الأشرف شعبان فقد توفي عام ٨٠٣هـ/١٤٠٠م ولم يذكر المقريزي مكان دفنه.

وبعد فأبناء السلاطين من الأسياد ، كانت كما ذكرنا سكنا هم بالقلعة حيث الدور السلطانية ، ووصل عدد الأسياد من بني قلاوون في قلعة الجبل إلى ست مئة نفس أخذ الموت منهم أمراء كثيرين ، وظل المتبقي منه على ما هم عليه ، حتى أن أبناء السلاطين الجراكسة كانوا على نفس العادة ، عندما يتوفى سلطان يظل أبناؤه في الدور السلطانية بالقلعة ، حتى عهد الأشرف برسباي وفي عام ٨٣٦هـ/١٤٣٧م أصدر الأشرف مرسوماً يقضي بعدم سكنى أولاد الملوك (الأسياد) من ذرية الناصر محمد بن قلاوون قلعة الجبل والطلوع إليها والإقامة بها ، فأخرجوا منها ، وقد أضر هذا المرسوم بذرية الناصر محمد ، " وصل لهم الذل الشنيع بعد العز الرفيع" وتفرقوا في أماكن القاهرة وأخذتهم الدهشة والعجب من العمائر والأسواق. وتهتك بعضهم في المتنزهات وافتقر كثير منهم ، وفسد حالهم والبعض باع أرزاقه ، وأخذ يدور في الأسواق راجلاً ، وتعانى بعضهم الطرب والغناء ، والبعض الآخر اشترى جواري يحسن أنواع الطرب وأخذ يتردد بهن على الناس ، ولو أنهم ظلوا بالقلعة ما حدث لهم مثل هذه الأمور الشنيعة المستقبحة ، وعلق أبو المحاسن على فعل الأشرف برسباي بهم ذلك "فكان كما يقول القائل".

"رام نفعا فضر من غير قصد   ومن البر ما يكون عقوقا"

واشترك عدد من المؤرخين مع أبي المحاسن في رأيه حيث ذكروا أن الجزاء من جنس العمل ، لأن الناصر محمد فعل بأولاد الملوك من بني أيوب كذلك ، وفعل الله بهم ذلك لأن أباهم الملك الكامل محمد الأيوبي فعل كذلك بأولاد الخلفاء الفاطميين فكما تدين تدان.

وعادة كان يلقى أبناء السلاطين (الأسياد) معاملة طيبة من السلاطين في القلعة طالما أن الأوضاع السياسية مستقرة ، ولكن إذا كان هناك ما يعكر صفوها فربما يلقى هؤلاء الأمراء بعض التضييق عليهم مثلما حدث في عهد الأشرف شعبان بن حسين عندما أراد الخروج إلى الحج خشي ترك إخوته وأبناء عمومته بالقلعة فأمر بإرسالهم جميعا إلى الكرك وحبسهم هناك بنسائهم وأبنائهم ، وكان الوقت شتاءً بارداً فتألم الناس من إخراجهم على هذه الصورة في حين أنه أبقى

أولاده بالقلعة وأمر نائب الغيبة وغيره من الأمراء أن يطلعوا في كل يوم ساعة إلى القلعة ويخرج الأسياد أولاد الأشرف شعبان وأكبرهم الأمير علي بن شعبان فيقوم الأمراء بتقبيل أيديهم ويجلسون ساعة ثم يعود كل إلى محله وبعدما خرج الأمراء مع الأشرف شعبان ، قالوا بعزله وتولية ابنه المنصور علي ، عاد الاسياد من ذرية الناصر محمد مرة أخرى إلى قلعة الجبل ، وكان الأشرف أخرج منهم الملك المنصور محمد بن حاجي بن الناصر محمد ، وأولاد الناصر حسن وهم أحمد وقاسم وعلي وإسكندر وموسى وإسماعيل ويوسف ويحي وشعبان ومحمد ، وأولاد حسين بن الناصر محمد وهم آنوك وأحمد وإبراهيم وجانبك ومحمد بن الصالح صالح بن الناصر محمد ، وقاسم ابن أمير علي بن يوسف ، عادوا بحريمهم وأولادهم إلى قلعة الجبل ليلا ونزلوا بدورهم كما كانوا فيها من قبل.

وفي العصر المملوكي الثاني كان أبناء السلطان الظاهر برقوق هم أول الأسياد في ذلك العصر ، فكان له خمسة أبناء توفي اثنان منهم في حياته وهما ، الأمير ناصر الدين إبراهيم ولد وأبوه مازال في الأتابكية عام ٧٨٢هـ/١٣٨٠م ، وأغدق عليه السلطان -الذي لم يكن له من الأمر شئ – العطايا فأعطاه إقطاع الأمير بركة وهو ابن شهر واحد ، وزاد فأعطاه إقطاعات أخرى عرفت فيما بعد باسم ديوان المفرد ، مرض ناصر الدين إبراهيم بداء أصاب قدميه فأعيا الأطباء ومات عام ٧٩٧هـ/١٣٩٤م وهو أكبر أبناء السلطان ، ودفن في التربة الظاهرية ببين القصرين ، وحزن عليه أبوه حزناً شديداً ، والأمير شعبان بن الظاهر توفي وهو طفل صغير عام ٧٩٩هـ/١٣٩٦م ، وتوفي الظاهر برقوق وترك ثلاثة من الأولاد أكبرهم الناصر فرج الذي قلد السلطة من بعده ، والمنصور عبد العزيز وأخاهم الثالث إبراهيم والأخيرين ماتا في عهد الناصر فرج بالطريقة التي ذكرنا من قبل.

أنجب السلطان الأشرف برسباي ثلاثة أولاد ، توفي واحد منهم في حياته وهو الأمير ناصر الدين محمد بن برسباي ، وقد ترقى في حياة والده إلى أمير مئة ومقدم ألف وكان القاضي جلال الدين محمد بن زهر يعمل في توقيعه وكان للأمير ناصر الدين رواجاً اجتماعياً ، فقد كان المرشح للسلطنة بعد أبيه وكثيراً ما خرج للصيد ، وكسر الخليج وفتح السد ، ومارس كثير من المهام التي تناط بعمل ابن السلطان الأكبر وتعتبر من اختصاصه ، توفي الأمير ناصر الدين محمد في عام ٨٣٣هـ/١٤٢٩م ودفن بمدرسة أبيه الأشرفية بالعنبرين بالقاهرة.

أما الابن الثاني للظاهر جقمق فهو الأمير أحمد توفي عام ٨٥٣هـ/١٤٤٩م عن سبع سنوات وأمُّه خوند شاه زاده بنت صاحب بلاد الروم ، وكذلك توفي للظاهر ثلاثة ذكور صغار السن غير من سبقت الإشارة إليهما. وكان للأشرف إينال العلائي ولد آخر غير المؤيد أحمد ، وهو الأمير ناصر الدين محمد ، وقد حمل مع المؤيد أحمد إلى سجن الأسكندرية ، وكان الأمير ناصر الدين محمد في حياة أبيه أمير مئة ومقدم ألف ، وصف بالعقل والحشمة والرئاسة ، ظل بسجن الأسكندرية حتى توفي عام ٨٦٦هـ/١٤٦١م ونقل جثمانه إلى القاهرة ودفن على أبيه في مقبرته. هذا وقد أشارت بعض المصادر إلى ابن للسلطان الظاهر خشقدم الرومي لقبه ابن إياس بسيدي منصور وكان الأمير منصور يصعد إلى القلعة في عهد الأشرف إينال لتهنئة السلطان بالعيد ، وكان السلطان يقابله ببشاشة ويجلسه معه على الكرسي ، وبلغ عمره في عهد الأشرف إينال دون العشر سنوات.

أما السلطان الأشرف قايتباي فقد توفي له في حياته ولد وهو الأمير أحمد وهو أول أولاده ، وكانت والدته بنت العلاء علي بن خاص بك ، وأطلق عليها خوند الخاصبكية ، توفي وله من العمر أربع سنوات. وآخر سلاطين المماليك السلطان الأشرف قانصوه الغوري كان له ثلاثة أولاد ذكور توفي في حياته ابنه المقر الناصري ناصر الدين محمد ولاه والده شادية الشراب خاناة ، "كان شاباً جميل الصورة مليح الشكل بهي المنظر" توفي وله من العمر ثلاث عشرة سنة وصلى عليه الأمراء والسلطان الجمعة وحمل إلى مدرسة أبيه فدفن داخل القبة ، وكانت له جنازة حافلة وترك الأشرف قانصوه الغوري ولداً واحداً وأطلق عليه محمد أيضا وظل محمد في مصر بعد وفاة الأشرف في موقعة مرج دابق إلى أن استولى السلطان سليم على مصر فأخذه معه إلى إسطنبول في بلاد الروم.

الخوندات بنات السلاطين

رأينا أن أولاد السلاطين (الأسياد) فقد توافرت نسبياً أخبارهم في المصادر المملوكية سواء في العصر المملوكي الأول أو الثاني ، أما الخوندات بنات السلاطين فقد أجملت أخبارهم ، ولم تأت أخبارهم في المصادر إلا بعبارات مختصرة صغيرة وخاصة في العصر المملوكي الأول ، وهذه الأخبار تأتي في سياق الحديث عن سلطان ومن تركهم من الأبناء ،فيعدد الأبناء الذكور وتجمل أخبار الإناث كقولهم وترك "سبع بنات" أو "ست بنات" ، أو لربما جاءت عنهم نصوص أخرى على سبيل التعريف بترجمة سلطان ما وذلك مثل الخبر الذي ذكر عن السلطان محمد بن قلاوون في سياق ترجمته فذكر المقريزي أنه "جهز إحدى عشرة إبنة له بالجهاز العظيم ، فكان أقلهن جهازا بثمانمائة ألف دينار" وقوله أيضاً "وزوجهن من مماليكه مثل الأمير قوصون والأمير بشتاك والأمير الطنبغا المارديني ، والأمير طغاي تمر ، والأمير عمر بن النائب وغيرهم" وربما جاء ذكر أخبارهن من قبيل الأعلام بوفاة أحد الخوندات من بنات السلاطين ، وجاءت مثل هذه الأخبار بوفرة في المصادر المملوكية غير أنها كانت في العصر المملوكي الثاني أكثر منها في العصر الأول.

ومن نافلة القول أن نذكر أنه ربما كان سبب عدم التصريح بأخبار الخوندات بنات السلاطين راجعا لما كانت تحتله المرأة من مكانة عزيزة فلا يصرح باسمها ، حتى عندما كان يذكر عن إحداهن شئ يقال في وصفهن السيدة "المصونة المحجبة ذات المقام الرفيع" إلى آخره من الأوصاف التي تدلنا على مدى قدرهن واحترامهن في المجتمع المملوكي ، وهذا أيضا يدل على أن أخبار المرأة لم تكن مادة للتداول إلا في القليل النادر أو إذا وجد خبر لابد من ذكره ولا يمكن تجاهله مثل الحوادث المؤثرة في سير الأحداث السياسية كقيام خوند بركة بتربية الأشرف شعبان وإعداده للسلطنة ، وأن يكون لإحداهن عمل إجتماعي بارز فيقوم المؤرخون بذكر أخبارهن دون التردد في ذلك والأمثلة على ذلك كثيرة.

هذا وقد ترك الأشرف خليل بن قلاوون ابنتين ، ولم يترك ولداً ذكراً ولم نعثر على أية تفاصيل عن هاتين البنتين أما السلطان الناصر محمد بن قلاوون فكان له من البنات إحدى عشرة إبنة ، توفي ومنهن سبع بنات على قيد الحياة وذكر المقريزي منهن دون التصريح بأسمائهن خوند توفيت عام ٧٤٥هـ/١٣٤٤م وهي زوجة الأمير طاز وقال أنها "تركت مالاً عظيماً ، أبيع موجودها بباب القلة من القلعة بخمسمائة ألف درهم" ، وتوفيت للسلطان الناصر ابنة تعرف بخوند

التنكزية ابنته من زوجته ابنة الأمير تنكز نائب الشام عام ٨٠٣هـ/١٤٠٠م وكانت متزوجة من الأمير تنكز بغا هذا وقد صرح ابن حجر العسقلاني ومعه المقريزي هذه المرة باسم خوند عائشة ابنة الناصر محمد والتي تعرف بخوند القردمية، والتي كان يضرب المثل "بكثرة أموالها فلم تزل تسعى في إتلافها إلى أن ماتت على مخدة من ليف" عام ٧٩٨هـ/١٣٩٥م ولم نعثر على أية معلومات أخرى تفيدنا في التعرف على بقية بنات الناصر محمد بن قلاوون.

ومن حفيدات السلطان الناصر محمد ابن قلاوون بنات الأمير الأمجد حسين بن الناصر محمد خوند سارة زوجة الأمير منكلي بغا الشمسي الأتابك، وكذلك خوند شقراء ابنة الأمجد حسين وأخت الأشرف شعبان ماتت عام ٨٠٤هـ/١٤٠١م ودفنت بمدرسة أم السلطان خوند بركة بالتبانة خارج القاهرة، أما الأشرف شعبان فقد ذكرت المصادر أنه ترك من البنات سبع واستطعنا العصور على اثنتين منهن خوند فاطمة ابنة الأشرف شعبان زوج الأمير منكلي بغا، وخوند خديجة "وهي آخر أولاد الأشرف من النساء وفاة وكانت توصف بعقل ورياسة".

ومن الخوندات بنات السلاطين في العصر المملوكي الثاني، خوند سارة ابنة الظاهر برقوق وقد تزوج بها الأمير نوروز الحافظي وماتت في عام ٨١٦هـ/١٤١٣م بطريق دمشق وخوند عائشة ابنة الظاهر برقوق والتي توفيت عام ٨١٩هـ/١٤١٦م، وخوند زينب وهي التي وصفت بالجمال تزوجت بعد وفاة أبيها، وكان من أزواجها المؤيد شيخ المحمودي فكانت ابنة سلطان وزوجة سلطان وأخت سلطان، وتوفي المؤيد وهي في عصمته، ثم تزوجت بعده وماتت في عام ٨٢٦هـ/١٤٢٢م ودفنت بمقبرة أبيها وهي آخر أولاد الظاهر لصلبه وفاة وكانت "أرأس أخواتها".

هذا وقد ذكر السخاوي ثلاث بنات للناصر فرج بن برقوق إحداهن تدعى آسية ماتت بلا زواج والثانية خوند ستيته زوجة الأمير الصارمي إبراهيم ابن المؤيد شيخ توفيت عام ٨١٩هـ/١٤١٦م ودفنت بمقبرة أبيها بقبة النصر، والثالثة زوجة قرقماش حاجب الحجاب توفيت عام ٨٣٠هـ/١٤٢٦م ودفنت كذلك بمقبرة أبيها وقد عثرنا على ابنتين للسلطان الظاهر ططر الأولى خوند ست الملوك زوجة الأتابكي يشبك السودوني وكانت من خيار الخوندات وأمها خوند ابنة سودون الفقيه ووصفها أبو المحاسن "أنها من بيت دين وعفة" والثانية خوند فاطمة زوج الأشرف برسباي وكانت غاية في البذل والكرم عظمت في دولة زوجها الأشرف وكانت تماثل خوند زينب ابنة الظاهر برقوق في كونها ابنة سلطان وأخت سلطان وزوجة سلطان، وعندما مات الأشرف نزلت من القلعة وسكنت بباب سر المارستان وكان لها ثروة كبيرة من جواهر وقماش فبذّرت وتصرفت تصرفاً سيئاً، وكان لها متحصل من جوامك ورزق ولكنها ماتت وهي في فاقة، وقد جاوزت الستين عاما وتركت عليها جملة ديون وتوفيت في عام ٨٧٤هـ/١٤٦٩م، ودفنت على والدها عند ضريح الإمام الليث.

وخلال البحث في مصادر التاريخ المملوكي وجدنا ابنتين للأشرف إينال العلائي هما خوند بدرية ابنة الأشرف زوجة الأمير بردبك وقد توفيت عام ٨٧٩هـ/١٤٧٤م وأختها خوند فاطمة هي أصغر منها وقد تزوج بها الأمير يونس الدوادار الكبير أما الملك المؤيد أحمد بن الأشرف إينال فذكرت المصادر أن له ثلاث بنات الأولى توفيت ٨٧٩هت/١٤٧٤م وكانت مقيمة عند أبيها في حبس الأسكندرية وتوفيت قبل الزواج، والثانية لم يذكر أيضا اسمها وتوفيت عام ٨٨٢هـ/١٤٧٧م، أما الثالثة خوند فاطمة زوجة الأمير الكبير يشبك من مهدي الدوادار، قاست كثيراً من المرض حتى توفيت عام ٨٨٢هـ/١٤٧٧م ودفنت بمقبرة زوجها.

المصاهرات وأهميتها لأولاد الناس

من المعروف أن المماليك عاشوا طبقة أرستقراطية يحكمون البلاد ويتمتعون بالجزء الأكبر من خيراتها دون أن يحاولوا الإمتزاج بأهلها، فلم يتزوجوا منهم واختاروا زوجاتهم وجواريهم من بنات جنسهم اللاتي جلبهن التجار، ولا شك أن عدم التقارب من الأهلين بهذه الطريقة أوجد فجوة عميقة بين الحاكم والمحكوم، بين المماليك الطبقة الحاكمة من المماليك، والمصريين في المجتمع المصري، ومن شدة محافظة السلاطين على هذا الوضع رسموا للقضاة والشهود ألا يعقدوا قران مملوك من مماليك السلطان إلا بإذنه، وشددوا العقوبة والتحذير للناس من انتقال مملوك من المماليك عن طريق البيع إلى كاتب أو عامي، غير أن هذا النظام حدث به بعض الخلل وخاصة مع طول الفترة التي عاش فيها المماليك بين الناس بعدما سمح لهم السلطان برقوق بالسكنى بالقاهرة ونزولهم من الطباق "ونكحوا نساء المدينة".

ومن هنا جاءت أهمية المصاهرة بالنسبة لسلاطين المماليك والأمراء على حد سواء، فنجد السلاطين يحرصون على تزويج بناتهم من أكابر الأمراء في دولهم ويختارون لأبنائهم زوجات من بنات أمراء المماليك، فقام السلطان الناصر محمد ابن قلاوون بتزويج بناته من مماليكه وأبنائهم، وتعدى الأمر حتى لسراريه وجواريه فقد حرص على زواجهن من أمرائه وأخصائه، وأغلب هذه المصاهرات التي كانت تقوم بين الأمراء وبنات السلاطين أو العكس كانت ناتجة عن أسباب سياسية فالسلطان يريد أن يقوي بمصاهرة هؤلاء الأمراء، أو أنه يخشى غائلة بعضهم فتكون المصاهرة سبباً في عدم خروجه على السلطان، وجاءت بعض النصوص تؤكد على مثل هذا المعنى، عندما عقد السلطان الناصر فرج للأمير سودون الحمزاوي على أخته خوند زينب بنت الظاهر برقوق وعمرها ثماني سنوات، فأصبح أخوات السلطان الثلاث "كل واحدة مع أمير من أمرائه، فخوند سارة زوجة الأمير نوروز الحافظي وخوند بيرم زوجة الأمير إينال باي بن قجماس وخوند زينب وهي أصغرهن على سودون الحمزاوي" فبالرغم من صغر سن العروس إلا أن المصلحة اقتضت ذلك، وحدث أمر مشابه مع ابنة الناصر فرج نفسه وهي خوند ستيته زوج الأمير بكتمر جلق تزوجها الأمير ومات عنها فتزوجت بعده الأمير صارم الدين إبراهيم ابن المؤيد شيخ "ودخل بها فوجدها بكراً" وهذا دلالة على أن الزيجة الأولى لهذه الخوند لم تكن إلا من قبيل الزيجات السياسية بين السلاطين وأمرائهم، أما السلطان المؤيد شيخ فقد زوج ابنة له عمرها يناهز التسع سنوات فقط للأمير "طوغان الدوادار لمصلحة رأها مولانا المؤيد"، والنص هنا غني عن التعليق.

غير أننا سنجد أن الأمور اختلفت نسبياً مع أولاد الناس فسنرى خلال السطور القادمة كيف أن البعض منهم صاهر أفراد الشعب المصري ويظهر ذلك في أكثر من مثل سوف نسوقه في هذا المضمار.

مصاهرات السلاطين للأمراء المماليك

أخذت مصاهرات السلاطين للأمراء المماليك مظهراً إجتماعياً خاصاً بطبقة المماليك، فقد صاهر السلاطين الأمراء على بناتهم وأصبحن خوندات زوجات سلاطين ومنهن من حظيت عند السلاطين وأصبحت خوند قاعة وكانت هذه الظاهرة ممتدة منذ أوائل العصر المملوكي وحتى نهايته بعهديه التركي والجركسي.

ففي بدايات الدولة المملوكية وجدنا السلطان الظاهر بيبرس يحاول أن يعضد سلطان ابنه الملك السعيد ناصر الدين محمد بركة خان بمصاهرته للأمير سيف الدين قلاوون الصالحي الألفي على ابنته غازيه خاتون وعُقد النكاح بالأيوان من قلعة الجبل على صداق بلغ خمسة آلاف دينار المعجل منه ألفا دينار، وهكذا حاول بيبرس أن يحفظ العرش من بعده لإبنه الملك السعيد بركة بمصاهرته للأمير سيف الدين قلاوون، وذلك لأنه ظن أن قلاوون لن يطمع فيما بيد زوج ابنته، ولكننا وجدنا أن أطماع أمراء المماليك غلبت على ذلك الأمر وكانت أقوى من روابط المصاهرة حتى أقوى من روابط الخشداشية والتي تعتبر أقوى رابطة بين الأمراء المماليك، وآل الأمر إلى انتزاع قلاوون السلطنة من أبناء الظاهر بيبرس.

هذا وقد صاهر السلطان الكامل شعبان الأمير طقزدمر كذلك، ولم توضح لنا المصادر هل هي خوند زوجة السلطان الصالح إسماعيل أم أن هذه ابنة غيرها للأمير طقزدمر هذا ومن المصاهرات الغريبة التي حدثت في العصر المملوكي الأول وفي أحداث فتنة منطاش ويلبغا الناصري على السلطان برقوق، وعند تواجد السلطان المنصور أمير حاج بن شعبان بالريدانية في أثناء محاولاتهم رد السلطان برقوق بجيشه القادم من بلاد الشام، طلب السلطان قضاة القضاة الأربع بالريدانية، فجلسوا طوال النهار إلى أن قابلهم السلطان، وطلب منهم عقد عقده على خوند ابنة الأمير أحمد بن السلطان حسن، ولا نجد سبباً نعزي إليه هذه الزيجة الغريبة التي تقع والاحوال مضطربة وتكاد الأرض أن تميد من تحت أقدام السلطان وينتزع منه العرش، فما كان منه إلا الإقدام على الزواج من ابنة ابن عمه الأمير أحمد بن الناصر حسن.

وقد تزوج السلطان الظاهر برقوق من الخوندات بنات الأمراء المماليك اثنتين خوند هاجر ابنة الأمير منكلي بغا الشمسي وهي حفيدة الأشرف شعبان لأمها، وكانت تعرف باسم خوند الكعكيين لسكناها بخط الكعكيين بالقاهرة، وكانت من "أعظم نساء العصر رئاسة وعراقة" في بنات الناس وخوندات السلاطين عقد السلطان عليها عام ٧٨٨هـ/١٣٨٦م وكانت من خواص نسائه، وهي آخر نسائه موتاً ولم ينجب السلطان منها أولادا توفيت عام ٨٣٣هـ/١٤٢٩م أما المصاهرة الثانية للسلطان الظاهر برقوق للأمراء المماليك على بناتهن مصاهرته للأمير منجك على ابنته خوند فاطمة، وقد جهز لها جهازاً حافلاً حمله ثلاث مئة حمّال ونرى من خلال هذه النصوص أن السلطان الظاهر صاهر اثنين من أهم أمراء الدولة المملوكية في ذلك الوقت.

هذا ونجد السلطان المؤيد شيخ قد صاهر بيت السلطان برقوق عندما تزوج بابنة الظاهر خوند زينب وظلت بعصمته إلى أن مات عنها، وبالرغم من أن السلطان المؤيد شيخ هو الذي استقل بالحكم من أخيها السلطان الناصر فرج، وتزوج كذلك المؤيد شيخ ابنة الأمير تنم الحسني وكان آنذاك نائبا للشام.

ونرى أن رعاية السلطان الأشرف برسباي للصالح محمد بن ططر ليس فقط نابعة من كونه ابن السلطان الظاهر ططر وإنما كان هناك سبب آخر وهو مصاهرته للصالح محمد على أخته خوند فاطمة ابنة السلطان الظاهر ططر، وهي من "الخوندات المعظمات في دولة الأشرف" وهنا نجد أن السلطان الاشرف رسم بعد موت الصالح محمد لأبناء السلاطين (الأسياد) الذين كانوا بالقلعة داخل دور الحريم بأن ينزلوا إلى القاهرة ويسكنوا بها.

ومن اللافت للنظر أن بيت الأمير علاء الدين على بن خاص بك من البيوتات التي زاعت شهرتها خلال العصر المملوكي الثاني فقد صاهر هذا البيت أكثر من سلطان أولهم السلطان الاشرف قايتباي فقد تزوج بخوند فاطمة ابنة العلاء علي وقد سميت بخوند الخاصبكية، وظلت صاحبة القاعة نحوا من ثلاثين سنة "وهي من مشاهير الخوندات"، ولم يتزوج الأشرف قايتباي غيرها طوال حياته، وتزوجت بعد الأشرف قايتباي بالسلطان العادل طومان باي فعادت إلى القلعة في موكب مهيب من الأمراء ورؤوس النوب والحجاب والخاصكية وغيرهم، ويقال أن هذه الخوند تزوجت سرّاً وقبل العادل طومان باي بالأشرف قانصوه خمسمائة.

ومن الممكن في هذا المجال ذكر مصاهرة السلطان الظاهر قانصوه خمسمائة من ابنة الأمير أزبك من ططخ، وبالرغم من أن الظاهر قانصوه لم يمكث في السلطنة وبعض المؤرخين لم يعتبره من سلاطين الدولة، ولم يضعوه على قائمة السلاطين الذين صاهروا كبار أمراء الدولة المملوكية.

مصاهرات الأمراء للسلاطين

انتشرت بكثرة مصاهرة الأمراء المماليك لسلاطين الدولة المملوكية، وربما أن الأسباب نفسها التي ذكرت كانت تزكي مثل هذه المصاهرات، وربما فرضت هذه الزيجات فرضاً، أو تكون برغبة كاملة من قبل السلاطين حيث يختارون لبناتهم أزواج على قدر من الأهمية في الدولة، وخاصة إذا ما عرفوا قيمة هذا الأمير المملوكي وقوة شوكته.

ويأتي السلطان الناصر محمد بن قلاوون في صدارة هؤلاء السلاطين الذين أرادوا لبناتهم زيجات على قدر من الأهمية، فزوجهم من أهم أمراء دولته، وبالرغم من أن السلطان الناصر محمد كان مرهوب الجانب من كل المماليك، وخاصة من قبل الأمراء المقربين منه، إلا أننا نراه يقوم بتزويج أهم هؤلاء الأمراء من بناته فكان "أن جهز إحدى عشرة ابنة له وزوجهن من مماليكه"، فصاهر من الأمراء المماليك وممن ذكرتهم المصادر الأمير قوصون الساقي والأمير بشتاك والأمير الطنبغا المارديني والأمير طغاي تمر والأمير عمر بن أرغون النائب- وهو من أولاد الناس- والأمير أقسنقر الناصري أمير شكار، والأمير ظاز والأمير سيف الدين تنكز بغا المارديني أمير مجلس. وغيرهم ممن لم نحصل على أخبارهم، ولعل هؤلاء الأمراء زوجات بناته كانوا من خواصه وأهم المقربين إليه ومن أكثرهم أهمية الأمير قوصون الساقي والأمير بشتاك، وقد نعم هؤلاء المماليك بقربهم من السلطان الناصر وعاشوا في رغد وسعادة من هذه المصاهرات وقربهم من السلطان.

وفي عهد أحفاد السلطان الناصر محمد صاهر سلاطين الدولة المملوكية بعض أمرائها فقام السلطان الأشرف شعبان بمصاهرة الأمير منكلي بغا الشمسي نائب حلب على أخته خوند سارة بنت حسين، وبعد زواجه أنعم عليه السلطان الأشرف بتقدمة ألف وجعله أتابك

العساكر وصاهر كذلك كل من الأمير بشتاك العمري رأس نوبة النوب ، والأمير قاسم البشتكي على ابنته خوند خديجة والتي كانت آخر أولاد الأشرف شعبان وفاة ، ومن أزواج بناته أيضاً الأمير يلبغا الأحمدي الأستادار هذا وقد زوج السلطان المنصور أمير حاج أخته خوند ابنة الأشرف شعبان للأمير الكبير منطاش وذلك أثناء أحداث فتنة منطاش في عهد الظاهر برقوق وهذه المصاهرة وضحت فيها تماما ما للعلاقات السياسية من دور حتى في أثناء الفتن تتم المصاهرات لتقوي الروابط بين السلطان الضعيف والأمير الكبير القوي المتحكم في زمام الأمور ، ولم تنته الأمور بالنسبة للملك المنصور على هذا النحو فبعد أن عاد برقوق إلى السلطنة استمر المنصور محبوساً في القلعة وكان السلطان برقوق متصرفا في بعض أموره فزوج الأمير تغري بردي اليشبغاوي من ابنته خوند فاطمة وقد عاشت هذه الخوند إلى أن توفيت وهي في عصمة الأمير تغرى بردي عام ٨٠٤هـ/١٤٠١م.

وفي عصر دولة المماليك الجراكسة صاهر الأمراء المماليك السلطان الظاهر برقوق على بناته فتزوج خوند سارة الأمير نوروز الحافظي ، وبعد وفاته تزوجت من الأمير مقبل الرومي أما خوند بيرم فبنى بها الأمير إينال باي بن قجماس ، أما خوند زينب فقد تزوجها أولاً الأمير سودون الحمزاوي نائب الشام وكان عمرها نحو الثماني سنوات ومات عنها فبنى عليها المؤيد شيخ المحمودي ، وبعد وفاته تزوجها الأمير قجق العيساوي أمير سلاح ، فنرى مصاهرة السلطان - في حياته وحتى بعد وفاته- لأهم أمراء الدولة ، أما السلطان الناصر فرج ابن برقوق فقد أشرنا من قبل أنه ترك اربع خوندات تزوجن من أمراء الدولة وهم الأتابكي جرباش كرت المحمدي ، والأمير بكتمر جلق ، والأمير قرقماش الشعباني حاجب الحجاب ، والأمير الصارمي إبراهيم ابن المؤيد شيخ.

وقد صاهر المؤيد شيخ جملة من كبار الأمراء على الخوندات بناته ، وهم الأمير قرقماش الشعباني ، والأمير طوغان الدوادار والأمير الكبير الطُنبُغا القُرْمَشي ، والأمير يشبك الفقيه وقد اختصّ السلطان الظاهر ططر بالأمير الكبير يشبك السودوني الأتابك "اختصاصا عظيما" فولاه الأمير آخورية الكبرى وزوجه من ابنته وكانت هي وأمها ابنة سودون الفقيه من خيار الخوندات ديناً وعفة هذا وكان ممن صاهر السلطان الظاهر جقمق من الأمراء الأمير الكبير أزبك من ططخ الأتابكي صاحب الأزبكية ،وكانت مصاهرته للسلطان أولا على ابنته خديجة والتي أنجب منها ولده الناصري محمد ، ثم تزوج بعد وفاتها أختها فاطمة بعد وفاة زوجها الأمير جانبك الظريف ، وكان زواجه من خوند فاطمة بعد وفاة الظاهر جقمق أما الملك المنصور عثمان فصاهره كذلك عدد من الأمراء المماليك على بناته وهم الأمراء أزدمر الطويل الأينالي على ابنته خديجة وقد تأيمت بعده ، ولم تتزوج ، والأمير تمراز الشمسي رأس نوبة النوب ، والأمير طوغان باي الدوادار الثاني.

ومن خلال هذا العرض الذي بدأناه بمصاهرة السلاطين على الخوندات بنات الأمراء الكبار في الدولة المملوكية ثم انتهينا به إلى مصاهرة الأمراء المماليك للسلاطين على الخوندات بنات السلاطين تدرك مدي أهمية المصاهرة في الحياة الإجتماعية التي عاشها هؤلاء المماليك وكونوا لنا منها فئة أولاد الناس التي كانت نتاج هذه الزيجات والمصاهرات ، وأيضا أهم العوامل التي ساهمت في تشكيل هذه الفئة داخل طبقة المماليك مصاهرات الأمراء المماليك بينهم وبين بعضهم وهذا الأمر حدث بصورة نستوضحها في السطور التالية.

مصاهرات أولاد الناس لأفراد المجتمع

(مماليك-أعيان)

تعددت مصاهرات أولاد الناس بين الأمراء أولاد السلاطين وبنات الأمراء المماليك والعكس وبين أولاد الناس من أبناء الأمراء بعضهم البعض ، وبالطبع لن نستطيع حصر كل فئة أولاد الناس الذين تصاهروا مع بعضهم البعض طوال فترة حكم دولة المماليك ولكن يمكن ضرب أمثلة على مثل هذه الزيجات الكثيرة والتي ذكرنا أنها في أغلبها كانت تتم بين أفراد نفس الطبقة أي بين الأمراء المماليك وأبنائهم ، وعلى الرغم من ذلك فقد وجدنا بعض المصاهرات داخل فئة أولاد الناس مع أفراد من طبقة أخرى غير طبقة المماليك نحاول إبراز هذه الأمثلة من خلال عرض لأهم هذه الزيجات والتي وجدناها بين سطور المصادر المملوكية المتعددة ، ومن المعروف أن هذه المصادر تبخل علينا كثيرا بالمعلومات الإجتماعية والتي تخص أفراد المجتمع سواء من طبقة المماليك أو بقية طبقات المجتمع المصري.

ومن الأمثلة على أهم المصاهرات في عصر دولة المماليك التي تمت بين أبناء السلاطين الذين لم يتولوا السلطنة وبين الخوندات بنات الأمراء ما حدث في عهد السلطان الناصر محمد ومصاهرته لأمراء الدولة ، بتزويج أولاده منهم وهؤلاء الأولاد لم يقلدوا السلطنة من بعد السلطان الناصر ، فقد زوّج ابنه الأمير إبراهيم من ابنة الأمير جنكلي بن البابا ، وزوج الأمير آنوك –الإبن المفضل لديه– من ابنة الأمير سيف الدين بكتمر الساقي.

أما الأمراء المماليك فكانوا يصاهرون بعضهم البعض فيتزوج الأمراء من بنات الأمراء وأولاد الناس يتزاوجون من بنات الناس ، ومن الأمثلة على هذه المصاهرات: مصاهرة الأمير ملجك ابن أخت الأمير قوصون الساقي على ابنة الأمير تنكز نائب الشام ، وقد حملت إليه من دمشق ، ومصاهرة الأمير أحمد بن بكتمر الساقي أيضا للأمير سيف الدين تنكز نائب الشام.

ومن البيوتات المملوكية الكبيرة والتي امتدت مصاهراتها على الجانبين سواء المصاهرة مع الأمراء المماليك أو مع طبقات أخرى غيرهم بيت الأمير تغري بردي اليشبغاوي نائب الشام في عهد الناصر فرج بن برقوق ، ووالد أبي المحاسن يوسف ، فقد صاهر من الأمراء المماليك إينال النوروزي أمير مجلس والذي قلد هذا المنصب عوضاً عن الأمير آقبغا التمرازي "وكلاهما صهري وزوج إحدى أخواتي" كما علق أبو المحاسن يوسف ، وقد أنجب آقبغا التمرازي ابنة تدعى سارة تزوج بها الأمير ناصر الدين محمد بن الظاهر جقمق ، وأصبح بذلك صهراً لأبي المحاسن على ابنة أخته ، وقال في ذلك أبو المحاسن "وكان بيني وبينه صحبة قديمة وحديثة ومحبة زائدة، ثم صار بيننا أيام سلطنة والده صهارة فإنه تزوج بنت الأتابك أقبغا التمرازي وهي بنت كريمتي".

وعلى الجانب الآخر فقد امتدت مصاهرات الأمراء المماليك وأولادهم لطبقات الشعب الأخرى وربما أن هذه المصاهرات اقتصرت بعضها على أعيان طبقة العامة من العلماء والفقهاء ، فقد صاهرت أسرة الأمير تغري بردي من العلماء والفقهاء أكثر من أسرة ، ومنها مصاهرتهم لشيخ الإسلام سراج الدين عمر بن رسلان البُلقيني قاضي القضاة الشافعي وقاضي الديار المصرية وعالمها ، فقد تزوج ابنه شيخ الإسلام جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن قاضي الشافعية ابنة الأمير تغري

بردي وذكر أبو المحاسن يوسف فضل جلال الدين عبد الرحمن عليه وبأنه تربى في كنفه وفي بيته فقال "وهو صهري زوج كريمتي والذي تولى تربيتي"، وكذلك صاهر قاضي القضاة الحنفي كمال الدين أبو حفص عمر بن العديم الأمير تغري بردي، فزوج ابنه القاضي ناصر الدين محمد بن عمر من ابنة تغري بردي، ولعل هذه الزيجة كانت سبب خير بالنسبة للقاضي ناصر الدين فقد تولى القضاء بعد وفاة والده كمال الدين ابن العديم، فأصبح قاضي قضاة الحنفية، كما ذكر أبو المحاسن "بسفارة الوالد، لكونه كان متزوجاً بإحدى أخواتي" ومن أصهار الأتابك تغري بردي من القضاة أيضاً قاضي القضاة المالكي حسام الدين محمد بن أبي بكر المعروف بابن حريز صاهره على ابنته ولكنه طلقها بعد ذلك ومن هنا نرى أن أسرة الأمير تغري بردي نائب الشام قد صاهرت قضاة القضاة الشافعية، والحنفية والحنبلية.

ومن القضاة كذلك الذين صاهروا الأمراء المماليك على بناتهن القاضي شرف الدين الأنصاري، فقد تزوج بخوند زينب ابنة جرباش قاشق وكانت قبله زوجة الظاهر جقمق، وقد لاقى من هذه الزيجة ضرر كبير فقد عز على بعض مماليك الظاهر أن زوجة سلطانهم وإستاذهم تتزوج بأحد أفراد الشعب حتى وإن كان من أعيان القضاة والعلماء وذو نسب شريف، فتعرض له البعض بالضرب المبرّح المؤلم "فانقطع في داره أياماً، ثم ركب وطلع القلعة، فأخلع عليه باستمراره في نظر الجيش على عادته".

وحدث العكس أيضا في هذه المصاهرات فقد صاهر الأمراء المماليك وأولادهم القضاة والأعيان وتزوج محمد بن عمر سبط الأمير عبد الله بن بكتمر –وهو خاتمة الذكور من ذرية الأمير الكبير بكتمر الحاجب– من أم الحسن ابنة التقي البلقيني. وصاهر محمد بن طوغان الحسني التاج البلقيني على ابنته حنه، وتزوج عليها كذلك ابنة أخت الشمس ابن المرخم، أما الأمير أحمد بن نوروز شاد الأغنام فقد صاهر كذلك أسرة البلقيني فتزوج زينب ابنة الجلال البلقيني وقد صاهر الأمير إينال الأحمدي بنت أمين الدين الأقصرائي فتزوج أخته والتي أنجبت له فاطمة التي تزوج بها الأمير يشبك من مهدي، ومن اختصاصها بأسرة والدتها اشتهرت باسم ابنة الأقصرائي.

ومع طول العهد بالدولة المملوكية نرى حفيدات أولاد الناس أولاد الأمراء يتزوجن من فئة الأعيان، فقد تزوجت جان خاتون ابنة الركن عمر بن الناصري محمد بن الأمير جمال الدين بن بكتمر الحاجب من البرهان إبراهيم بن النور التلواني وأنجب منها ثلاثة أولاد وقد تزوجت كذلك عائشة ابنة الناصري محمد بن العطار من اثنين من الأمراء المماليك سودون الدقماقي وأنجبت له ناصر الدين محمد بن سودون، والأمير طيبغا البدري وأنجبت منه ابنتها فاطمة والتي تزوجت من عبد العظيم بن درهم ونصف، وبعد وفاته تزوجت من الشريف الأكفاني، وقد كان للناصري محمد بن العطار ابنة أخرى وهي زوجة كمال الدين ابن البارزي ناظر الجيش.

وعلى الجانب الآخر صاهر الخلفاء الأمراء على بناتهن فأمّ الخليفة المتوكل على الله بن المعتضد بالله العباسي وهي حاج ملك بنت مُقبل ووالدها "شخص من المماليك السلطانية" وقد بويع المتوكل على الله بالخلافة بعد وفاة عمه جمال الدين يوسف بعهد منه عام ٨٨٤هـ/١٤٧٩م.

ومن الجدير بالذكر أن مؤرخي العصر المملوكي لم يمدونا بالمعلومات الكافية في الجوانب الاجتماعية حتى يتثنى لنا دراستها بعمق أكثر، غير أنه من الممكن أن نلحظ من بين السطور أن النساء في العصر المملوكي من أبناء الأمراء أو أحفادهم كان يطلق عليهن لقب خوند أما إذا تحدث المؤرخ عن زواج أمير مملوكي أو ابن ناس من طبقة الأعيان فيذكر اسم المرأة باسم الست إكراما لها، وقد رأينا خلال الصفحات الماضية أن من نفس الطبقة – العامة – خرجت أيضاً خوندات عندما تزوج الظاهر جقمق ببنت البارزي، فأصبحت خوند باعتبارها زوج السلطان حتى وإن كانت من طبقة =كما ظن مماليك ذلك العصر أدنى من طبقتهم إلا أنها شَرُفت بزواج السلطان.

مظاهر الحياة الاجتماعية لأولاد الناس

زخرت الحياة الاجتماعية في مصر خلال عصر سلاطين المماليك بكثير من المظاهر التي شكلت قوام الحياة الاجتماعية لأولاد الناس بالمجتمع المصري المملوكي فتعددت هذه المظاهر بين مظاهر احتفالات أو مهارات كان يشارك فيها أولاد الناس كلعب الكرة ورمي البندق والنشاب، أو خروجهم لتخليق المقياس وكسر الخليج عند وفاء النيل، صور من الحياة الاجتماعية المصرية المملوكية شارك فيها أولاد الناس بإسهامات بعضها إيجابيا وبعضها الآخر سلبيا ولكن تواجدهم في هذه الحياة أكسب حياتهم الاجتماعية صورة واضحة نسبياً بجانب الفئات الأخرى من طبقات المجتمع المصري، نحاول من خلال هذه النقاط إماطة اللثام عن تلك الحياة الاجتماعية التي عاشها أولاد الناس بشكل أو بآخر.

وفاء النيل وكسر الخليج وتخليق المقياس

قال الصّفدي:

لِمَ لا أهِيمُ بمصر   وأرتضيها وأعشَقْ
وما تَرى العِيَن أحلى   مِنْ مَائِها إنْ تَخَلّقْ

وفاء النيل عيد مصري قديم قدم التاريخ، وهو أول احتفال حرص المصريون بكافة فئاتهم على الاحتفاء والاحتفال به، والنيل في حياة المصريين قيمة كبيرة جليلة القدر ونعرف مدى ارتباط المصريين القدماء بهذا النهر العظيم وصل هذا إلى حد تأليهه واطلاقهم اسم حابي عليه، وقد أدرك جميع من زار مصر أو من هو من أهلها أن الله عز وجل حبى مصر بهذا النهر العظيم ليرجع له الفضل في نشأة الحضارة وازدهارها واستمرارها وقد نشأ المجتمع وتطور عبر حقب التاريخ المختلفة وهو مرتبط ارتباطا وثيقاً بعوامل البيئة الجغرافية التي قوامها نهر النيل.

فالنيل بفيضه وغيضه هو المؤثر الفعال في حياة البلاد الإقتصادية، فإما يجلب الخصب والنماء أو يجلب المجاعة والأوبئة والطواعين، ودائما ما يكون أهل مصر شريفهم ووضيعهم في انتظار وفاء النيل، فإذا ما وفّى النيل تكون البشارة بذلك وتقام الإحتفالات والأفراح في كل بيت مصري، وتبدأ الاحتفالات الضخمة التي يقيمها المصريون فرحاً بوفاء النيل، وقد حرص المصريون على مراقبة زيادة النيل وارتفاعه كل يوم ويهتمون حتى بزيادته أصبع أو إصبعين وينادى بذلك في شوارع القاهرة.

وقد قام العديد من أبناء السلاطين (الأسياد) بفتح السد وتخليق المقياس منهم الأمير ناصر الدين محمد بن السلطان الأشرف برسباي "فصار ينزل في وفاء النيل لتخليق المقياس وفتح السد على العادة بتجمل وبين يديه أكابر الأمراء والخاصكية" وأول نزول للناصري محمد

بن برسباي كان عام ٨٢٦هـ/١٤٢٢م ، واستمر على ذلك كل عام حتى توفي عام ٨٣٣هـ/١٤٧٨م وكان يتولى هذا الأمر قبله الأمير الكبير بيبغا المظفري وقام من بعده أخوه العزيز يوسف بأداء هذه المهمة ، فكان ينزل كذلك في تجمل زائد وفي صحبة جمع من كبار الأمراء الموظفين مثل شاد الشراب خانة والخزندار وغيرهم.

وقام الأسياد أبناء السلطان الظاهر جقمق بفتح السد أيضاً ، أولهم الأمير ناصر الدين محمد بن جقمق فكان ينزل من القلعة لفتح السد وتخليق المقياس إيذاناً بوفاء النيل ، وبعد وفاته قام مقامه أخوه المقام الفخري عثمان بن الظاهر جقمق ، وكان يخرج أحياناً معهم الحاجب وكاتب السر وكبار الأمراء. ونزل أيضا المقر الشهابي أحمد بن إينال وكان يشغل منصب أتابكية العساكر على عهده والده الأشرف إينال العلائي إلى كسر الخليج ، وتخليق المقياس في سنوات متعددة ، وكان ينزل صحبته عدد من كبار الأمراء في الدولة. وعند عودة ابن السلطان إلى القلعة يخلع السلطان عليه "خلعة شريفة على العادة" ، ويخلع كذلك على والي الفسطاط ورئيس الحراقة السلطانية وصاحب المقياس وغيرهم خلع سنية.

هذا وقد تحدث أحيانا أمور لا يحمد عقباها أثناء الاحتفالات بكسر السد وتخليق المقياس ، ففي عام ٨٣٠هـ/١٤٢٦م كان ينزل المقر الناصري محمد بن الأشرف برسباي لكسر الخليج وصحبته الملك الصالح محمد بن ططر ، وحدث بسبب تكدس العامة لمشاهدة هذا الموكب ما لا خير فيه للمتفرجين ، وحُرِقت الخيام التي بجزيرة الروضة وهذا الأمر أضفى على الاحتفال وعلى الجو العام مسحة كآبة بسبب ما حدث من حريق "ولم يكن للوفاء بهجة مثل العادة".

وهكذا شارك أولاد الناس من الأسياد أولاد السلاطين في مظهر من المظاهر الاجتماعية التي كانت تعد من سمات وعادات الشعب المصري ، بل عددها البعض من الأعياد القومية في مصر خلال عصر سلاطين المماليك.

الألعاب والفروسية والتريض والنزهة

باعتبار أن سلطنة المماليك في أصلها قامت على أساس عسكري ناتج من اقتناء المماليك وتربيتهم تربية عسكرية على درجة عالية من الإتقان فكان لابد لهؤلاء المماليك من ممارسة كل فنون الفروسية والقتال ، وقد عُني سلاطين المماليك بألعاب الفروسية وفنونها وبرز كثير من الأمراء في هذا الشأن وبرعوا فيه ، وذلك لما في ألعاب الفروسية من تمرين النفس واكتساب الخيرات.

وأولاد الناس جزء لا يتجزأ من هؤلاء الأمراء فبالطبع سيمارسون هذه الرياضات والألعاب والفنون ، مثل آبائهم وخاصة أن الكثير منهم كانوا أمراء في الدولة المملوكية ، وقد برز العديد من أولاد الناس في هذا المجال خلال عصري دولة المماليك ، ففي العصر الأول برز أكثر من شخص من أولاد الناس برعوا في الفروسية ورمي النشاب منهم الأمير مجاهد الدين آنس بن كتبغا الذي كان "أوحد عصره" في الرمي فيقال أنه رمى على قوس زنة مئة وثمانين رطلاً والأمير جمال الدين عبد الله ابن الأمير سيف الدين بكتمر الحاجب "كان رأساً في رمي النشاب والبندق ليس له نظير فيهما".

وفي العصر المملوكي الثاني برز أيضاً عدة أمراء من أولاد الناس شاركوا في الألعاب وفنون الفروسية والرمي بالنشاب والبندق منهم الأمير شهاب الدين أحمد بن أمير علي بن إينال اليوسفي ، والأمير سيف الدين علي باي بن طراباي العجمي ، ومن الأسياد الأمير ناصر الدين محمد بن الظاهر جقمق الذي برع في لعب الرمح والنشاب لولا ما عاناه من السمنة بعد ذلك حيث حددت حركته نسبياً أما الأمير شرف الدين يحي بن يشبك الفقيه فقد بلغ درجة عالية في ألعاب الفروسية بسائر أنواعها كالرمح والسيف والدبوس ، والنشاب وسوق الخيل ، وأقام عدة سنين يسوق المحمل مع باشات محمل الحج.

هذا وكان السلاطين يعرضون أولاد الناس ويأمرونهم بلعب الرمح بين يديهم لكي يقفوا على مهارتهم في هذه الألعاب ومن يؤدي منهم أداءً حسناً يرضى عنه السلطان ، ومن لا يتقن ألعاب الفروسية والرمح يقوم السلطان بتوبيخه وربما يحدث لكثير منهم غاية المشقة في هذا العرض. ومن الرياضات الشهيرة التي شغف بها سلاطين المماليك وأمراء الدولة وأولاد الناس لعبة الجوكان أو الكرة أو الأكره وقد رعى السلاطين هذه اللعبة رعاية كبيرة وأقاموا لها الميادين الخاصة لمزاولتها ، ووضعوا قوانين تنظمها.

وقد ذكرت لنا المصادر المملوكية أكثر من واحد من أولاد الناس برعوا في لعبة الجوكان (الكرة) مثل الأمير علاء الدين قط ليجا بن بلبان الجوكاندار ، وهو أحد أمراء الأربعين (طبلخاناة) "وكان فارسا بطلا خفيف الحركات ويذكر عنه أنه ساق فرسه فأخذ نصف سفرجله من غصنها وبقي نصفها الآخر مكانه ، وكان في لعب الكرة غاية" وكذلك الأمير خليل بن أيدغدي الحاجب كان "أستاذ في لعب الكرة" ، أما الأمير ناصر الدين محمد بن الأمير سيف الدين بكتمر الجوكاندار فقد أطال الصفدي مدحه وأكد على رشاقته وخاصة وهو ممتطي فرسه ، وانه لم يكن في مصر والشام من يلعب الكرة مثله وكل طنجي في الإقليمين يعرف فضله ، وذكر ابن حجر أن الرياسة في لعب الكرة انتهت إليه في زمانه ، ولم يكن يجاريه في ذلك إلا علاء الدين قطليجا وكلاهما من أولاد الناس.

ومن الألعاب الرياضية أيضا الصيد وهو من الهوايات المفضلة عند سلاطين المماليك وامرائهم وكان السلاطين والأمراء يخرجون إلى الصيد في سرحات الصيد المعروفة آنذاك ، وموعد رحلات الصيد عادة في أيام الربيع فكان الأمراء يخرجون لتربع خيولهم ويقومون هم بالصيد ، وكان لأولاد الناس نصيب وافر ومهارة في هذه الرياضة ، فيعتبر المؤرخ ابن أيبك الدوادار من أولاد الناس المشهورين بالمهارة في الصيد ، وقد ذكر ذلك عن نفسه عندما ذكر كيفية صرعه للطيور في الصيد بالبندق ، وكيف أن بعض الشعراء نظم أبيات يصف فيها طريقة وزمان الصيد ويمدح فيها ابن ايبك ومهارته.

وقد نال بعض أولاد الناس القرب من السلطان الناصر محمد بن قلاوون وذلك بسبب براعته في الصيد ، فقد قرب الناصر محمد الأمير حسين ابن أبي بكر بن جندر بك الرومي منه بسبب حظه في الصيد ، وأنعم عليه بتقدمة ألف وجعله أمير شكار أما الأمير جمال الدين عبد الله بن بكتمر الحاجب فكان من أولاد الناس الماهرين في الصرع بالبندق وصيد الطيور وكان يدَّعي إلى الأمير بركة في تعليمه الصيد ويقدم إليه التقادم الجليل عند الأدعاء له وكان الأمير ناصر الدين محمد بن صارم الدين إبراهيم حفيد الأمير منجك نائب الشام من المقربين من السلطان جقمق وخواصه ، "وكان مغرماً بالصيد" بارعاً فيه وما سقناه هنا من أمثلة تدل على أن أولاد الناس شاركوا في الرياضات التي كانت تشغل أهمية لدى الأمراء المماليك وأولادهم خلال العصر المملوكي ، وقد امتاز هؤلاء الأمراء بهذه الميزة الخاصة والهواية التي شغف بها كافة فئات طبقة المماليك في مصر.

هذا وقد ساهم أولاد الناس في مظهر اجتماعي آخر من مظاهر الحياة الاجتماعية وهو مصاحبتهم للأمراء والسلاطين وخروجهم إلى النزهة، بل أن أولاد السلاطين (الأسياد) كانوا يخرجون للتنزه في القاهرة ومتنزهاتها وخاصة شواطئ النيل، فقد صحب الأمير صارم الدين إبراهيم والده المؤيد شيخ في أكثر من نزهة بالقاهرة وزار معه بيوت الأمراء وأعطوا لهما تقادما جليلا.

هذا وكان المؤيد شيخ دائم الخروج إلى البارزية وبصحبته أمراء من أولاد الناس منهم الأمير محمود ابن الأمير قلطماي الدوادار. وكذلك كان خروج الناصري محمد بن السلطان الأشرف برسباي إلى دار القاضي زين الدين عبد الباسط المطلة على النيل لمشاهدة الأغربة المتوجه إلى قبرص، وكان بالنيل أربعة أغربة بكل غراب أمير من الأمراء وقدموا عرضا شاهده الأمير ناصر الدين محمد وجمع كثير من الأمراء على رأسهم الأمير جانبك الأشرفي الدوادار الثاني الذي صحب الأمير من القلعة، "وكان يوما مشهودا حُشِر فيه الناس من كل جهة لمشاهدة ذلك".

مظاهر الاحتفالات

تعددت الاحتفالات بالمجتمع المصري في العصر المملوكي، وبرزت خصائصها ومظاهرها بصورة واضحة حية من خلال النصوص التي وصلتنا من المصادر المملوكية، وخاصة مظاهر الإسراف الزائد في الاحتفال بالأفراح وعقد القران، أو الإحتفالات بالعقيقة والختان وغيرها من الإحتفالات العائلية التي كان يحتفل بها أولاد الناس والأمراء المماليك وعادة أهل مصر في تلك الفترة.

حفلات الزواج

من المعروف أن عصر سلاطين المماليك قد اشتهر بالبذخ والإسراف الزائد وخاصة في الأفراح وماكان ينفق عليها من تكاليف وأموال والامثلة كثيرة والنصوص التي تدل على هذا ملئت بها المصادر سواء في حفلات زواج أولاد السلاطين والأمراء أو عقيقتهم أو ختانهم وكان "مهم" احتفال عقد القران يستمر "مدة سبعة أيام بلياليها" ويجتمع فيه نساء الأمراء جميعاً.

وقد اشتهر خلال العصر المملوكي الأول عدة حفلات زواج نضرب بها مثالا عاماً على حفلات الزفاف في ذلك العصر، وأول حفل زواج للأسياد أولاد السلاطين على ابنة أمير زواج السعيد بركة خان بن الظاهر بيبرس على غازية خاتون ابنة سيف الدين قلاوون وعقد العقد بالأيوان من قلعة الجبل، وبلغ صداق هذه الزيجة مبلغ خمسة آلاف دينار دفع منها ألفي دينار.

بيد أن ما فاق الوصف في الإسراف والبذخ من حفلات زواج ذلك العصر زواج الأمير آنوك بن السلطان الناصر محمد على ابنة الأمير سيف الدين بكتمر الساقي وكان سن الأمير "عشر سنين أو دونها" وقد حمل المهر من خزانة الخاص بالقلعة إلى بيت الأمير بكتمر الساقي وهو عشرة آلاف دينار "ومئتان وخمسون تفصيلية حرير مثمنة ومائة نافجة-وعاء مسك- وألف مثقال عنبر خام ومائة شمعة موكبية وثلاثة أرؤس من الخيل مسرجة ملجمة، وخمسة مماليك على يد كل مملوك بقجة" في يوم العرس بلغ شوار العروس ما قيمته ألف ألف دينار مصرية، وكان مهما عظيما حمل فيه أكثر من ثلاثة آلاف شمعة، وحمل الجهاز من دار الأمير بكتمر على بركة الفيل على رؤوس الحمالين وعدتهم "ثمانمائة حمّال وستة وثلاثين قطار بغال، غير الحلي والمصاغ والجواهر، ولما مدُوا الشوار المذكور دخل السلطان وراه فما أعجبه وقال رأيت شوار بنت سلار وهو أكثر من هذا وأحسن، على أن هذا يا أمير بكتمر ما يقابل به آنوك" ومن النص يبرز لنا مدى امتعاض السلطان الناصر من تجهيز بكتمر لابنته وقد رآه قليلاً لا يوازي قدر الأمير آنوك وبالرغم من ذلك فقد أقيم له عُرس عظيم حضره نائب الشام سيف الدين تنكز وسائر الأمراء، ونصب الأمير قوصون الساقي صاريين عليهما نقط غُرم عليهما ثلاثون ألف درهم، وأطعم الناس بالأيوان، وبلغ جملة ما ذبح في هذا السماط من الخيل والبقر والغنم والأرز والدجاج فوق عشرين ألف رأس واستعمل منه ثمانية عشر ألف قنطار بالمصري من السكر لعمل الحلوى وغيرها وصرف من الأموال على هذا الزفاف ما يفوق الحصر.

واهتم السلطان الناصر محمد بحفلات زواج بناته على أولاد الناس أبناء الأمراء ففي عام ٧٢٣هـ/١٣٢٣ كان عرس الأمير أمير علي ابن الأمير أرغون نائب السلطنة على ابنة السلطان، واعتنى السلطان الناصر بجهازها عناية عظيمة وعمل لها "بشخاناة وستارة وداير بيت زركش بمبلغ ثمانين ألف دينار وآلات الذهب والفضة بما ينيف على عشرة آلاف دينار"، وعمر لها السلطان مناظر الكبش عمارة جديدة ونقل الجهاز إليها ونزل بنفسه ليقف على نصب الجهاز، وأقيم العرس بمهم كبير ثلاثة أيام، وقد حضره نساء الأمراء قاطبة بتقادمهم وهداياهم التي بلغت قيمتها أربع مئة دينار، وأحيا هذا الحفل ثماني جوق من جوق مغاني القاهرة، وأنعم السلطان بعد انتهاء المهم على زوجات الأمراء بتعابي قماش كل حسب قدرها، وعم جميع الأمراء بالخلع وأنعم على والد العريس الأمير أرغون النائب زيادة على إقطاعه بمنية بني خصيب.

وعلى الجانب الآخر وعلى خلاف ما رأينا في المثالين السابقين من زمان أبناء الناصر محمد نراه يقوم بتزويج كل من الأمير أحمد بابنة الأمير طاير بغا وابنة الأمير أبي بكر على ابنة الأمير سيف الدين طقز دمر أمير مجلس "بغير عمل مهم" فلم يقيم لهما حفل زواج بل إن القران عقد في بيت الأمير قوصون الساقي وهو زوج أختهما، ولعل هذا راجع إلى غضب السلطان على كلا الأميرين فقد أخرجهما لفترة إلى الكرك ثم أمر بعودتهما وأمّرهما كل أمير إمرة طبلخاناة ثم قام بتزويجهما، والعكس حدث بالنسبة للأمير آنوك الذي كان مقرباً من السلطان ومختصاً به بالرغم من أن إخوانه كانوا أسن منه، ولعل السبب راجع إلى اختصاص أمه خوند طغاي بأبيه وعلاقتها به فكان تأثيرها على السلطان قوي ومن هنا نجد فتوراً واضحاً في علاقته بأبنائه من غيرها نقول ربما كان السبب كذلك.

وقام السلطان الصالح إسماعيل بن الناصر بمصاهرة ابن ناس وهو الأمير أحمد بن بكتمر الساقي على ابنته من ابنة الأمير تنكز نائب الشام، وقدّم لها صداقاً بلغ عشرة آلاف دينار، وأقام مهما عظيماً، أمر بأن تصنع لها بشخاناة داير بيت بما قيمته ثمانين ألف دينار هذا وقد قام السلطان الناصر حسن بتزويج أخته زهراء ابنة الناصر محمد والتي كانت زوجة للأمير آقسنقر الناصري من الأمير طاز، "وأنعم السلطان علي الأمير طاز بثلاثمائة ألف درهم".

ولم يكن العصر المملوكي الثاني أقل إسرافا في حفلات الزواج والمصاهرات التي كانت تقام لأولاد السلاطين (الأسياد) وأولاد الناس بشكل عام بل رأينا خلال هذا العصر صورة واضحة من خلال صفحات المصادر تدل على مدى ما كانت تشكله المظاهر التي تعارف عليها في إقامة حفلات الزواج من عبء على خزانة الدولة وخزانة الخاص، حتى

على الأمراء الذين كانوا مجبرين على تقديم التقادم إلى هؤلاء الأسياد والأمراء، وخاصة إذا ما كان الزواج يخص ابن سلطان أو ابنة سلطان.

وفي العصر المملوكي الثاني تزوج السلطان الظاهر برقوق من خوند فاطمة ابنة الأمير منجك نائب الشام وحمل جهاز العروس إلى القلعة وقيمته مئة ألف مثقال ذهباً، ويحمله ثلاث مئة حمَّال، وعشرة أطباق مملوءة زركش، وسبعون بغلا وصحب موكب الجهاز الأمير أيدكار الحاجب، والأمير بهادر الأستادار والأمير قردم الحسني رأس النوبة، والأمير يونس الدوادار، والأمير قرقماش الخازندار وكان يوماً مشهوداً لأهل القاهرة وعند الزفاف كان "المهم بالقلعة سبعة أيام متوالية".

وأثناء فتنة الأمير منطاش في عهد الظاهر برقوق قام الأمير الكبير منطاش بعقد قرانه على خوند بنت الملك الأشرف شعبان وأخت السلطان المنصور علي، فحمل جهازها على خمس مئة حمّال، وعشرة قُطر بغال ومشى بالحجاب والعسكر مع الجهاز فقام الأمير بالبناء عليها من ليلته واهتمّ للعرس اهتماماً زائداً، وعلق بشربوشها دينارا زنته مئتا مثقال ودينارا زنته مئة مثقال.

ومن الزيجات التي كانت لها شهرتها في العصر المملوكي الثاني زواج الأمير طومان باي شاد الشرابخاناه على ابنة الأمير أقبردي الدوادار، فقد عقد العقد بالقلعة وذلك لصلة القربى التي تربط الأمير طومان باي بالسلطان الأشرف قانصوه الغوري وحضر العقد سائر الأمراء والأعيان والقضاة الأربعة، وقد وصف لنا ابن إياس زفاف الأمير طومان باي على زوجته ابنة أقبردي وصفاً دقيقاً فسار الأمير طومان باي وهو في غاية العظمة في الزفة وبصحبته الأتابكي قرقماش وسائر الأمراء قاطبة وبأيديهم الشموع الموقدة، وشبه ابن إياس زفة طومان باي بزفة الأمير جانم قريب السلطان قايتباي عند زفافه على ابنة الأمير علاء الدين على ابن خاص بك وأخت خوند الخاصيكية.

ومن حفلات الزفاف المشهورة لأولاد الناس خلال العصر المملوكي بشكل عام عقد الأمير أحمد بن بكتمر الساقي على خوند قطلو مُلك ابنة الأمير تنكز نائب الشام وكان الساعي في زواجهما السلطان الناصر محمد بن قلاوون لمزيد اختصاصه بالأمير أحمد فاقام له عرس عظيم إلى الغاية، ووقف السلطان على السماط بنفسه، وحضرت العروس من بلاد الشام في تجمل زائد وبجهاز عظيم فيه داير بيت زركش قدر بمبلغ ستين ألف مثقال من الذهب، وخلع السلطان على والد العروس خلعة كاملة.

وفي دولة المماليك الثانية اشتهر كذلك زواج الأمير قانصوه خمسمائة من ابنة الأتابكي أزبك من ططخ من زوجته خوند ابنة الظاهر جقمق وقد عد العقد بجامع القلعة وحضره القضاة الأربعة واعيان الناس، وكان عقداً حافلاً، ووزع فيه السكر المذاب والفواكه، وقد وصف ابن إياس مدى ثروة الأتابكي أزبك من ططخ وأن ماله لا ينحصر لولا ما أنفقه على التجاريد من ماله الخاص وعلى عمارة الأزبكية، وعلى جهاز ابنته سارة، فقد جعل ابن إياس نفقة الأتابكي أزبك من الأسباب التي جعلت تركته عند موته تقل كثيرا عما كانت عليه وهذا دليل على مدى ما كان عليه الجهاز من القيمة.

العقيقة

هذا وجاء طعام العقيقة أيضا من مظاهر الإحتفالات في عهد السلاطين المماليك واشترك في هذا الاحتفال كافة طبقات الشعب في المجتمع المصري، وخاصة عندما يكون المولود ذكر، والعقيقة من سنن الدين الحنيف واتباعا لسنة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، واحتفل كثير من السلاطين والأمراء المماليك بعقيقة أولادهم في العصر المملوكي.

فقد أقام السلطان المؤيد شيخ أبو المعالي محمد الذي أنجبه من ابنة الأمير تنم الحسني نائب الشام عقيقة حافلة، خلع فيها السلطان على الأمراء وأركبوا الخيل بالقماش المذهب، وبلغ قيمة ما صرف عليها خمسة عشر الف دينار، ونودي بزينة القاهرة ومصر (الفسطاط) منذ يوم ولادته ورزق أيضا المؤيد شيخ بولد ذكر سماه موسى فأمر بدق الكوسات في القلعة ثلاثة أيام وأقام له عقيقة بلغ المصروف عليها خمسة عشر ألف دينار أيضاً، وخلع على الأمراء المقدمين وأرباب الدولة "وأركبهم الخيول بالكنابيش الزركش والبدلات الذهب وكان يوماً مشهوداً" غير أن الأمير المذكور لم يطل عمره في الدنيا ومات بعد نحو خمسة أشهر.

هذا وعندما رزق الظاهر قانصوه المحمدي من زوجته جان كلدي الجركسية بولد سماه أحمد وأقام له يوم سابعه مهم حافل اجتمع فيه سائر الخوندات ونساء الأعيان بالقلعة، وحمل الزمَّام جوهر العيني القبة والطير على رأس خوند جان كلدي وفرشت لها شقق الحرير، ونثرت على رأسها خفائف الذهب والفضة وكان لها بالقلعة يوم مشهود.

حفلات الختان

ومن الاحتفالات العائلية أيضا التي أجمعت عليها مختلف الطبقات في مصر المملوكية الاحتفال بختان الأطفال، وقد شملت هذه الظاهرة الاجتماعية أولاد الناس سواء من الأسياد أو أولاد الأمراء، وقد بالغ الناس في إحياء هذه الحفلات.

وقد رعى السلاطين المماليك حفلات ختان أولادهم، وجرت العادة عند ختن أحد أولاد السلاطين أن يقوم الأمراء المماليك بختن أولادهم مع ابن السلطان، ففي ختان الملك السعيد بركة ابن الظاهر بيبرس ختن أولاد كل من ابن الأمير عز الدين الحلي، وابن الأمير شمس الدين سنقر الرومي الأشقر، وابن الأمير سيف الدين سكز، وولد الأمير حسام الدين ابن بركة خان، وابن الملك المجاهد صاحب الموصل، واولاد الملك المغيث صاحب الكرك الخمسة وابن فخر الدين الحمصي، وعدد آخر من أولاد الأمراء المماليك وغيرهم، وقام السلطان بختن بعض أولاد الأيتام والفقراء بمصر والقاهرة، ولم يأخذ السلطان من الأمراء أي نقوط، وحمل عنهم كلفة التقادم.

وقام السلطان الناصر محمد بختن ثلاثة من أولاد الناس أبناء الأمراء عندما عقد قران ابنته على الأمير أبي بكر بن أرغون النائب، أما من قام بختانهم فهم أولاد الأمراء بكتمر الساقي وطشتمر حمص أخضر، ومنكلي بُغا الفخري وعمل لهم مهم كبير، وجرت العادة أن يقوم المزّين بالختان ثم يقوم الأمراء برمي الذهب في الطست، فبلغ ما في طست ابن الأمير بكتمر الساقي أربعة آلاف وثلاث مئة وثمانين دينار، وابن الأمير طشتمر حمص أخضر ثلاثة آلاف دينار، وطست ابن الأمير منكلي بغا ألف دينار وثمان مئة دينار.

وقد احتفل السلطان الأشرف شعبان بختان أولاده أمير علي، وأمير حاج وأقام الأفراح في القلعة سبعة أيام كاملة ومد أسمطة ومدات، وأنفق فيه من الأموال ما لا يحصى، ولكن عاب ابن حجر على ما ظهر في هذا الحفل من الفواحش والقبائح التي مارسها الأمراء، وهذا أمر لا يليق بالمجلس السلطاني.

وكان ختان الأمير ناصر الدين محمد بن الأشرف قايتباي من نوادر المُهمات فقد جمع إليه السلطان سائر مغاني البلد ، وأمر السلطان بأن تزين القاهرة فزينت زينة حافلة حتى داخل الأسواق ، ومن حسن الطالع أن المماليك كانوا خارج القاهرة في تجريده إلى بلاد الشام وأدي غياب العسكر إلى هدوء القاهرة وأمن الناس من أذى المماليك ، وقدم الأمراء كثير من النقوط وكان جملة التقادم من مال وخيول وقماش وسكر وأغنام وأبقار ما يزيد عن خمسين ألف دينار ، وقدم إليه المقر الشهابي أحمد بن العيني طست وأبريق من ذهب ، زنته نحو من ست مئة مثقال برسم الختان وقام السلطان بختن جماعة من أولاد الناس مع الجمالي يوسف من أولاد الأمراء الخاصكية حتى زادوا عن الأربعين ولد وكسي كل صبي كسوة على قدر أبيه وكان من جملة أولاد الأعيان ابن الخليفة أبو يزيد أمير المؤمنين عبد العزيز ، وعثمان ابن الملك المنصور عثمان بن جقمق ، وابن الجمجمة بن عثمان ، وأولاد علاء الدين على ابن خاص بك ، وغيرهم من أولاد الأمراء والأعيان ، ونزل ابن الجمجمة وأولاد العلاء علي بن خاص بك إلى بيوتهم وشقوا القاهرة في موكب حافل وأمر السلطان أن يركب القضاة الأربعة أمام موكبهم.

صور من حياة أولاد الناس

رأينا فيما سبق مشاركة أولاد الناس في مظاهر شتى من الحياة الاجتماعية وقد أدركنا بعض صور من حياة أولاد الناس ، اتضحت من خلال ورودها بين ثنايا سطور المصادر المملوكية ، نحاول توضيح هذه الصور التي ألقت جانبا من الضوء على حياة أولاد الناس داخل المجتمع المملوكي.

كانت علاقة أولاد الناس أبناء الأمراء بالسلاطين المماليك علاقة قوية وكثيرا ما قدم السلاطين المماليك أولاد الناس على غيرهم مثل السلطان الناصر حسن والسلطان الأشرف شعبان ورعوَّهم وأنعموا عليهم بإمرات وقدموهم في الوظائف سواء وظائف أرباب السيوف أو الوظائف الديوانية ، وقد شملت هذه الرعاية كذلك رعاية أولادهم إذا تعرض الأمراء لمكروه أو للقتل والموت ، فنرى السلطان الأشرف شعبان بن حسين يسعى في استدعاء أولاد الأتابكي الجاي اليوسفي بعد خروجه عليه وموته ، ويرتب لهم ما يكفيهم من النفقة في كل يوم ، وأمر بأن يسكنوا القلعة ، ومن المعروف أنهم إخوته لأمه ولكننا ندرك أن بعض السلاطين كان يقدم على قتل أو نفي أو دس السم لإخوته وللمقربين له حفاظا على كرسي السلطنة ، ونحن ندرك أيضا ما وصف به الأشرف شعبان من صلف وإخراق بكل من يناوئه ، غير أن السلطان الناصر شعبان لم ينس أنه تربى في حجر الجاي اليوسفي فرعى أولاده إكراما له ولأمه التي اختص بها كثيرا.

وكان من اهتمام السلاطين المماليك بأولاد الناس خروجهم في جنائزهم إذا توفي أمير من أولاد الناس وقد شارك كثير من السلاطين في تشييع جنازاتهم طوال العصر المملوكي ، وعادة ما كانت تخرج الجنازات التي ينزل إليها السلطان من سبيل المؤمني ، ومن الأمثلة على نزول السلطان للصلاة على خوند ابنة قرقماش الجلب زوج الأمير تمراز العزيزي ، ووفاة فاطمة ابنة إينال العلائي زوج الأمير يشبك من مهدي صلى عليها في سبيل المؤمني في جمع فيه السلطان ، وفي وفاة الأمير علي بن خليل بن حسن بن خاص بك وهو أحد أعيان أولاد الناس وكانت جنازته حافلة ونزل السلطان وصلى عليه في سبيل المؤمني وجاءت المصادر بكثير من الأمثلة المشابهة على هذا الأمر ،

وكان من العادة أن تخرج كفارة أمام جنازة المتوفي ، ويقوم الأهل بقراءة القرآن على قبر المتوفي بعد الدفن ، وتستمر القراءة خمسة أيام تقريبا على القبر.

هذا وقد كانت الطواعين التي تصيب مصر كثيراً سبباً في وفاة العديد من أولاد الناس ، وقد اشتهرت عدة طواعين في عهود مختلفة مثل الطاعون في عهد الأشرف برسباي ، وطاعون في عهد الظاهر جقمق وطاعون في عهد الأشرف قانصوه الغوري ، هذا فضلا عن الطاعون الكبير الذي أطلق عليه الطاعون الأسود والذي وصل إلى مصر في عهد الناصر حسن بن الناصر محمد ، ففي طاعون ٨٣٣هـ/١٤٢٩م توفي فيه الأمير ناصر الدين محمد بن الأشرف برسباي ، والملك الصالح محمد بن الملك الظاهر ططر وفي طاعون عام ٨٦٤هـ/١٤٥٩م توفي عدد كبير من المماليك "الظاهرية برقوق ، والناصرية فرج ، والمؤيدية شيخ ، والأشرفية برسباي ، والظاهرية جقمق ، والسيفية ، وهم مماليك الأمراء الذين يخدمون بباب السلسله ، وأولاد الناس وهم أيضا شئ كثير جدا".

ومن الجدير بالذكر أن أولاد الناس قد شاركوا في دفن من طعن من أفراد الشعب المصري والمماليك وأولاد الناس ، ففي طاعون عام ٧٧٦هـ/١٣٧٤م تزايدت الأمراض بالناس فبلغ عدد من يرد اسمه للديوان في كل يوم خمس مئة إنسان ، وبلغت عدة الطرحاء الذين يموتون في الطرقات كل يوم أكثر من مئة طريح ، فقام بمواراة الطرحاء الأمير ناصر الدين محمد بن آقبغا آص ، والأمير سودون الشيخوني "فكان الناس يأتون بالأموات إليهما ، فيغسلونهم ويكفنونهم ويدفنونهم ويقومون على أمرهم أحسن قيام".

ومن المفارقات الاجتماعية في عصر سلاطين المماليك والتي كانت سببا فيها طبيعة ذلك العصر وطريقة اعتلاء هؤلاء السلاطين العرش ، أن سلطانا من سلاطين المماليك كان في الأصل من مشتروات أمير من أولاد الناس فقد أكد كل من أبي المحاسن وابن إياس أن الظاهر جقمق العلائي كان من مشتروات الأمير علاء الدين علي بن إينال اليوسفي الأتابك قدمه الأمير علاء الدين علي للظاهر برقوق فأنزله بالطباق وصار من جملة المماليك السلطانية ، ثم تقدم وبقي خاصكيا ، وترقى ليصبح خازندار في دولة المؤيد شيخ ثم طبلخاناة إلى أن أمر تقدمة ألف في عهد الظاهر ططر ، وقد رعى الظاهر جقمق هذا الأمر في ابن الأمير علاء الدين علي الشهابي أحمد حين قدمه للمؤيد شيخ وسأل السلطان أن يجعله من جملة المماليك السلطانية ، وعندما ساله المؤيد عن الشهابي أحمد قال له "يا خوند هذا ابن أستاذي أمير علي" وكان علاء الدين علي بن إينال قد أعتق الظاهر قبل إعطائه للظاهر برقوق وسكت عن ذلك ، واستمر الشهابي أحمد بن أمير علي عند الظاهر جقمق وتولى تربيته.

ومن نافلة القول أن نذكر أن أولاد الناس من الأمراء عندما كان ينعم السلاطين عليهم بإمرات كانوا ينزلون من القلعة في موكب حافل إلى المدرسة المنصورية ببين القصرين ، وتزين لهم الشوارع وتجلس المغاني في الحوانيت وتمد لهم الأسمطة من قبل الأمراء احتفالا بإمراتهم وإقطاعاتهم.

ومن الجدير بالذكر في سياق ذلك الحديث أن نلقي الضوء على بعض مساهمات أولاد الناس التي قدموها للمجتمع ، فقد قام الأمير قطلو بك ابن قرا سنقر بتعمير القنوات وحفرها وكان مهندسا بارعاً في هذا المجال وقد أمره الناصر محمد بإجراء دراسة لحفر خليج من بركة

الحبش في سوق الخيل ومن ثم يدخل إلى القاهرة وبالفعل ذهب إلى حلوان ووزن مجرى النيل والماء وأخبروا السلطان بإمكان ذلك لكن يحتاج إلى ما قيمته ثمانين ألف دينار فاستكثر السلطان التكلفة وصرف نظره عن المشروع.

ووجه آخر من وجوه نشاط أولاد الناس في مجال الطرب والغناء وما قام به ناصر الدين محمد بن أمير علي بن شعبان بن الناصر حسن (ابن الأسياد)- كما كان يلقب- من تكوين جوقة قام فيها بالغناء والطرب فقد كان يعرف طرفا من الموسيقى مع طراوة الصوت، وقد اختص ببعض السلاطين مثل خشقدم الرومي والظاهر جقمق وأصبح من مشاهير الدولة وانصلح حاله وحال والديه، فقد كانت الفاقة قد ألمت بهم وخاصة بعد إنزال الأشرف برسباي لأولاد الأسياد من القلعة، فجاء ناصر الدين لتحسين أموال أهله وتحسنت أحواله وبنى بيتا تجاه جزيرة أروى وقد قصده الناس في قضاء حوائجهم وظل ميسور الحال إلى أن توفي.

ومن الأسياد كذلك من كان يميل إلى الطرب على قاعدة الصوفية الأمير ناصر الدين محمد بن جقمق، وكان يعرف طرفاً من ذلك الفن مع حسن المحاضرة والمذاكرة والعلوم الأخرى.

هذا وعلى الجانب الآخر رأينا في حياة أولاد الناس الاجتماعية أموراً تُستكمل بها الصورة وهي وجود بعض الاشقياء من أولاد الناس من الذين ساروا سيرة غير طيبة في المجتمع المصري، ولنضرب على ذلك بعض أمثلة دليلاً على أن الشئ لابد له من ضد لكي يستقيم الأمر، ففي حوادث عام ٨٧٦هـ/١٤٧١م شكى شخص من أولاد الناس مطلقته إلى القاضي المالكي وادعى عليها بمبلغ فأجابته بالإنكار، فالتمس بيتها قي سويقه السباعيين وكان يتهمها بشخص، فعندما أرادوا الدخول عند القاضي للحلف ضربها بسكين في خاصرتها وسقطت ميتة، وهرب وفي يده السكين ملطخة بدمائها.

وحادثة أخرى ذكرها ابن إياس عام ٨٧٦هـ/١٤٧١م كذلك عندما قام شخص من أولاد الناس بضرب امرأة بسكين في جنبها وهي سائرة بين الناس في الطريق وماتت هذه المرأة ولم يُعلم ما سبب ذلك.

وفي عام ٩٢١هـ/١٥١٥م رسم السلطان بشنق شخص من أولاد الناس كان مجرماً وله عدة قتلى، فشنق على باب الدرب الذي في السبع سقايات وكذلك في عام ٩٢١هـ/١٥١٥م أمر السلطان الأشرف قانصوه الغوري بشنق "أربعة اشخاص منهم جارية بيضاء رومية وجارية حبشية وصبي ابن ناس لفاف وشخص قواس" والسبب أن الصبي ابن الناس والقواس أفسدا الجاريتين وحسنا لهما قتل سيدهما وكان من أولاد الناس المقطعين فقتلوه وألقوا به في المرحاض، وأخذوا كل ما في بيته وسافروا تجاه أطفيح إلى أن تم القبض عليهم، وأرسلوا للسلطان وعندما تأكد السلطان من الوقعة أمربشنقهم في أقرب مكان للمكان الذي قتلوا فيه سيدهم وهو بالقرب من باب سعادة.

وبعد فهذه صور من حياة أولاد الناس الاجتماعية والتي ظهر منها أن هذه الفئة من طبقة المماليك كان لها وجود على الساحة الاجتماعية في مجتمع عصر سلاطين المماليك، وإن كان يبدو أن مشاركتهم تعد قليلة نسبياً فهذا بالطبع ناتج من كونهم فئة قليلة في قلب طبقات كثيرة شكلت المجتمع المصري في ذلك العصر.



من المواد العلمية التي قامت الدكتورة نهلة أنيس بتدريسها:

- الإستراتيجية الحربية الإسلامية.
- تاريخ الحروب الصليبية.
- تاريخ الحضارة الإسلامية.
- تاريخ الخلفاء الراشدين.
- تاريخ الدول الإسلامية المعاصرة.
- تاريخ الدولة الأموية.
- تاريخ الدولة الأيوبية.
- تاريخ الدولة العباسية.
- تاريخ المغرب والأندلس.
- تاريخ دولتي سلاطين المماليك.
- تاريخ مصر في عصر الولاة.
- التاريخ والمؤرخون عبر العصور.
- الدول المستقلة في شرق الدولة العباسية.
- السفارات والدبلوماسية الإسلامية.
- السيرة النبوية العطرة.
- مدخل إلى علم الآثار.
- مصادر التاريخ الإسلامي.
- المعالم التاريخية والمواقع بمكة والمدينة.
- منهج البحث التاريخي.
- نصوص تاريخية إسلامية.

فاكهة اليوسفي



فاكهة من الحمضيات تشبه البرتقال ، أو تُعرف بـ المندلينا أو مندرين في المغرب العربي Mandarin ، وأصل اسم المندرين من لغة أهل الملايو الذين سموه (منتاري) أي الوزير. وقد أطلق الاسم فيما بعد على مقاطعة صينية هي مقاطعة مندرين. كما أطلق أيضاً على كبار الموظفين الصينيين لأنهم كانوا يلبسون قبعات عليها زر كبير يشبه المندرين ، وكانت ملابسهم أيضاً بلون المندرين.

ويطلق على هذه الفاكهة في مصر اسم "اليوسفي" ، وترجع قصة هذه التسمية إلى مأساة في حياة محمد علي باشا (١٨٠٥ - ١٨٤٨) باني مصر الحديثة. فقد كان طوسون (١٧٩٤ - ١٨١٦) أحب أبناء محمد علي إليه ، و لقد أرسله إلي الحجاز علي رأس الحملة العسكرية لإخماد حركة الوهابيين ، و كان عمره لا يزيد عن ١٨ عاماً. فأستولي الشاب علي مكة و المدينة عام١٨١٣م وأرسل مفاتيح المدينتين إلي السلطان العثماني في استانبول.



و عندما عاد طوسون إلي مصر استقبل استقبال الأبطال ، وأقام محمد علي مأدبة كبيرة احتفالاً بعودة ابنه طوسون في ٢٩ سبتمبر ١٨١٦ م ، و لكن ما كاد الاحتفال يبدأ حتى مرض طوسون بالطاعون ، ومات خلال ٢٤ ساعة. وحين بلغ النبأ الفاجع محمد علي كاد يغشي عليه.

و بعد وفاة طوسون بسنوات قليلة استقبل محمد علي طالباً شاباً اسمه يوسف أفندي ، كان قد أرسله قبل ذلك إلي أوربا ليتعلم الزراعة. وقد جلب يوسف معه بعض أشجار اليوسفي لزراعتها في مصر ، و عرضها علي محمد علي باشا الذي سأل الطالب ماذا سيكون اسمها في مصر. فتذكر الشاب أن رجال الحاشية قد أخبروه أن طوسون هو أحب أبناء الباشا إليه ، فأجاب أن اسمها "طوسون باشا". أُعجب محمد علي بمجاملة الشاب و رد مجاملاً "حسناً ، سنسميها يوسف أفندي".

ومنذ ذلك الحين أصبح الاسم الشائع لهذه الفاكهة هو "يوسف أفندي" أو "يستفندي"

بقلم

سيد سعد

المشرف الفني على دورية كان التاريخية
صاحب مدونة مكسرات
elsayed_saad@hotmail.com



www.historicalkan.co.nr

المستقبل الرقمي للدراسات التاريخية